تاريخ التفكير الاجتماعى

الأستاذ الدكتور
عبد الهادى محمد والى
أستاذ علم الاجتماع بجامعة طنطا

٢٠٠٥/٢٠٠٦


بسم الله الرحمن الرحيم
((وقل رب زدني علماً))
صدق الله العظيم

مقدمـــــــة

مقدمة

نشأ علم الاجتماع – شأنه فى ذلك شأن كثير من العلوم الأخرى – مرتبطاً بالفلسفة ، وكان يستلهم الفكر الفلسفى فى محاولة تفسير الظواهر الاجتماعية . ولما تهيأت لهذا العلم أسباب التكامل والقوة إنفصل عن الفلسفة ، وإستقل بطرقه الخاصة فى البحث والتحليل . وصارت الفلسفة تستوحيه فى فهم بعض الظواهر التى إستطاع هذا العلم الوليد أن يستجلى جوانبها بطرقه الخاصة . وعلى ذلك فإن من يدرس تاريخ الفكر الاجتماعى عليه أن يستعرض تاريخ الفلسفة أيضاً ، فى محاولة للكشف عن البلدان التى فيها نما الوعى الاجتماعى ، وإزدهر ، وللتعرف على العلماء الذين أسهموا فى هذا المضمار ومهدوا بدورهم لظهور علم الاجتماع .

وقد كانت نشأة علم الاجتماع كعلم مستقل مثاراً لجدل طويل، حيث أنكر البعض عليه هذا الحق ، بدعوى أن الظواهر الاجتماعية لا يمكن أن تخضع لقوانين ثابتة كما هو الحال فى العلوم الطبيعية ، ذلك أنها تعتبر مجالاً خصباً للآراء الشخصية وأهواء الباحثين ، فضلاً عن إختلاطها بالكثير من القضايا الفلسفية والدينية

والميتافيزيقية . ولقد كان العلامة العربى عبد الرحمن بن خلدون مـن أوائل الذين عارضوا هذه النظرة . فانبرى لكل الدعاوى للتى تحـاول عدم اضفاء العلمية على هذا العلم . وقد سماه علم العمران مؤكـداً أن المجتمع بظواهره يمثل أحد مجالات الطبيعة ويعتبر جزءاً مـن نظـام الكون . ومن هنا لابد أن يخضع لنظام عام ملحوظ . تنظمـه قوانـين يمكن دراستها بأسلوب علمى دقيق .

وقد تعثرت الدراسات الاجتماعية بعد ابن خلـدون حينـاً مـن الدهر إختلطت فيه مرة أخرى بالقضايا الفلسفية . والدينية . حتـى جاء العالم الفرنسى أوجست كونت الذى حاول أن يخلص الدراسات الاجتماعية من الخلـط الـذى شـابها وأقـام مـا أسمـاه بعلـم الطبيعـة الاجتماعية . أو علم الاجتماع . وقد تعهد العلماء والبـاحثون قضايـا هذا العلم من بعده حتى أصبح علم الاجتماع واحداً مـن العلـوم التـى تسـهم فـى فهـم وتحليـل وتوجيـه الحيـاة الاجتماعيـة والسياسـية والاقتصادية فى معظم بلدان العالم .

وإذا عدنا مرة أخرى للفكر الاجتمـاعى . فإنـه يمكـن القـول بأنه يمثل محصلة التفكير المشترك لأعضاء الجماعة . أو المجتمع أو الرابطـة . فـى المشـكلات التـى تواجههـم وكذلـك يمثـل وسـائل

وأساليب تحليل هذه المشكلات والتغلب عليها . ومن هـذا الفكـر مـا يتعلق بتقدم الجماعات الإنسانية . ومنه ما يشير إلى أهدافهـا . أمـا أهـداف الفكـر الاجتمـاعى فتتمثـل فـى تحليـل القوانـين والعمليـات الاجتماعية الأساسية بطريقة موضوعية .

ولعـل المواقـف المعقـدة والمشـكلات المتراكمـة التـى واجهــت وتواجه الإنسان كانت ولاتزال من أهـم مـا يثـير حيرتـه . وإختـلاط أفكاره . ولكنها من ناحية أخرى من أهم العوامل التى حفزت الفكر الإنسانى . ودفعته قدما .

وإذا كان الأمر كذلك فإنه ينبغى أن يكـون الفكـر الاجتمـاعى ديمقراطياً إذا أراد الإنسان التوافق مع المشكلات عـن طريـق التفكـير فى طبيعتها ووسائل علاجها كما ينبغى أن يكـون هـذا الفكـر عالميـاً واسع النطاق . وليس محدوداً بظروف جماعة معينة أو أخرى حتـى تكـون معطياتـه متاحـة وميسـرة لكـل النـاس . وإذا الـتزم التفكـير الاجتمـاعى بالعلميـة والموضوعيـة ، فإنـه يسـهم فـى وضـع الـبرامج العلاجية على نحو عام وشامل . وليس أجـدى مـن أن ينطلـق هـذا الفكر من مقوله أن الأمراض الاجتماعية لاترجع لسبب واحد وبالتالى فإنه ليس هناك علاج واحد . وإنما تنشأ وتتفاقم عـن طريـق تداخـل

وتشابك عدد كبير من العوامل . ولذا فإن التفكير فى مواجهتها لابد أن يأخذ فى الإعتبار هذا التشابك والتداخل .

وفضلاً عما سبق فإن التفكير الاجتماعى الصادق يجب أن يقوم على فهم واع للخلفيات الفكرية المختلفة . وإحاطة كافية بالعمليات الاجتماعية . والقوانين التى تنظمها . فإذا كان الرجل العادى ينزع لتقديم حلول سطحية بسيطة لما يواجهه من مشكلات . فما ذلك إلا لكونه لم يتزود بالقدر الكافى من المعرفة الاجتماعية . والعمليات والقوانين المشار إليها . وعلى النقيض من ذلك نجد الفكر الاجتماعى ونتيجته . والظروف الموضوعية التى تنشأ فيها . والعوامل التى تداخلت على نحو معين وشكلت الظاهرة على هذا النحو أو ذاك . والعمل الاجتماعى المؤثر والفعال لابد أن ينبثق عن فكر اجتماعى عميق . لا عن معتقدات خاطئة أو فهم مبتور لتاريخ الخبرات الاجتماعية وما ينشأ عنها من فكر .

خلاصة ما سبق أن الفكر الاجتماعى نتاج لعقل الإنسان ويتأثر إلى حد بعيد بالمؤثرات التى تدخل فى تكوين هذا العقل ولا ينفصل هذا الفكر عن ماضيه . لذلك نجد المفكرين المعاصرين يعرضون للفكر الاجتماعى بإعتباره وحدة متماسكة الحلقات . تمتد

من المجتمعات البدائية إلى المجتمعات المعاصرة وليس هناك من شك في وجود علاقة مؤكدة بين الفكر الاجتماعى الخاص بعصر أو حقبة زمنية معينة وبين الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى تسود هذا العصر أو تلك الحقبة . فكثير من النظريات الاجتماعية قد أسس دعواه لمساندة فكرة أو اتجاه معين يسود المجتمع أو دحض فكرة أخرى ، على أنه ينبغى الإصلاح والتغيير .

وفى ضوء ما سبق فإنه بالإمكان الإشارة إلى خمسة اتجاهات عامة ميزت الفكر الإنسانى عبر رحلته الطويلة من هذه الاتجاهات يعبر تعبيراً صادقاً عن المرحلة التاريخية التى وجد بها :

أولاً : يتمثل الاتجاه الأول فى غلبة النزعة الدينية على التفكير الاجتماعى ، فقد كان تفشى الظواهر الاجتماعية ، والطبيعية يتم بإرجاعها لقدرة الآلهة ، أو الإله الواحد . وقد ساد هذا الاتجاه فى مرحله المجتمعات البدائية ، وفيها ظهرت الحكومات الدينية أو حكومات رجال الدين .

ثانياً : ثم بدأ التفكير الاجتماعى فى الاتجاه إلى دراسة علاقة الإنسان بالعالم ككل ، العالم الحى وغير الحى ، وقد ساد هذا الاتجاه مرحلة التفكير الفلسفى ، حيث حاول الإنسان

فهم العالم المحسوس ، وغير المحسوس فى ضوء عدد من المفاهيم سعياً وراء المعانى النهائية .

ثالثاً : وقد تبع ذلك اتجاه الإنسان إلى التفكير فى نفسه ، مركزاً على محاولة فهم وظائف التفكير، والسلوك .وقد أدى هذا الاتجاه إلى معالجات كثيرة فى مجالات علم النفس الفردى .

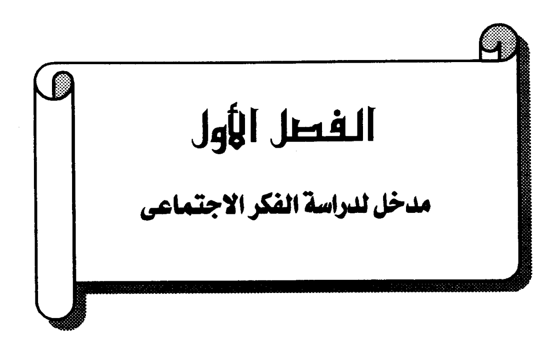
رابعاً : ثم إنعكس التفكيرالإنسانى فى إتجاه دراسة العالم المادى فى محاولى لفهم وإستثمار العناصر الفيزيقية .والإستفادة من الخبرات الطبيعية ، ويمثل هذا الإتجاه مرحلة الثورة الصناعية فى إنجلترا،وفيها تغلب الإنسان على كثير من العقبات والمصاعب الطبيعية،وأصبح سيداً للطبيعة ومؤثراً فيها.

خامساً : وفى العصور الحديثة سيطرت على الفكر الإنسانى مشكلة توافق الإنسان مع أقرانه من بنى الإنسان ، فعبر الآف السنين تركز هذا الفكر فى علاقة الإنسان بخالقة ، والتزامه نحوه ، وكذلك علاقته بالعالم الطبيعى والاجتماعى ، وتأمل ذاته ، ومحاولة تسخير الظروف المادية ، والموارد الطبيعية لصالحه ، ورغم ذلك كله أهملت الجوانب الاجتماعية لحياة الإنسان، وتم تجاهل التفكير فى طبيعة الحياة الاجتماعية واتجاهاتها

ومشكلاتها . وإذا جاز لنا القول بأن الفكر الاجتماعى هو محور الكمال فى التفكير الإنسانى . فإنه ومع ذلك يمكن القول بأن هذا الفكر لم يكتمل . وأن الإنسان حتى العصور الحديثة ظل يعانى من عدد كبير من الأمراض الاجتماعية التى تحتاج لدراسة علمية دقيقة . والتى تستوجب توجيه قدر متزايد من التفكير المضبوط فى مسبباتها وآثارها . ووسائل مواجهتها . ولعل ذلك هو ما جعل من علم الاجتماع اليوم قبلة تتجه إليها أنظار الدول بكل هيئاتها من حكام ومخططين وقادة . للرأى والفكر فيها . هذا فضلاً عن محاولة كثير من العلوم الأخرى الإستفادة من معطيات هذا العلم فى مجالاتها النوعية المتخصصة . فالفلسفة وعلم النفس والاقتصاد والتربية والقانون . وغيرها من العلوم تحاول الآن تفسير عدد كبير من الظواهر بالرجوع إلى هذه المعطيات .

والله الموفق

الاسكندرية ١٩٩٨ عبد الهادى والى



الفصل الأول

مدخل لدراسة الفكر الاجتماعي

محتويات الفصل الأول

- تمهيد .
- البدايات المبكرة للفكر الاجتماعى .
- الفكر الاجتماعى الحديث .
- تأثيرات الحرب العالمية الثانية .
- العلوم الاجتماعية بعد الحرب العالمية الثانية .

مدخل لدراسة الفكر الاجتماعي

تمهيد

لعل من أبرز خواص الإنسان باعتباره كائناً حياً ، أنـه كـائن يفكر بشكل مستمر . وهذه الخاصية هى التـى تمـيزه عنـد غـيره مـن الكائنـات الحيـة الأخـرى . وتبـدأ رحلـة هـذا التفكـير مـع بدايـة الخليقة. فقد هاش الإنسان بيئة ماديـة واجتماعيـة ، وتـأمل فيـهما وخرج بأفكار ساعدته على التكيف مع ظروف البيئة الماديـة . سـواء كان تكليفاً إيجابياً أو سلبياً ، كما ساعدته على التعامل مع قرنائة. وزملائة من أبناء المجتمع الذى يعيشون فيه .

وتحمل الآثار المنقوشة والمكتوبة علامات وعبارات عن حضارة الإنسان ، وأسلوب تفكيره ، وتعامله مع البيئة التى يعيـش فيـها . وتعامله مع أقرانه . كذلك حملت هذه الآثار والنقوش رسوماً فيـها ، عن نمط المنزل ، وأسـلوب المسكن ، وحتـى نمـط القـبر ، وأسـلوب بنائـة ومـا إنطـوى عليـه مـن أدوات ، وملابـس ومقتضيـات ، كـان الإنسان يعتقد فى البعث مرة أخرى أو الخلود ، وإنه قد يحتـاج إلى هذه الأدوات والملابس وغيرها .

ولا تدلنا الوثائق المكتوبة عن أشكال الفكر الاجتماعى فى المجتمع فى المراحل التاريخية المبكرة . هذا باستثناء حضارات معينة مثل حضارات الشرق القديم ، سواء فى مصر ، أو الهند ، أو الصين ، وما تلاها عند الإغريق والرومان واليونان وغيرهم . لكن قبل هذه الحضارات التى توافرت لدينا معلومات موثقة عنها . لاتوجد لدينا معلومات يمكن الإعتماد عليها فى إستخلاص ملامح التفكير الاجتماعى فى هذه المجتمعات

والسؤال الذى يواجهنا دائماً : ماذا نستفيد من دراسة الفكر الاجتماعى فى مراحله المبكرة .. ؟ ألا يكفى أن ندرسالمجتمعات على وضعها الراهن وصورتها الواقعية الحالية ...؟ والإجابة على ذلك تتمثل فى القول بأن المجتمعات وليدة تاريخها . وأن الفكر الإنسانى سلسلة مترابطة الحلقات ، تقضى كل حلقة للتى تليها . ففهم ظاهرة اجتماعية معينة لا يتسنى إلا إذا تتبعنا جذورها الأولى . كيف نشأت ، كيف تطورت وإذا كانت قد نشأت فى ظل ظروف مادية وإنسانية معينة . فهل هذه الظروف لا تزال قائمة حتى الآن بما يتطلب إستمرار هذه الظاهرة أو الأخذ بهذه الفكرة أم أن الظروف المادية . الاجتماعية قد تغيرت ، بشكل يفرض على الفكر الإنسانى

أن يمعن النظر فى تغيير مساره ، أو تعديل إتجاهه ؟. أو إضافة أفكار جديدة تسهم فى إثراء التراث الفكرى الاجتماعى . وإعادة تكييفه مع الظروف المتغيرة .

إن دراسة الفكر الاجتماعى تشكل قطاعات ما بين الدراسات الاجتماعية ، فهى تتضمن الجذور المبكرة لدراسة النظرية الاجتماعية وإتجاهاتها المختلفة ، ومدى ملاءمتها للواقع الإنسانى . معنى ذلك إن دراسة الفكر الاجتماعى تقدم اللبنة الأولى لإضفاء العلمية على دراسات علم الاجتماع . ومن هنا ينبغى أن تكون هذه الدراسة تكاملية بالدرجة الأولى ، بحيث تكون جامعة لكل عناصر . وتطورات الفكر الاجتماعى . وبالتالى فإنها تستعين بالرؤية التاريخية فى عرض تسلسل هذا الفكر وتطوره عبر القرون ،مع انها ليست دراسة تاريخية بمفهوم علم التاريخ ، ولكنها تستفيد من مناهجه ومعطياته المتصلة بالفكر الاجتماعى .

ولايمكن لمن يتخصص فى علم الاجتماع أن يتغاضى عن دراسة تاريخ الفكر الاجتماعى ، كذلك الحال بالنسبة للذين يتخصصون فى فروع أخرى من فروع العلم الاجتماعى . ذلك أن تاريخ الفكر يعنى ، بل ويتضمن المحاولات التى بذلت على إمتداد

الزمن لتسجيل حركة المجتمع إلى أن الإنسان قد تفوق فى فهمه لبعض الظواهر الطبيعية على فهمة للظواهر الاجتماعية ومغزاها وأبعادها ،ذلك أن الطبيعة كانت هى السياج المحيط بالإنسان منذ نشأته الأولى ، والتى مثلت تحدياً لحياة الإنسان وإستقراره . ومن هنا فقد إستطاع الإنسان تطوير معرفته بالظواهر الطبيعية ،أكثر مما يفعل فى مجال الظواهر الاجتماعية . وقد لفت هذا التطور نظر الإنسان . ومثل أمامة نموذجاً عندما يحاول فهم الحياة الاجتماعية والكشف عن ترابطاتها وتداخلاتها . هذا فضلاً عن أن التصورات الفلسفية والميتافيزيقية . قد سيطرت على الفكر الإنسانى فى فترة طويلة ، فكان تسجيل الإنطباعات الشخصية ، والتفسيرات الغيبية هو الأمر السائد فى المراحل الأولى للفكر الاجتماعى . ولم يكن المفكرون فى البداية يعتقدون فى إمكان تطبيق المناهج العلمية على شئون الحياة الاجتماعية ، أو أن هناك قوانين إجتماعية مشابهة للقوانين الطبيعية يمكن أن تفسر هذه الظواهر .

وكما أشرنا من قبل فإن دراسة الفكر الاجتماعى لا يتكون جديرة بالتقدير إلا إذا كانت تكاملية ، وتتناول كل جوانب الحياة الاجتماعية . ومن هنا يمكن تصور أن العلوم الاجتماعية المعروفة

حديثاً قد نشأت كلها نشأة واحدة فى إطار الواقع الاجتماعى الشامل والمركب . وبعد فترة من الزمن بدأت هذه العلوم تنفصل عـن بعضـها أو عن اساسـها الأول ، فاستقل كـل علـم بدراسـة قطـاع معين مـن قطاعـات الحيـاة الاجتماعيـة ، وتخصـص فـى هـذا القطـاع علمـاء وباحثون منحوة كل جهدهم وتركيزهم . ومع كل هذا فنحـن نلاحـظ حالياً ميلاً عاماً إلى العودة إلى التداخـل والتعـاون المتبـادل . واعمـال فكرة تعدد النظم العلمية فى مجال العلوم الاجتماعية . حيث إقتنـع العلماء مرة أخرى أنه لفهم الكل الاجتمـاعى المركـب والمعقـد . لابـد مـن مدخـل تكـاملى متعـدد الأبعـاد ، يغطـى أهـداف هـذه الدراسـة المرجوة . فأدركوا أن التخصص الضيق غالباً مـا يكـون علـى حسـاب الفهم الشامل والمركز للمجتمع الإنسانى .

وتنبغـى الإشـارة إلى إتجـاه هـام ظـهر فـى مسـيرة التفكـير الاجتماعى ، وهو ما عرف بالفلسفة الاجتماعية ، أو فلسـفة التـاريخ . وقـد ظـهرت الفلسـفة الاجتماعيـة أول مـا ظـهرت فـى اليونـان وإزدهرت فى الفترات السابقة على مولد علم الاجتماع كعلم مستقل . ومع أن الفلسفة الاجتماعية كانت قريبة مـن علـم الاجتمـاع . إلا أن الإختـلاف بينـهما ينصـب علـى مسـتويات التجريـد . والضوابـط

المنهجية . فكل من علم الاجتماع والفلسفة الاجتماع يتجة لوصف الوقائع وتفسيره . وملاحظة الوقائع والتعميم على أساسها . والإختلاف يقوم على اساس أن علم الاجتماع يستمد تعميماته من الوقائع التى تمت ملاحظتها . ولا ياخذ بأى نوع من التعميم إلا إذا قام على هذا الأساس . ولكن الفلسفة تتجه لفهم الحقيقة الكلية من خلال ملاحظة الفيلسوف لمجموعة من الوقائع لإستخلاص المبادىء العامة والقيم النهائية لتفسير الحقيقة ككل .وبالتالى نرى أن الفيلسوف الاجتماعى يفسر ظواهر المجتمع من خلال هذه المبادىء النهائية ، فيتحدث عن العلل الأولى ، والقيم المطلقة ، والغايات النهائية . وحينما تطورت مناهج العلوم الطبيعية والإنسانية أصبح هذا النوع من التفسير غير ملائم فلابد من التجريب وإستخدام الضوابط المنهجية التى تساعد على إستخلاص الوقائع الجزئية . وجمعها فى إطار عام متناسق ، والسعى لصياغة قوانين وقواعد اجتماعية . يمكن التأكد من صدقها بالعودة للواقع ، وجمع شواهد إضافية تدعمها وتؤكدها. ومن هنا يبدو الإختلاف بين الفلسفة الاجتماعية وعلم الاجتماع. فعلى الرغم من الإهتمام بمجال واحد ، إلا أن أسلوب التفسير والتجريد ، والتعميم يختلف فى كل منهما عن الآخر .

البدايات المبكرة للفكر الاجتماعى :

سبق أن أشرنا إلى أن الفكر الاجتماعى قديم قدم الوجود الإنسانى ذاته . ولذلك يصعب تحديد بداية معينة تقول إن الفكر الاجتماعى قد بدأ فيها ،فطالما وجد الإنسان فرداً . أو أكثر . أو جماعة أو مجتمعاً ، فإن هذا الفكر هو لازمة هذا الوجود .

لكن من أرضو للفكر الاجتماعى درجوا فى العادة . على أن يبدءوا هذا التاريخ من المجتمعات التى لها تاريخ مكتوب،أو وجدت آثار أو حفائر تدل على شكل أو نمط هذا التفكير.أما المجتمعات التى ليس لها تاريخ،أو آثار،فإنها تخرج من نطاق هذا الفكر .

إن العقل الإنسانى لم يتوقف عن التأمل فى الظواهر الطبيعية المحيطة . الأمطار والسيول والرعد ، والحرارة الشديدة ، وكان حينما يحار فى هذه الظواهر يلجأ للتفسير الدينى . سواء فى حالة الإعتقاد بآلهة متعددة ، أو فى حالة الإعتقاد بإله واحد . أة أن التفسير الدينى للظواهر ، قد جاء فى مرحلة تاليه للتفسير الغيبى . أو الميتافيزيقى ، الذى كان يعزو الظواهر لوجود قوى خفية فيما وراء الطبيعة هى التى تحركها،وهى المسئولة عن ظواهرها المختلفة . وإن التفسيرات الميتافيزيقية أو الدينية،وجدت لدى الشعوب البدائية

التى توافرت عنها وثائق أو حفريات ،تفسر بعض جوانب حياتها .

وقد بدأت الكتابات المدونة عن الفكر الاجتماعى بدءاً عما ساد بلدان الشرق الأدنى القديم ، ومع أن حضارات الشرق الأدنى القديم قدمت أدبيات كثيرة فى مجال الفكر الاجتماعى ، إلا أنها لم تنل الإهتمام الواجب لدى مؤرخى الفكر الاجتماعى خاصة الغربيين. وكان مصدر ذلك يرجع إلى نزعة عنصرية متحيزة لاتريد أن تعترف لهذه البلدان بأى فضل فى تطور الحضارة الإنسانية . وفى ابسط الحالات يمكن تفسير هذا الإهمال بجهل هؤلاء العلماء والكتاب بطبيعة اللغات التى كتبت بها هذه الأدبيات . وإن كنا نرى تصاعداً فى الإشادة بفضل الحضارات القديمة ، وما قدمة للفكر الإنسانى والإجتماعى .ويبدأ هؤلاء بالفكر الاجتماعى فى مصر الفرعونية ، فنجد الآن تراثاً متزايداً حول نظام الحكم الذى كان يعتمد على الأساس الدينى، كذلك البناء الطبقى المصبوغ أيضاً بصبغة دينية . حيث يجىء الفرعون من قمة هذا البناء،يليه الآلهة أو رجال الدين ثم الصناع،وقادة الجيش،والمهن،ثم عامة الشعب.والمهم هنا هو الصبغة الدينية التى كان يتميز بها هذا الفكر،والتى كانت تفسر كثيراً من الأمور السياسية،والإقتصادية، والقانونية.

كما يشير الكتاب إلى الحضارة الصينية . وأثرها على الفكر الاجتماعى، خاصة أراء الحكيم الصينى كونفوشيوس، ذات السمة الأخلاقية، والمثالية. كما إستند هذا الفكر أيضاً إلى الطابع الدينى. فقد فسر الكثير من القوانين الخاصة بشئون المجتمع، تفسيراً دينياً على أنها نعمة من الإله الأعظم. كذلك إمتد أثر هذه الآراء إلى التربية. وتعليم الطلاب الناشئين. وإلى تفسير التدرج الطبقى فى المجتمع .

أما فى الهند ، فقد لعب رجال الدين البراهمة دورا بارزا فى الحياة الاجتماعية ، إلى الحد الذى إنحرف فيه أبناء هذه الطبقة عن التعاليم الصحيحة ، وإستغلوا تقديس الشعب لهم فى تحقيق مميزات خاصة . وقد لعبت قوانين (مانو) دورا كبيرا فى تأكيد الطابع الروحى للحياة الاجتماعية فى الهند القديمة والتركيز على تخليص الجسد من الماديات والشهوات والملذات . وتكشف التأملات البوذية الكثير عن هذه الجوانب ، مع أنها لم ترق إلى مستوى النظرية السياسية ، أو الاجتماعية . الأمر الذى يؤكد أن الفكر الاجتماعى فى مصر القديمة كان أكثر تطورا منه فى الهند القديمة .

ولقد درج العلماء والكتاب علم التأريخ للبداية الحقيقية للفكر الاجتماعى ، بظهور الفكر اليونانى من منطلق أنه أول فكر مكتوب

ومنظم من ناحية ، وإنـه يتضمـن معظـم الإتجاهـات التـى دار فيـها الفكر الاجتماعى فيما بعد ، فمن المادية التجريبية إلى المثالية . ومن أمور الحياة إلى نظم الحكم والسياسة . ومـن الإتجاهـات الواقعيـة إلى الإتجاهات الأخلاقية والمثالية . كل ذلك وعى المفكرين إلى النظر إليه كبداية ملائمة لدراسـة الفكـر الاجتمـاعى . ومـع إننـا ى ننكـر هـذا الفضل . أى فضل الفكر اليونانى . إلا أنه من الخطأ أن نغمط الفكر السابق عليه حقه . فلقد كان الفكر الاجتمـاعى فـى مصـر القديمـة . والصين . والهند ، فكراً رائداً بمقاييس العصـور التـى ظـهر فيـها . والتى كانت موغلة فى القدم والتخلف .

الفكر الاجتماعى الحديث :

يتجه بعض دارسى الفكر الاجتماعى . والنظرية الاجتماعية . إلى دراسـتهما مـن منظـور مرحلتـين كبـيرتين ، الأولى قبـل الحـــرب العالمية الثانية ، والأخرى بعد هذه الحرب . وهو تقسـيم عـام يشـير إلى أن هذه الحرب قد سببت نقله نوعية للفكـر الإنسـانى . بحيـث إختلفت طبيعته وموضوعاته . خاصة فى علم الاجتماع بعدها . عمـا كان قبلها .

فلقد أصبح من الواضح فى العصور الراهنة أن الناس أصبحـوا

أكثر قدرة على مواجهة مشكلاتهم المعقدة فى ضوء ماحققته علوم مثل الهندسة ، والطب ، والتكنولوجيا ، فقد أتاحت هذه العلوم للإنسان أن يستفيد من نتائج تقدمها المذهل فى كافة المجـالات . ومع ذلك فإن الأمر يختلف إذا نظرنا إلى الشئون الإنسانية ، والإجتماعية ، فسوف ندرك بذلك أن الأمور فى هذا الجانب ليست الآن افضل مما كانت عليه منذ فترة طويلة مضت . فمجالات البؤس والشقاء والحرمان بالنسبة لملايين البشر لم تتغير كثيراً فظواهر المعاناة والجوع، والفقر والمرض ، لاتزال توجد فى كثير من أنحاء العالم . كما أنه من الصعب التنبؤ بإمكانية تحاشى الصدام بين القوى الكبرى فى العالم. فالولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال لا تزال بعيدة عن تحقيق قواعد الديمقراطية الحقيقية فى نظام الحكم السائد فيها . ولم تحقق بعد الرفاهية المنتظرة لكل فئات شعبها . وفى هذا المجال نلاحظ أزمات تتلوها أزمات فى المجال الاجتماعى، والثقافى ، والاقتصادى .

ومعنى ذلك أننا قد حققنا سيطرة كبيرة على الجوانب الطبيعية للحياة ، وفى الوقت نفسه فإننا نقف عاجزين عن تحسين نوعية حياتنا ، ففى أمريكا لاتزال الصراعات ، السياسية ،

والعنصرية ، والسلالية تطغى على كثير من جوانب الحياة الاجتماعية . وإنه لأمر محير فى مثل هذه البلدان أن تحقق نجاحاً فى السيطرة على الأمور الغامضة ، ونفشل فى السيطرة على المشكلات الخاصة بحياتنا الاجتماعية ، وأنساقها السائدة . فنجد الناس يموتون جوعاً وحرماناً بمعدل أكثر مما يموتون نتيجة لظروف طبيعية . كما تزداد الحدة حينما نجد أن الناس يتجهون لدراسة العلم والتكنولوجيا ، أكثر مما يهتمون قد أحدث العلوم الاجتماعية فى الحياة والعلاقات الاجتماعية ، إلا أنه يبقى التساؤل عما إذا من الضرورى منح إهتمام متزايد لدراسة المجتمع نفسه باعتباره أحد الملامح الرئيسية لتعقد وإشكالية الوجود الإنسانى فى ذاته .

وفى ظل هذه الأوضاع يسود إتجاه بين علماء الاجتماع المهتمين بتاريخ الفكر الاجتماعى وتطوره ، أن يختاروا من بين العلماء أولئك الرواد الذين نزعوا فى فكرهم إلى تقديم أفكار ونظريات تساعد على تطوير والإرتقاء بنوعية الحياة الاجتماعية . ومواجهة المشكلات التى تواجهة البشر ، وتحول دون إستمتاعهم بهذه الحياة، أو حصولهم على حاجاتهم الأساسية . ويرى هؤلاء أن تلك أفضل وسيلة للتأريخ لتطور الفكر الاجتماعى .

إن هناك طرقاً عدة لدراسة السلوك الإنسانى . وبالتالى الفكر الاجتماعى . فهناك الماركسية التى إجتذبت عدداً كبيراً من الأنصار والتابعين . وهناك البنائية الوظيفية ، ومنظوراتها التى لقيت رواجاً كبيراً فى الفكر الاجتماعى الأكاديمى فى أمريكا وبعض بلدان العرب. كذلك شملت الفترة التالية للحرب العالمية الثانية محاولات لبناء أطرت تصورية من خلال نماذج رياضية تفسر أداء النظم الاجتماعية والإقتصادية . كذلك ظهر إتجاه يدعو الى التمسك بالمنهجية . وآخر يدعو إلى علم الطبيعة الاجتماعية . وكل هذه الإتجاهات أو المدارس تطرح مداخل مختلفة وكل منها تدعى أن مدخلها هو الأكثر ملاءمة لتفسير الحياة الاجتماعية ، وتغطية ما تسعى المداخل الأخرى لتفسيره . وإن طرحهذه المداخل أمام المبتدئن فى دراسة علم الاجتماع تهيىء لهم مناخاً علمياً وخلفية نظرية واسعة لتحقق قضايا هذا العلم .

ولعل طرح مختلف الإتجاهات أمام دارس علم الاجتماع . يسمح لهم بمزيد من الحوار مع كل من هذه الإتجاهات . أو المداخل. أو النظريات .وقد يسفر ذلك فى النهاية عن تمحيص دقيق لهذه الإتجاهات . والإختبار العقلانى من بينها . ويتيح إمكانية

التخصص فى إحداها ، أو تطوير رؤية معينة ، جديدة ، أو خاصة بالدارس نفسه . ومن هنا فإنه يجب ترويض الطالب على أن يدرس المقولات التى تطرحها كل مدرسة فكرية بعقل مفتوح ، وفكر مرن يتجه إلى صلب هذه المقولات دون تعصب لرأى معين ، أو عالم معين. ومن خلال ذلك فإن الدارس سوف يطور رؤية معينة ، تتفق مع فكر معين ، أو تختلف مع مدخل فكرى آخر . وهو فى النهاية مدرك لتنوع الفكر الاجتماعى ، وتصارع كثير من الأفكار السائدة فيه. فالاتفاق على فكرة أو إتجاه معين فى دراسة هذا العلم لا يفيد الدراس أو القارىء . ولكن الإنفتاح على كل فكر بعقل فاحص ونقدى سوف يكشف للدراس عن جوانب القوة ، وجوانب الضعف أى هذه الأفكار أقرب للإتفاق ، أو أيها أكثر قابلية .

إن التنوع فى الإتجاهات والأفكار والمدارس الاجتماعية ،ينبغى ألا يخلق نوعا من التشوش عند القارىء أو الطالب ، لكثرة ما تتضمنة من قضايا وأفكار . ومن ماحية أخرى فإن كل عالم من العلماء الرواد فى مجال الفكر الاجتماعى ، قد تميز بالتأكيد على جانب معين ، مثل تميز ماكس فيبر بدراسة البيروقراطية ، وتميز غيره بدراسة المنهجية ، وماركس بالتأكيد على الإقتصاد والجوانب

المادية كأساس للأفكار والقيم والمعايير ... وهكذا. ومع كل هـذا فقد أصبحت دراسة الفكر الاجتماعى والنظريات والأفكار الكبرى المتضمنة فيه ، هامة بالنسبة للإنسان العادى ، وليست قلصرة على المتخصص فى هذا المجال. إن القارىء أو الدارس فضلا عن كل ذلك لابد أن يسأل نفسه ،هل هـذا الفكر أو ذاك واقعى ،أو عملى بالقدر الكافى ..؟ كما يتساءل عما يمكن أن نستفيد مـن دراسته . وإلى أى مدى يساعدنا فى حياتنا العملية

ويهتم برنامج الدراسة فى تاريخ الفكر الاجتماعى بإعطاء فكرة مختصرة إلى حد ما عن إسهامات كل عالم ، ويترك الدراسة التفصيلية لهذه الإسهامات لمرحلة تالية ، أو برنامج تال . ذلك أن عرض تراث هؤلاء العلماء والمفكرين بشكل تفصيلى منذ بداية الدراسة قد يصيب الدارس المبتدىء بشىء من الخلط ، والتداخل والتشوش .

ومن ناحية أخرى فإن إدراك العائد الفكرى من دراسة الفكر الاجتماعى ، يعتمد إلى حد بعيد على وعى الدارس بمضمون هـذا الفكر وأبعادة ، وإمكانية الإستفادة منها . فالقضايا الاجتماعية بطبيعتها تتضمن مستوى عاليا من التجريد ، والمواقف المعقدة ونادرا ما كتبها أصحابها وفى ذهنهم الأبعاد الخاصة بالتطبيق العملى أو

الواقعى ، ولكن كتبوها أو صاغرها وفى أذهانهم أنـها تـثرى الـتراث المعرفى الإنسانى ، وأنها ضرورية ، بقدر ما هى هامة . وإعتقدوا أن فهمها وإضافتها لهذا التراث سوف يؤدى إلى مواجهة أمور واقعية . مثل الحـرب ، وأمـراض البيروقراطيـة وغيرهـا مـن المشـكلات التـى تواجهنا فى عالم الواقع . ومع ذلك فإن هناك علماء إهتمـوا بدراسـة كفاءة بعض الإجراءات ، مثل برامج الرعاية الصحيـة فـى المجتمـع الريفى . وإعتبرت أعمالهم ذات أثر كبير على المستوى الواقعى وفى حالات كثيرة مثل هذه نلاحظ أن الدراس يستعين بأفكـار عـالم مثـل ماكس فيبر ، ويستعين بنموذج الأخلاق البروتسـتانية الـذى طـوره . كما يتوصل فى كثير من الحالات إلى أن قضايا الصحة والعلاج تتـأثر فى عالم الواقع بأفكار ومنظورات أيديولوجية . لكن المـهم فـى الأمـر أن الأفكـار المتضمنـة فـى نظريـات العلمـاء الاجتمـاعيين ، لا يمكـن إدراك تأثيراتها فى عالم الواقع إلا بفـهم متعمـق . فقد ينـدر وجـود عالم الاجتماعى يقدم لك وسيلة جاهزة عـن كيـف تكـون قـائدا . أو كيف تكون سعيدا فى زواجك ، حيث لا يتم ذلك بشكل مباشر عـبر النظرية الاجتماعية ، أو أفكار رواد العلـم الاجتماعى ، ذلـك أن نظرياتهم الأفكار المجردة أبعادا واقعية وتطبيقية .

تأثيرات الحرب العالمية الثانية :

حينما نستعرض آراء الرواد فى مجال الفكر الاجتماعى . سوف نجد إختلافا واضحا بين أفكار السابقين على الحرب العالمية الثانية ، وأفكار اللاحقيقن عليها ، ذلك أن هذه الحرب تركت آثارا كبيرة على عقلية علماء الغرب ، فحتى نشوب الحرب كانت هناك أفكار تضاؤلية آخذه فى النمو ، تتضمن التضاؤل الشديد بالمستقبل . ولكن الحرب جاءت بعد ذلك بظروف وأحوال متغيرة ومثيرة لم يعهدها الناس من قبل . فالإختراعات والتجديدات التكنولوجية التى عرفناها بعد ذلك ، فأصبحت عادية وجدت ذورها فى هذه الفترة .

ومن أمثلة ذلك ما ظهر من إختراعات الطب الحديث . والطيران ، والراديو والأفكار التطورية ، وأفكار فرويد ، وماركس . والماكينات التى تعمل بالوقود السائل ، ووسائل الإتصال والإعلام الحديثة ، كل هذه وجدت جذورها فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين . فقد كانت هناك آمال جديدة حول أمور مثل معدل الحياة وطول العمر . ومثلث هذه عوامل جذب كبرى حول الشئون الإنسانية ، والرفاهية على المستوى العالمى . ولهذا ظهر المستقبل أمام الناس متضمنا آمالا غير محدودة . وهنا تعظمت القدرة

علـى تطبيـق الفكـر الرشـيد عنـد ظـهور أى مشـكلة مـن المشـــكلات الإنسانية . ومعنى ذلك أنه قد تعاضمت الآمال حــول إمتـداد تطبيـق الأفكار العلمية التـى ظـهرت بالإسـتخدام المنـهج العلمـى وتطبيقاتـه التكنولوجيـة ، إمتـداد تطبيقـها علـى الشـئون الإنســانية . وحتــى مشكلات السلوك الفردى أصبح من الممكن فحصها ودراسـتها بشـكل علمى من خلال التطور الذى حدث فى علم النفس . وبنفس الطريقـة أمكـن دراسـة السـوق . وفـهم عملياتـها مـن خـلال التطـورات التـى حدثت فى الدراسة العلمية للعملية الإقتصاديــة . كذلـك تطـور فـهم الجوانب السياسية بشكل موضوعى من خلال التطورات التى حدثت فى علم السياسة . وبشكل عام صاحب هذا التضاؤل إعتقاد كبير فـى أن كافة الشئون الإنسانية ستدخل فى إطار الفـهم العلمـى . وتطبـق عليها المناهج العلمية الحديثـة . بعـد أن كـان يتـم الفـهم العلمـى . وتطبق عليها المناهج العلمية الحديثة ، بعد أن كان يتجــه النظـر إلى هذه الشــئون نظـرة مثاليـة . أو مجـردة ومـن هنـا سـاد الإعتقـاد أن المجتمع الإنسانى سوف يمكن السيطرة عليــه وتحديـد مسـار تطـوره ونموه بنفس الأسلوب الذى تمت به السيطرة على الأمور التكنولوجية والتطبيقية . ولقد كان هذا كله ضروريا لإحراز تقدم واضح فى مجــال

البحث والنظرية ، فقد وجد أن الداروينية الاجتماعية شأنها شأن الإختراعات التكنولوجية ، كانت تحمل بين طياتها أفكار التقدم والتطور الإنسانى والطبيعى بشكل متلازم . فعلى سبيل المثال نجد أن دارون قد أكد بشكل حاسم أن التقدم أمر لا يمكن تجنبه أو أنه أمر حتمى ، وأن أحوال التقدم قد تفوقت على أحوال التدهور .

وفى هذا الإطار كان هناك علماء مهتمون بالتقدم الذى حدث فى المراحل الأولى للثورة الصناعية ، وكان من أشهرهم كارل ماركس، الذى كان مبهورا بنتائج هذه الثورة وما أحدثته من تقدم . ومن أجل هذا توصل إلى نظريته التى كانت بشكل أو آخر يوطوبية أو مثالية . فلقد كان لديه طموح فى أن هذا التقدم سوف يساعد البشر على تنظيم شئونهم وإدارتها ، وكذلك تقريب الفوارق بين الطبقات وإزالة أسباب الظلم الاجتماعى التى كانت منتشرة فى هذا الوقت، وما صاحبها من فروق طبقية صارخة.وإمتد طموح ماركس إلى إمكانية القضاء على الفقر والبؤس،والسيطرة على الصراع،إلى الحد الذى يمكن فيه النظر إلى الحرب على أنها شأن من شئون الماضى .

وفى ضوء ذلك كله كان ماركس من العلماء الذين اثروا فى التراث الإنسانى فى القرن التاسع عشر ، وجذبت أفكاره مئات

الملايين من البشر فى هذه الفترة ، وربما حتى العصور الحديثة .

لقد سيطرت النزعة التفاؤلية عند كل من ماركس ودارون على عقول قطاعات كبيرة من البشر ، وكذلك المهتمين بتطوير وتنمية أسلوب الحياة الاجتماعية فى المجتمعات الحديثة . ومع أن الكساد العظم الذى ظهر فى بداية الثلاثينات من هذا القرن قد أصاب البعض بشىء من الإحباط . إلا أن الأمل فى السيطرة على مثل هذه الظواهر ، وتجنب حدوثها مرة أخرى . التخفيف من حدة آثارها على البشر ، كان هذا الأمل لا يزال باقيا ، إنطلاقا من التقدم الذى كان قد حدث ، ومن إستمرار الإعتقاد فى إمكانية تطوير البحث الجاد من أجل التوصل إلى نظرية ملائمة تساعد على القضاء على مثل هذه الأزمات .

فالقادة والمسئولون الإقتصاديون الذين أخذوا بنظرية جون كينز حاولوا على سبيل المثال القضاء على الإحباط الاجتماعى ، والكساد . وفى الوقت نفسه تزايد إعتقادهم بأن النظريات الإقتصادية أصبح من الممكن تطبيقها علميا لصالح البشر . وفى الوقت الذى إنتشرت فيه هذه الأفكار فى الولايات المتحدة الأمريكية ،كان الروس يدخلون فى تجربة جديدة للضبط الاقتصادى، والسيطرة على

الأزمات الإقتصادية . وكان هذا كله يمثل فترة من فترات التفاؤل .

ولقد طبق هذا التفاؤل أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية بأحداثها الدرامية . ووصلت أصداؤه إلى الكليات والجامعات الأمريكية كلها ، وسادت النزعة بأن المستقبل أكثر إشراقا ، فقد تضاؤلت المعارضة للنزعة الديمقراطية المتصاعدة ، وتزايدت معدلات الإنتاج ، وإنتشر التعليم الجامعى وأصبح الإلتحاق به حقا ديمقراطيا. ونظمته قوانين كثيرة . فانتظم الآلاف ممن لم يكونوا يحلمون بدخول الجامعة فى جامعات كثيرة ، وتدرجوا منها إلى المستويات الأعلى . وحينئذ ظهر جليا أنه لم يعد هناك ما يعوق خطوات التقدم نحو التكنولوجيا الراقية ، أو نحو الحياة المتمدنية .

إن الإيمان بالأسلوب والمنهج العلمى بلغ ذروته فى هذه المرحلة . فقد إن الإيمان بالأسلوب والمنهج العلمى بلغ ذروته فى هذه المرحلة . فقد حقق الإنجاز التكنولوجى الذى نتج عن البحث العلمى ، إمكانية تعويض أو إختصار الأيدى العاملة ، والعمل اليدوى ، والإتجاه نحو مستويات أكثر راحة ورفاهية . ولكن ظل هناك يقين كامل بأن العلم قد إنتصر فى الحرب ، وإن العلم هو القوة بلا منازع ، وبالتالى فإن دخول العلم إلى مجال الدراسات

الإنسانية ، والسلوك الإنسانى . يمكن تحقيق فقط من خلال فهم أعمق . يمكن أن يؤدى بنا إلى أفضل ، وأقوى من أشكال المجتمع الإنسانى . وقد توصلت هذه الأفكار إلى أن العلم هو الوسيلة الممكنة لتطوير وتهذيب القيمة الأخلاقية للجنس البشرى .

العلوم الاجتماعية بعد الحرب العالمية الثانية :

على الرغم مما سببته الحرب العالمية الثانية من آلام . إلا أنها على الرغم من ذلك كانت مفتاح الأمل للإعتماد على العلم فى الشئون المادية ، وكذلك فى الأمور الأخلاقية . فقد كانت إيذانا ببزوغ آمال كثيرة ، وفى الوقت نفسه كانت القوة الدافعة لتنمية هذه الأمال . فقد أتاحت هذه الحرب للمفكرين المتعمقين لكى يكتشفوا ماحدث ، فرأوا أن هذه الحرب أدت إلى إكتشافات تكنولوجية مذهلة ، وإكتشفوا أن الناس لم يكونوا جاهزين لإستيعاب قوة العلم التى حدثت ، فأصبح هناك مطلب أساس يتمثل فى أن أصبحوا أكثر عقلانية وحكمة ، فى الوقت الذى أصبحوا فيه أقوياء ، كما إتضح أنه إذا كانت الحياة الاجتماعية لاتزال تتضمن أسبابا للمعاناة، فإن ظروف الحرب قد أبقت على الأمل الذى كان قد تفجر فى هذا الوقت .

على سبيل المثال كشفت الحرب العالمية الثانية عن إن إحتمال قيام حرب عالمية ثالثة يعنى دمارا للبشرية بأسرها . ودمار للمدنية الإنسانية . وخلق نسق جديد للقيادة يتمكن من التعامل تطوير نوع جديد من الإنسان الحياة الإنسانية . وخلق نسق جديد للقيادة يتمكن من التعامل مع المشكلات ، وعدم الوقوع فى الوقوع فى مشكلات جديدة. فمع النمو فى قوة الأسلحة الجديدة . أصبحت النتائج التى يمكن أن تترتب على أى خطأ أو سوء تقدير نتائج تؤدى إلى كارثة ورعب أكيد ، وكان هذا هو الوضع الذى وجدت العلوم الاجتماعية نفسها فيه مع نهاية الحرب العالمية الثانية .

ولقد تصور البعض فى البداية أن هذا التحدى يمكن التغلب عليه ، ذلك لأن التحدى الناتج عن الحرب قد تم التغلب عليه بنجاح ، حيث ظهرت الحاجة مرة أخرى إلى الوقت . والمال ، والبحث ، وإستمرار تطبيق الفكر العقلانى الواعى . ومن هنا لا تستعصى أى مشكلة على الحل ، ولم يكن حل هذه المشكلات المعقدة نوعا من تجربة الفكر الإنسانى الرشيد فحسب . وقد تم التوصل إلى أن الناس سوف لا يستمرون فى إدارة شئون حياتهم الإقتصادية ، والإجتماعية والسياسية على النحو القديم الذى سبق

أن مارسوه فى الماضى . كذلك فإن نظم الحكم واساليبة قد تغيرت بشكل جذرى بعد الحرب الثانية .

وإذا كانت الحرب العالمية الثانية تشكل درسا . فإنه بالتأكيد درس محير ، لايزال يتطلب مزيدا من الفهم . ما الذى تسبب فى قيام هذه الحرب ؟ لقد إكتشف الباحثون أنه ليست هناك إجابة عامة شاملة على هذا السؤال . فهناك من قال أنها تعكس السلطة الديكتاتورية فى ألمانيا . وهناك من قال إنها الروح الشريرة. ومن قال إنها تمثل هروبا من الحرية ومع مرور الوقت إتضح أن الوضع فى ألمانيا ، وعبر العالم بأسره أمر يصعب فهمه فى ضوء المعلومات التى راحت تتكشف عن هذه الحرب وملابساتها فى ألمانيا وغيرها من البلدان . وفى جميع الحالات فان ما ظهر عن هذه الحرب لم يقدم الشىء الكثير بالنسبة للنسق الأخلاقى السائد عبر المجتمعات الإنسانية هامة لا يمكن تجاهلها ، كما ظهرت أهمية العلم الاجتماعى والفكر الاجتماعى فى تحريك الناس وتوجيههم نحو التقدم الأخلاقى بشكل أكثر عقلانية ورشدا . ولقد شجع ذلك على نمو الحلم القديم الذى تمثل فى الأمل فى علم اجتماعى محكم ومنطقى ينظم الفعل الإنسانى ، وفى الوقت نفسه يكون مختلفا فى

الشكل عن العلم الطبيعى .

ففى العلم الطبيعى الظاهرة منتظمة وثابته فى كل مكـان . وفـى كـل زمـان عـبر العـالم كلـه ومنـذ ملايـين السـنين . وحتـى ملايـين السنين . ولكن الأمر فى العلوم الاجتماعية مختلف إلى حد كبير . فمـا نـراه من ظواهـر واصحـة هنـاك يعـدوا أن يكـون واضحـا هنـاك . ولكنـه ليـس أزليـا . وليـس أبديـا . فسـمة التغـير فـى الظواهـر الاجتماعيـة هـى السـمة الأساسية . ولهذا فإن هناك حدودا أو قيودا على هذه الدراسات فى مجـال التعميم المطلق ، أو الإعتقاد فى ثباتها المطلق . وقد ظهر ذلك أو ما ظهر فـى مجال الإقتصاد الحديث ، حيث فشـل هـذا العلـم فـى التنبـؤ بكثـير مـن الظواهر ، مثل التدهور والكساد وغيرها ، وفى الوقت نفسه فشـل فـى كثـير من الحالات فى السيطرة والكساد على هذه الظواهر السلبية ، مع أنه أكثر العلـوم الاجتماعيـة إحكامـا وضبطـا ، مـن حيـث أنـه يسـتخدم النمـاذج الرياضية . والمنطق الريـاضى وضبطـا ، مـن حيـث أنـه يسـتخدم النمـاذج الرياضية ، والمنطق الرياضى ، ويتفوق فى النواحى التجريبية على غيره مـن العلوم الاجتماعية .

وهكذا فإن القرن العشرين يعتبر حقبـــة التأكيـــد والإهتمـــام بالعلوم الاجتماعية . فالأمل لا يزال باقيا ، على الرغم من أن حجـم ومعدلات المشكلات الاجتماعية قد تزايد فى هذا القرن ، وإتضح إنـه

لا يمكن مواجهتها بالشكل المثالى الذى كان سائدا من قبل . ولقد تمثلت الإستجابة لهذه الظروف التالية للحرب الثانية فى نوعين . الأول ، يمكن تسميته بالإتجاه المحافظ الذى أكد على أن مبادىء الفكر الاجتماعى السابقة كانت صحيحة ، وأن العصور الذى ظهر فيها كان مرجعه للبشر أنفسهم ، وأنه لو تم بذل المزيد من الجهد . والبحث . والجدية . فإن هذه المبادىء سوف تستعيد عافيتها . وتؤثر من جديد . وقد علق هذا الإتجاه آمالا كثيرة على المعادلات الرياضية ، والمادة الواقعية أو التجريبية . والكمبيوتر . والتنظير الرشيد الذى يستخدم قواعد العلية وغير ذلك من النماذج المنطقية .

أما الإستجابة الثانية التى جاءت بعد الحرب الثانية فيمكن تسميتها بالإستجابة الراديكالية ، أو النقدية . وقد عارضت الإتجاهات المثالية المبكرة والتصورات الأخرى المرتبطة بها . والتى يؤكد عليها أيضا الإتجاه المحافظ .

وعلى هذا فإنه يمكن القول إن العلوم الاجتماعية قد إنتعشت من خلال تيار التفاؤل الذى صاحب النزعة العلمية والتكنولوجية فى القرن التاسع عشر . خاصة فى السنوات الأخيرة منه . وإستمرار الإعتقاد فى إمكانية الضبط الرشيد للمجتمع ، مثلما يتم فى الطبيعة .

إستمر هذا الإعتقاد أثناء الحرب الثانية .

ولعل إستعراضنا السابق لهذه التطورات . وما سبق منها الحرب العالمية الثانية ،وما أعقبها ، وإنعكاسات ذلك كله على العلوم الاجتماعية، والفكر الاجتماعى بشكل عام . يوضح أن الفكر الاجتماعى قد إتجه من خلال منظورات متعددة إلى أفكار ومبادىء لم تكن موجودة من قبل ، وأثرت ولاتزال تحدث تأثيرها على هذا الفكر . وقد كان هذا العرض عاما ويحتاج لمزيد من التفصيل عبر الصفحات التالية .

الفصل الثانى

الفكر الاجتماعى عند شعوب الشرق القديم

محتويات الفصل الثانى

- تمهيد .
- أولاً : الفكر الاجتماعى فى مصر القديمة .
- ثانياً : الفكر الاجتماعى فى الهند القديمة .
- ثالثاً : الفكر الاجتماعى فى الصين القديمة .

حلاصة .

تمهيـد :

قبل أن نعـرض لتـاريخ الفكـر الاجتمـاعى عنـد شـعوب الشـرق القديم، سنشير فى عجالة إلى الفكر الاجتماعى فى المجتمعات البدائية التى تعرف شعوبها ببساطة بأنها تلك الشعوب التـى لا تعـرف القـراءة والكتابة ، بل تفتقر إلى هذه الخاصية الثقافية ، وهى اللغة المكتوبـة ، وذلك بغض النظر عن موقعها الجغرافى أو لونها أو انتمائها السلالى .

وتتسـم المجتمعـات البدائيـــة ، بالإضافـة إلى متغـير القــراءة والكتابـة، بالعزلـة التـى تـؤدى إلى ثبـات التفكـير الإنسـانى ومقاومـــة التغيير، وأهمية تنظيم القرابـة ، والضبـط الاجتمـاعى غـير الرسمـى ، وسيادة تمييز دقيق بين السلوك الاجتماعى للرجل والمرأة ووجود تحديد واضح لعمـل الرجـل وعمـل المـرأة ، ومعرفـة بعضـها للأفكـار الخاصـة بالمحافظـة علـى التـوازن بـين المـوارد الطبيعيـة وعـــدد الســكان فـــى المجتمع، وسيادة نمط مـن القيـادة يتمتـع أصحابـه بمكانـة مقدسـة أو روحية .

ونحن نهتم فـى دراسـة الفكـر الاجتمـاعى بـهذه الشـعوب بمـا يتوافر لديها من حكم وأمثال وخـبرات مختلفـة ، وكذلـك نظمـهم فـى

الحياة والإنتاج ، والقواعد التى تنظم علاقاتها المختلفة ، وتفيدنا هـذه الدراسة فى الوقوف على ما لهذا الفكر من مزايا أو عيوب ، وما أسـهم به فى رحلة تطور الفكر الاجتماعى .

ويتسم الفكر الاجتماعى فى المجتمعات البدائية بما يلى :-

١- إن التفكير الاجتمـاعى فـى المجتمعـات البدائيـة ، كـان انعكاسـاً للتنظيمـات الجماعيـة والعشـائرية قبـل أن يكـون تـأملاً للحيـاة الاجتماعية .

٢- اهتم الفكر الاجتماعى بالتحديات التى كانت تصادف الإنسان فـى حياته ، والمواقف التى كـان يقـف حيالهـا موقـف العجـز ، وعلـى هذا ، فإنه من الممكن تتبع طبيعة الفكر البدائى من خلال التنظيمات الاجتماعية التى كانت تؤدى من خلالها بعض الممارسات والطقـوس الدينية ، وفى نفس الوقت كانت ترمى إلى تحقيـق أهـداف وظيفيـة عملية أكثر منها تأملات تجريدية ، فقد حاول الإنسان بشكل دائـم أن يتكيف للبيئة التى يعيش فيها ، كما حـاول السـيطرة عليـها ، واستغلال مواردها لصالحها . وفـى هـذه المحـاولات ، كـان يصنـع الآلات والأدوات التى تساعد فى هذا المجال ، وذلك بالتعاون مـع

زملائه وأقرانه فى المجتمع .

٣- نمآ الجانب التأملى للفكر الاجتماعى البدائى وتطور فى ظل تصور البدائى لوحدة الحياة واتصالها المستمر ، دون إدراك للحدود والأبعاد والفواصل الزمنية والمكانية .

٤- أدت النزعة الدينية التى ظهرت بجلاء فى الفكر البدائى دورها كعامل مساعد فى حماية التنظيمات العشائرية ، وكانت هذه النزعة تصور العالم الاجتماعى على أنه مزود بقوة مادية روحية فى الوقت نفسه ، مثلما يتجسد فى فكرة (المانا) التى كان البدائى يتصور أنها تتخلل كل شىء ، وهى تقابل فكرة (الكاريزما) عند الهنود ، والبركة والكرامة عند البدويين ، وقد تصور أن هذه القوة من شأنها أن تزيد الإنتاج ، وتساعد على العمل باعتبارها مبدأ خير ، كما أنها تستطيع إيقاع الأذى أو إلحاق الضرر فى بعض الحالات . والفرق بين المقدس وغير المقدس فى الفكر البدائى كان يعتمد على درجة توفر قوة (المانا) فى الشىء ، فضلاً عن أن غير المقدس يمكن أن يتحول إلى مقدس عن طريق بعض الممارسات السحرية والطقوس الدينية .

٥- كانت معظم المبادئ والتصورات العقلية اجتماعية الأساس ، فالكثير من أشكال التصورات البدائية تجسدت على هيئة معتقدات وممارسات وطقوس دينية ، ولكن خلفياتها تنبثق فى الأساس من أفكار اجتماعية سائدة فى الجماعة أو العشيرة أو المجتمع . فالعقيدة الطوطمية مثلا ، والتى وجدت عند سكان استراليا ، وأمريكا الأصليين والتى نظر إليها العلماء على أنها من أبسط مظاهر التنظيمات الاجتماعية الدينية تقوم على أن أفراد القبيلة أو العشيرة قد انحدروا أصلا عن فصيلة طوطمية واحدة ، فيعتقد الرجل أن ثمة رابطة حقيقية وسلالية تصل وجوده المادى والاجتماعى بأجداده الطوطميين .

٦- تشير الإسهامات التى قدمها الفكر البدائى للمعرفة الإنسانية عامة إلى انهيار دعاوى "ليفى بريل" عن العقلية البدائية التى تذهب إلى أن العقلية البدائية كانت آلية ، أو أن البدائى كان يخضع خضوعا آليا فى عاداته وتقاليده دون إدراك . فعلى العكس من ذلك كان البدائى يفكر وفى إطار منطقى ، وله منطقه وفلسفته الخاصة فى الحياة ، فكثيرا ما كان البدائى يميز بين الصواب والخطأ ، فهو إنسان مفكر ، ولفكره جوانب عديدة تتمثل فى أخلاقه ومثله والكلمات والحكم المأثورة عند البدائيين توضح ذلك .

وكثيرا مابدأ الكتاب والمفكرون فى التأريخ للفكر الاجتماعى ، من الفلسفة اليونانية بدعوى أن هذه الفلسفة تعتبر أول صورة للتفكير الانسانى المنظم . غير أن هذا من شأنه أن يقلل من عظمة الفلسفات الشرقية السابقة على الفلسفة اليونانية ، ويغفل دورها الذى أسهم فى تقديم الفكر الانسانى وتطوره . فقد توصل فلاسفة الشرق القديم إلى طائفة كبيرة من الأفكار والنظريات التى استوحى منها علماء اليونان مادة علمية نتج عنها بعد ذلك ماهو معروف فى الفكر اليونانى . فمعالجات الفلاسفة والحكماء ، والمشرعين والمصلحين الاجتماعيين فى الشرق القديم ، اهتمت بأمور على قدر كبير من الأهمية شأنها شأن معالجات الفلاسفة اليونانيين . وفضلا عن ذلك فان التراث الفكرى للشرق القديم بيتميز بأن له تاريخا مكتوبا . ذلك أن بلدان الشرق كانت قد تقدمت من مرحلة الصيد والترحال ، إلى مرحلة الزراعة والاستقرار الاجتماعى . كما شهدت تقدما فنيا وتكنولوجيا ترك آثاره التى تدل على ماكانت عليه هذه الشعوب من حضارة . أضف إلى كل ذلك أن هذه الشعوب قد عرفت نظام التخصص وتقسيم العمل الاجتماعى ، وغير ذلك .

وسوف نتناول هنا بعض هذه الحضارات فى محاولة للوقـوف على ما أسهمت به فى تقدم الفكر الاجتماعى

أولاً : الفكر الاجتماعى فى مصر القديمة :-

كان الفلاح ولازال عنصراً أساسياً فى المجتمع المصرى . لأن مصر كما هو معروف بلد زراعى . وكان الفلاح فى مصر كما هـو الآن مرتبطا بالأرض . والطبيعـة . والحيـوان والنبـات . والأدوات التـى يستخدمها . ورغم ماكـان يواجـه الانسـان فـى مصـر مـن مشـكلات تتمثل فى ندرة الطعام والغذاء . وقسوة البيئـة . الا أنـه كـان قانعـا شديد الايمان . يعتقد فى القوى المقدسة . ويـرى أثرهـا فـى حياتـه وزرعه وثماره . وكان يمارس حياته الاجتماعية كما يحلو له من غناء وضحك . ورقص فى الحفلات والأعياد . يقدم القرابين ويشارك فى الطقوس . ويغامر فى الحرب وحملات الصيد .

أ- الجوانب الاقتصادية :-

كما هو واضح كانت الزراعة تمثل عصب الاقتصـاد فـى مصـر القديمة . ومع ذلك لم يقتصر النشاط الاقتصادى على شـئون الزراعـة بل امتد إلى التجارة وفنون الصناعة . فاسـتغل المصريـون نهـر النيـل فى الاتصال بالمجتمعات الأخرى على نحـو قضـــى علـــى عزلتهـــم

الجغرافية والاجتماعية وقد خلق هذا الاتصال قدرا كبيرا من الأفكار الاقتصادية والسياسية . والأخلاقية التى تنظم المعاملات الانسانية . وكانت المجتمعات المصرية القديمة هدفا لغارات القبائل النازحة من آسيا . الأمر الذى أدى إلى احتكاك المصريين بشعوب أخرى سواء كانت أقل حضارة أم أكثر . وتشير الوثائق التاريخية إلى أن الفكر الاجتماعى فى مصر القديمة كان على وعى بنظام الملكية . الذى كان يعتمد أساساً على حقوق الهيئة . فلم يكن يجوز للفرد أن يمتلك المعابد . ولم يكن الكهنة ملاكا . ولكنهم كانوا يستثمرون الأرض الزراعية لصالح الهيئات الدينية . كما كان كبار الملاك يمنحون الكهنه بعض الأملاك بقصد الصلاة على أرواحهم بعد وفاتهم . فضلا عن تقديم القرابين إلى هؤلاء الكهنة . أما الفلاحون فكانوا يعملون بالأرض وشكلوا طبقة أنصاف الأحرار . ووجد فى هذا النوع من المجتمعات نظام العبيد الذين كان امتلاكهم ينتقل بالميراث من فرد لآخر . أى أن الرق كان مشروعاً . ولكنه كان يقوم على امتلاك الزنوج وأسرى الحرب الأجانب .

ب- الجوانب السياسية :-

تشير الوثائق التاريخية المحققة أن المصريين – خاصة سكان

الدلتا – قد عرفوا المدينة بوصفها "وحدة سياسية" قبل أن يعرفها اليونان أنفسهم . وكانت المدن المصرية تتمتع بالاستقلال الذاتى ، وكانت بمثابة مراكز اجتماعية وتجارية حية عاش أهلها على التجارة النيلية ، لأنها كانت ملتقى القوافل البرية ، فضلا عن كونها مراكز ومراسى للسفن . وقد أجمع كثير من العلماء على أن أكثر النظم الحكومية تطورا هى تلك التى نشأت وتطورت فى مصر ، وفى الدلتا بشكل خاص ، مما يشير إلى أن النظم الاجتماعية السائدة كانت تتمتع بقدر كبير من العقائد والأفكار المشتركة التى نشأت فى حياة مصر . واتفقت عليها عقول الأفراد بصفة عامة . وهو الأمر الذى أدى إلى استقرار النظم الحكومية .

وحينما توحدت البلاد وأصبحت امبراطورية واسعة ، غدت مجالا لتيارات اجتماعية بعضها موال لنظام الحكم ، والآخر تعرض له فى بعض أمور السياسة الداخلية والخارجية . كما أنه هناك مؤشرات على تبرم بعض طبقات الشعب من تسخير الحاكم لهم فى خدماته وأعماله الخاصة . فضلا عن عدم استيعاب بعض الأجناس، والأقليات الغريبة داخل التكوين الاجتماعى والثقافى للمجتمع . وكل هذه الأمور كانت مصدر للكثير من التيارات السياسية

والاجتماعية التى وجدت فى المجتمع. ومع كل ذلك فقد كانت نظم الحياة الآجتماعية والسياسيه ، والتى وضعتها الأسر الأولى صالحة للعصور التالية ، مما يدل على أنها كانت تستحوذ على تأييد الرأى العام الشعبى ، وأنها قاومت الكثير من التيارات التى هبت على المجتمع المصرى وفى هذا دليل على تطور هذه النظم ورقيها .

جـ- الجوانب الدينية :-

عكست الطقوس ، والممارسات الدينية فى المجتمع المصرى القديم جوانب الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية والفنية . كذلك ارتكزت السلطة السياسية على الحكومة الدينية التى جعلت من الفراعنة آلهه ، ومن الكهنة طبقة الأشراف والمثقفين ، والحكماء والقضاه .

وقد كان لكل عشيرة اله أو معبود ، وقد أدى اتحاد العشائر إلى اتحاد هذه الآله أو المعبودات ، من هنا كانت الأساطير القديمة تصور التحالف السياسى السائد فى المجتمع ، لذلك فان التفكير الدينى كان يعكس الأوضاع الاجتماعية والسياسية ويعبر عنها . وقد ظهرت فى هذا المجتمع فلسفات دينية تفسر خلق العالم ونظامه الاجتماعى ، وكان مركز هذه الفلسفات المعابد المركزية فى هليوبوليس ، منف ، وطيبة .

كذلك ظهرت فكرة الالهه الوظيفيين الذين يجدون اهتمامات المجتمع . ولما كان المجتمع زراعيا بالدرجة الأولى كما أشرنا . فقط كان هؤلاء الآلهه يتعهدون الانتاج الزراعى والحيوانى . فكان اله الأرض يدعى توت . كما كان هناك اله للرى والحصاد . والحبوب وغير ذلك . وقد نتج عن هذا الاهتمام بالثروة الحيوانية تقديس بعض الحيوانات مثل العجل "أبيس" فى منف . "كبش آمون" فى طيبة وغيرها . وقد تجلى تقديس هذه الحيونات عند العامة دون غيرهم وهو الأمر الذى يصور الاهتمامات الاقتصادية التى كانت سائده وأنها كانت العامل وراء هذا التقديس .

وفى هذا الجو احتل الكهنة مكانة بارزة فى المجتمع . فقاموا بوظائف التعليم ارضاء للآلهه إلى جانب قديسة الأدب والعلم . فكان الكاهن يقوم بتعليم أبناء حيه وجيرانه فى مكان ملحق بالمعبد. وتكفلت الدوله بالنظام التعليمى والدينى فأنشأت دورا ومراكز خاصة لهذا الغرض . ومعنى ذلك أن الصبغة الدينية قد أحاطت الفكر الاجتماعى فى هذا المجتمع . وقد اعتقد المصريون القدامى بالاتصال أو الامتداد بين الحياة والموت . وأن الميت سوف يبعث فى القبر مرة أخرى . ويفسر ذلك ماعثر عليه فى مقابرهم من أدوات وآنية .

وأوراق توضع إلى جانب المتوفى . بالاضافة إلى العناية الفائقة بدفن الموتى واظهار عظمتهم وتسجيل تاريخهم للأجيال التالية .

د- الجوانب القانونية والتشريعية :

كما كانت الجوانب التشريعية فى المجتمع المصرى هى الأخر متطوره إلى حد بعيد . فيجمع الباحثون على مدى اسهامهم فى التشريع وجمع القوانين . فقد كان تشريع الملك أو ماعرف بالمنطوق الالهى هو التشريع الأمثل . وكان هذا المنطوق يصدر فى صورة مراسيم واجبة الطاعة والنفاذ . فعلى سبيل المثال صدر مرسوم (حور) من أجل اعادة الأمن للبلاد . واعادة تنظيم الجهاز الادارى . والقضاء على الرشوة والفساد واستغلال النفوذ . وجاء فيه "أن الرجل الفقير هو الهدف المقصود بالحماية من الظلم ، والرخاء الاجتماعى هو الغايه التى ننشدها" وتضمن المرسوم عقوبات لكل من ينشر الفساد فالمذنب تقطع أنفه ، وينفى إلى خارج الحدود . وقد ذهب البعض إلى أن المرسوم كان قاسيا وصارما . ولايتناسب مع مظاهر الجرائم والانحرافات التى كانت تحدث . ولادراك المصريين لأهمية الوحدة القانونية فى دعم الوحدة الاجتماعية . وتحقيق المساوة العامة أمام

القانون . قاموا بمحاولتين ناجحتين فى هذا المضمار . الأولى قام بها (بوخوريوس) مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين . والثانية قام بها (أحمس) من أجل تحقيق هذه الوحدة . ثم تبع ذلك العمل على تقوية السلطة المركزية . وتنظيم الهيئات الشعبية القائمة على شئون الاصلاح تنظيما ادرايا وقانونيا .

هـ- *الجوانب العلمية والطبيه :*

وقد برع المصريون القدامى فى الجوانب العلمية على نحو سجله لهم التاريخ كاسهام فكرى وحضارى متقدم . ومن هذه الجوانب ما قدموه فى مجال الفلك والطبيعة والهندسة والدراسات الكونية والانسانية . فمن ملاحظاتهم للطبيعة توصلوا إلى طائفة غير يسيرة من التجارب التى كشفت النقاب عن بعض مظاهر الكون . وصمموا الخرائط . ومسحوا الأرض . الأمر الذى مكنهم من التوصل إلى بعض التصميمات الهندسية . والرياضية . ومن الناحية الطبية كانت البرديات تحتوى على خليط من العلاج المنزلى . والاسعافات الأولية التى تقوم على استخدام الأعشاب . إلى جانب الايمان بالقوى الخارقة التى تنطوى عليها التعاويذ والأحجبة . وبرديات الطب المصرى تعتبر من أقدم الآثار الموجودة فى علوم البيولوجيا .

والفزيولوجيا . والجراحة . والتاريخ الطبيعى . ومن أهم هذه الآثار الطبية (بْردية أودوين سميث) وكذلك (بردية ايبرس) وهما محفوظتان فى متحف (بروكلين) . وهما من أقدم الوثائق التاريخية فى الجراحة . وتبحث الأولى فى ثمانية وأربعين حالة جراحية مرتبة حسب أعضاء الجسم . مبدئه بالرأس . ومنتهية بالقدمين . وقد كان اتجاه المصريين فى العلاج يدل على مبلغ علميتهم . وأهمية ما كشفوا عنه من ملاحظات طبية علمية . وتركيب الجسم . وعلاقة أعضائه ببعضها .

و - *الجوانب الاجتماعية الأخرى :*

ونحاول هنا عرض بعض الجوانب الاجتماعية التى لم يتضمنها التحليل السابق . فمن حيث الوضع الطبقى . نجد أن تصورهم للبناء الطبقى مرتبط إلى حد كبير بالأفكار السياسية . فكانت هناك مؤشرات على وجود طبقتين من المجتمع . الأولى طبقة مقدسة تشتمل على الفرعون وأنساله وكهنته. والثانية أرضية أو غير مقدسة . وهى طبقة عامة . بما فيهم التجار والزراع والجند . وكان من نتائج اندماج رجال الدين والحكام فى طبقة واحدة أن ظهرت نظرية تأليه الفرعون ، ودعم سيادته . ونشر سلطاته . واستقرار

الوحدة الدينية والسياسية . ولكن مالبثت أن ظهر بعض القادة . والزعماء من أبناء الشعب أى من الطبقة الثانية . وقد كان لديهم اعتزاز بقوميتهم وكفاحهم . الأمر الذى أدى إلى انقراض الطبقة المقدسة . فأضيفت طبقة ثالثة إلى الطبقتين القائمتين – الحكام ورجال الدين – وعامة الشعب . أما فى عهد الملكية الحديثة فقد ظهرت طبقة لها أهميتها . وهى طبقة الجند خاصة عندما لجأ الملوك فى هذا العصر إلى الاستعانة بجنود مرتزقة . ومنحوهم امتيازات كثيرة . بما فيها ملكية الأرض . فأصبح هؤلاء يشكلون طبقة جديدة هى طبقة قادة الجيش الذين استطاعوا الاستيلاء على مقاليد الأمور . أو التدخل فى توجيه شئون الحكم والدولة . وقد كان لتدخل هذه الطبقة فى شئون المجتمع . ومحاولة فرض سيطرتها . أثره فى حث الشعور القومى . وظهور حركات المقاومة السلبية . وقد كان لذلك أثر كبير فى عهد الامبراطورية الحديثة وأما من حيث الحركة الفنية والأدبية فقد كانت موضع اهتمام المصريين القدماء . وقد كان الفن فى هذا المجتمع هادئا وعميقا . ويعبر عن أمثلة ونماذج كثيرة من البطولة . والصبر . والتروى . وأضفى كثيرا من الملامح المتطورة على الحضارة المصرية التى كانت احدى

حضارات ست عرفها العالم القديم . وقد كان الانتاج الأدبى خصبا فى العصور القديمة . وماتلاه كان ترديدا أو تقليدا للفن القديم . وقد قلدت كثير من الثقافات القديمة ما قدمه الفن المصرى ورددت كثيرا من الأوضاع والتعبيرات عن هذا الفن .

وقد ظهر شعراء كثيرون ، وأدباء ، وفلاسفة منهم على سبيل المثال (حورددف . أمينحتب . خيتى . بتاح حتب) وقد ترك هؤلاء قصصا وروايات رائعة ، مثل قصة "سنوحى" وقصة "الأخوين" وقصة "الحق والباطل" و "الأمير المسحور" . كما تركوا أغان تمجد البطولة . والحب قبل الزواج . وأخرى أخلاقية تمجد الطبيعة وتسترضيها . هذا فضلا عن كثير من كتب الأدب الدينى . واحتل الكاتب والأديب فى المجتمع المصرى مكانة مرموقة . كانت تدنوا من مرتبة الحكماء والقديسين . فالكاتب هو الجدير بالخلود ، ورضاء الآلهه بعد وفاته . وكذلك كان الانتاج الأدبى فى مصر القديمة متركزا فى العصور المبكرة أو القديمة ، وقد تلون فى العصور الحديثة وأصبح مدرسيا . واستخدم فى أغراض حياتية . وكان أدب العصور المتأخرة مقصورا على احياء الآداب القديمة . وفى نفس الوقت كان هذا الاحياء عقيما لعدم ادراك القائمين عليه للأهداف والاتجاهات التى اتخذها مساره التطورى .

وفى نهاية استعراض جوانب الفكر الاجتماعى فى مصر القديمة يمكن الاشارة إلى مدى تطور هذا الفكر . بل وأبعد من ذلك كان له تأثيرا إشعاعيا على الحضارات القديمة الأخرى . فالعبرانيون الذين كانوا أكثر الشعوب القديمة بغضا لمصر . كانوا يتغنون بحكماء مصر . وحكمها . ويفخرون بقولهم "لقد تعلم موسى كل حكمة المصريين" . وكذلك اعترف اليونان بأنهم أخذوا علومهم ومعارفهم الأولى من المصريين . وقد كان تدهور الحضارة المصرية القديمة فى أخريات أيامها مأساة هزت الكثير من الشعوب التى كانت تنهل من الحضارة والفكر المصرى القديم . ومع كل هذا فقد كان الفكر الاجتماعى فى مصر القديمة غير منتظم على أسس منهجية وعلمية . ولعل هذا هو سبب اخفاقه فى الوصول إلى علم منظم كما فعل علماء اليونان من بعدهم .

ثانياً : الفكر الاجتماعى فى الهند القديمة :

اكتشف العلماء كثيرا من الآثار الأدبية . والدينية والصوفية فى الهند القديمة جذبت الأنظار نحو تراثها الاجتماعى العريق . وتعتبر الاشعار المعروفة (ماهابهارتا) من أقدم المصادر التى تعكس الأفكار الاجتماعية فى هذه الحضارة وامتزجت الأفكار الاجتماعية

فى هذه الحضارة . بالقواعد الدينية . والممارسات والطقوس . وسوف نحاول تلمس ملامح الفكر الاجتماعى فى الهند القديمة من خلال الجوانب التالية :-

أ- الجوانب السياسية والحكومية :-

تعبتر قوانين (مانو) من أقدم التشريعات الموجودة بالهند . وتتألف مما يربو على ثلاثة آلاف بيت من الشعر . منسوبة إلى شخصية خرافية صورت فى صورة اله صغير تلقى الوحى عن (براهما) نفسه . ويتضح أن هذه القوانين من وضع جماعة البراهمة أنفسهم حيث قصدوا منها إلى تعليم الأجيال التالية لهم أوضاع الحياة . وجوانب السلوك الاجتماعى وهى تعكس الأفكار الأساسية التى كانت تسود المجتمع الهندى . وفى ثناياها يتضح أن سلطة حكام الهند كانت سلطة دكتاتورية لايوقف تسلطها الا تدخل رجال الدين من البراهمة الذين كانوا يتمتعون بوضع غير عادى أشارت إليه الشرائع المقدسة . وارتكز على النظام الاستبدادى . وفكرة الجزاء . وقد أسرف هؤلاء الحكام فى تقرير الجزاءات . معتمدين على قوانين (مانو) التى أكدت دور الجزاء فى حفظ الكيان الاجتماعى واستقرار النظام . فالله هو الذى وضع الجزاء فى أيدى

الحكام ليساعدهم على أداء وظائفهم كما يرضاها . فمصدر الجزاء مقدس . لذلك لابد أن يخشى الأفراد من بطشه . اذ تهاونوا فى أداء وظائفهم والتزاماتهم . ورغم ما أحيط بفكرة الجزاء من تقديس وسياج دينى إلا أنها كانت تسهم فى التمادى فى الظلم الاجتماعى فى المجتمع الهندى القديم .

ب- *البناء الطبقى* :-

وقد تميز النظام الطبقى فى الهند القديمة بأن الدين قد حدد قواعده وما يترتب على هذه القواعد من علاقة ينبغى أن تقوم بين الطبقات المختلفة . وكان من نتائجه أن الوضع الاجتماعى لايمكن أن يتغير من الأصول إلى الفروع بل انه موروث وجامد . وكذلك فانه كان يفرض الخضوع للعرف والتقاليد ، والدين على أفراد كل طبقة . وفق ما يرتبه من أدوار والتزامات . وأوحت قوانين (مانو) بأن البناء الطبقى هو الآخر مقدس ومصدره الهى ، وكل طبقة تمثل جزءا من أجزائه الثابتة ، وعلى ذلك كان المجتمع ينقسم إلى أربع طبقات هى: البراهمة وهم رجال الدين . والكشائرية . وهم المحاربون . وطبقة (الفيزيا) Vaisyas وتتكون من الصناع والتجار . أما الطبقة الأخيرة فهى طبقة (السودرا) وتتضمن العبيد والأرقاء . فالطبقة الأولى

تمثـل (رأس الآلـه) والثانيـة تمثـل (ذراعـه) والثالثـه تمثـل (فخـذه) والرابعة تمثل (قدمه) .

وعلى أساس هذا التقسيم يتفاوت أفـراد المجتمـع فـى المركـز الاجتماعى . والحرية الشخصية والسياسية والثراء . فالطبقة الثالثـة والرابعة مثلا ليس لهما حق فى الحريـة السياسـية . أو الوصـول إلى الحكم . أو التمتع بأى سلطة اجتماعية . وفضلا عن الطبقات الأربع المذكورة . أشارت النصوص (المانوية) إلى وجـود طبقـة خامسـة دنيـا وهى التى عرفت بطبقة (الباريا) أو المنبوذين . وقوامها قبائل وطنيـة لم ترد عـن دياناتهـا الفطريـة . ولم تعـترف بسـموا البراهمـة . بـل ناهضوا سلطان هذه الطبقة . ونسبوا البراهمة إلى أصل وضيع . وقـد تكونت هذه الطبقة الأخيرة من أسـرى الحـروب . والذيـن أصبحـوا عبيدا أو أرقاء بعد توقيع الجزاءات عليهم .

وهكذا فان المتتبع لتاريخ الطبقات فى الهند القديمة يجـد أن المنزلـة الاجتماعيـــة لكـــل منهـــا تطـــورت تبعـــا لظـــروف الحيـــاة الاجتماعية، واختلاف الديانات والعقائد . ولما أصبحت البراهما شبه مقدسة استغلت الوضع الخاص بها استغلالا يثير الدهشة فغدت فـى نظر الهنود احدى وسـائل التأثير فـى الطبيعـة والانتـاج الزراعـى .

واعتقدوا أن ارضاءها يجنب البلاد الشرور والكوارث . والأمراض المختلفة . وعن هذا الطريق اكتسبوا مالا وجاها وسلطانا لاحدود له على حساب عامة الشعب . وعملوا على المحافظة على هذا الجاه من خلال العمليات التربوية التى يقومون بها . ويوضح ذلك اسراف قوانين (مانو) فى الاشارة إلى المزايا المقدسة لهذه الطبقة . والتى يجب أن تكون فى حسبان الشعب والحكام معا . فلا تفرض عليهم ضرائب مهما كان الوضع الاقتصادى للدولة . ولاتطبق عليهم الجزاءات مهما فعلوا . وكل هذا يفسر المكانة التاريخية التى حظيت بها هذه الطبقة على مر الأجيال . بحيث يمكن القول بأن تاريخا أطول من تاريخ أى طبقة استبدادية فى العالم . كما يفسر بطء النمو والتغير فى المجتمع الهندى . وما أصابه من جمود لفترات زمنية طويلة .

غير أن أول ثورة عارمة على البناء الطبقى . وامتيازات البراهمه كانت تلك التى قادها أنصار الديانة (البوذية) . وهى ديانة ثورية متطورة تفرعت عن البراهمية الجامدة . ونجد أن هذه الديانة على عكس الديانات الأولى نادت - وربما لأول مرة - بوجوب المساواة بين جميع المواطنين فى الطقوس والعبادات . حيث كانت

البراهمية تقصر الحياة الدينية على طبقة رجال الدين من البراهمة . وقد أسس هذا المذهب (ساكيا مونى) وأدت تعاليمه إلى تخفيف القيود الاجتماعية . وحدة الفواصل بين الطبقات الاجتماعية . وقد قبل فى جماعته أناسا من كل طبقة ودعى رجاله ومريديه إلى الانتشار فى الأرض . واعلان أن الفقراء والأغنياء سواسية ، وكلهم فضلاء . ولهم الحق فى المشاركة فى الحياة الدينية على قدم المساواة ، وتتضمن هذه الدعوة فى ثناياها قدراً كبيراً من الحريات والمساواة الاجتماعية . وإزالة الفوارق القديمة . وقد شن أبناء هذه الجماعة حربا لاهواده فيها على الظام الطبقى . والامتيازات التى يتمتع بها قلة على حساب مجموعة الشعب . وقد عكست أشعار البوذيه هذه المبادىء ، واستندوا فى دعاواهم إلى فقرات من قوانين (مانو) نفسها . وقد استندوا إلى جانب ذلك على الأدلة الفلسفية ولكن مع كل ما تمثلة البوذية من رقى فكرى واجتماعى . الا أنها لم تستطع ادراك القضايا والنظريات الاجتماعية والسياسية المتصلة بشئون الحكم ، وحقوق المواطنين . واصطبغت معظم الأفكار الواردة فيها بالصبغة الدينية والصوفية .

ومن كل ما سبق يتبين أن الفلسفة الهندية فى جملتها قد اهتمت بالعالم الآخر ، وليس بالحياة الدنيا ، بل اعتبرت الحياة

الدنيا شرا لابد أن يزول . والعالم الآخر عالما أعظم ومطلبا أسمى . ومن هنا لم تتضمن نسقا تربويا اجتماعيا يساعد على تكوين النشىء الصالح . بل تضمنت نسقا دينبا يؤدى إلى تربية قديسين ومتعبدين ونساكا . الأمر الذى أبعد الناس عن التفكير فى الدوله والمدينة . والحقوق والواجبات الاجتماعية .

ومع كل هذا لم تخل حضارة الهند القديمة من وجود مفكرين اجتماعيين حاولوا تطبيق بعض الآراء الاجتماعية فى السياسة العلمية . ومن بين هؤلاء المفكر الهندى (كوتيلا) الذى تحدث عن نشأة الدولة ودافع عن نظرية الحكم المطلق . على أساس تصوره أن الحالة البدائية تسيطر فيها دائما شريعة الغاب . ولابد من حكم قوى يحمى الضعيف من ظلم القوى وبطشه . ويعمل على تطبيق القانون واحلاله محل سلطة الغاب . وعن هذا الطريق يستمر المجتمع ويتطور . فالحزم والمكر من صفات القائد والحاكم ومع كل هذا أشار إلى بعض الأفكار الديمقراطية مثل اشتراك الشعب فى الحكم عن طريق مجالس الشورى . أى أن التعاليم البوذية كانت تهتم بأمور الحياة العلمية إلى جانب اهتمامها بالزهد . فهى إلى جانب ذلك ذات طبيعة أخلاقية سلوكية .

ثالثاً : الفكر الاجتماعى فى الصين القديمة :

كانت الفلسفة الصينية تتميز عن غيرها من فلسفات الشرق القديم فى توكيدها الجوانب الانسانية ومخاطبة أفراد المجتمع ، وخلق أجيال من المواطنين الأحرار . هذا إلى جانب كونها فلسفة عملية لم ترتبط بالدين . لذلك اهتمت بجوانب الحياة الاجتماعية عامة ، والسلوك الأخلاقى خاصة . وإذا كان الدين فى الهند القديمة والذى يشرع للمجتمع ، فان التفكير الانسانى – أو العقل– هو الذى كان يشرع فى الصين القديمة . أما الاتجاهات الواضحة فى الفكر الاجتماعى الصينى القديم فكانت تتمثل فى الاتجاه الكنفوشى ، والاتجاه القانونى ، والاتجاه التاوى . وأخيراً الاتجاه التعاقدى .

أ - *الاتجاه الكنفوشى :*

أسهم هذا الاتجاه فى دراسة كثير من القضايا الاجتماعية ، والسياسية ، والاخلاقية ، ورائده هو الحكيم الصينى "كونفوشيوس" الذى يمكن النظر إليه على أنه مؤسس أو لمدرسة اجتماعية فى الحضارات الشرقية القديمة . وكان لهذا الاتجاه أثره فى الحياة الفكرية ، والعملية للصين قبل الثورة الشيوعية المعاصرة . وقد ارتكزت الأفكار فى هذا الاتجاه على تمجيد النظام الاقطاعى

وتقويته، واعتباره أساسا للبناء الاجتماعى ، والتنظيم الاقتصادى . والسياسى ، حيث يؤكد (كونفوشيوس) أن المجتمع لابد أن يكون طبقيا ، يصان فيه حق الملكية ، وقد يكون ذلك رد فعل لما انتشر أيام هذا الحكيم الصينى من آراء شيوعية ، وفوضوية ، وسيادة مظاهر الاضطراب وعدم الأمن ، وكانت آراء هذا المفكر ضرورية لمواجهة هذه الأوضاع بسياسة اجتماعية اصلاحية كان هدفها احياء التقاليد الصينية العتيقة ، والتى كانت تدعم النظام الطبقى فقد كان الامبراطور ، وأسرته فى قمة البناء الطبقى ، يليه الأمراء ، والنبلاء والولاه والأشراف. ثم السوقه وعامة الشعب فى نهاية السلم الطبقى. وكان لكل طبقة من هذه الطبقات خصائصها وعاداتها وتقاليدها ، وطقوسها الدينية الخاصة . ولكن لم يكن مثل النظام الطبقى فى الهند الذى كان يورث ولامجال فيه للحراك من طبقة لأخرى .

وقد رأى كونفوشيوس أنه سبيل إلى اصلاح ما فسد من النظام الاجتماعى ، الا باصلاح النظام الأسرى فى المجتمع . فالفرد هو الوحدة الأساسية فى بناء الأسرة ، والأسرة هى نواة المجتمع ككل ، فاذا استقام الفرد كان خير دعامة للأسرة ، وعن هذا الطريق ينصلح حال المجتمع ويسهل حكمه . والحياة الأسرية المنظمة – كما يرى – تفرض على الأفراد نظاماً اجتماعياً أدق من كل ما تهدف إليه

القوانين الوضعية بكل ما تتضمنة من قوة . فاذا اختل بناء الأسرة وانعدم تضامنها الاجتماعى . فلن نستطيع تهيئه النظام الاجتماعى المنشود . ومن ثم لايرجى للمجتمع تقدما ولا سعادة . فمن الواجب على أفراد الأسرة أن يقوموا من أنفسهم وعقولهم . ويتزودوا بالمعارف بالقدر الذى يمكنهم من التغلب على دوافع الشهوات والرذيلة . وإذا قامت الأسرة على هذه الأسس تحقق نظام اجتماعى يساعد على استقرار النظام السياسى . ومع توفر الحرية والمساواة .

وقد أولى كونفوشيوس عناية فائقة للتعليم فطالب بانشاء المدارس الابتدائية . والثانوية . ونشر التعليم الجامعى . وقد رأى فى التعليم طريقا للفضيلة والحضارة وطالب بتخطيطه . ومنح المتعلمين فرصة اختيار ما يرغبون تعلمه . وتكوين معلوماتهم بجهودهم الذاتية خاصة فى المستوى الجامعى . وأكد على أهمية التعرف على ميول الطالب وقدراته . والبعد عن التلقين والحفظ . وغير ذلك مما يجعل للتعليم دورا اجتماعيا خلاقا فى المجتمع . وقد كان الرجل معارضا قويا لسياسة الحكام من أجل صالح جموع الشعب . وحبا فى مناشدة الخير العام . والقضاء على الفوضى والرقى بالأوضاع الاجتماعية القائمة . ونادى بتوزيع الثروة على

أوسع نطاق ممكن للقضاء على الحقد والحسد الاجتماعى الذى يعد من أخطر الأمور التى تواجه الأمم .

وهكذا يمكن القول بأن الآراء الكنفوشية مثالية أو يوطوبية حيث كان يهدف إلى رسم ملامح مجتمع مثالى ، وحكومة مثالية من كافة نواحيها . ومع ذلك فقد كان على حق حينما اهتم اهتماما بالغا بمعالجة النظام الأسرى واصلاحه ، وبنائه على أسس قويمة ، كمدخل لاصلاح المجتمع الأوسع .

وقد تابع "مانشيوس" الذى ينتسب إلى نفس الاتجاه تعاليم أستاذه كونفوشيوس وقد امتاز بالشجاعة والجرأة ، فواجه الحكام ، وتقدم لهم بالشكاوى اللاذعه ، وانتقد تصرفاتهم إلى حد اللوم الشديد ، وكان حريصا على مصالح الشعب ، واعتبره مصدر السلطات وصاحب السيادة . وله الحق فى أن يحيا حياة كريمة . وقد كان الأفراد فى نرة فى مكانة أسمى من الحكام . وقد تضمنت خطته التأكيد على وضع دستور ينظم الملكية والضرائب ، فأحبه الشعب ، واعبتره زعيما مخلصا .

وقد كان المجتمع فى نظر (مانشيوس) ينقسم إلى طبقتين – الأولى تشمل المتعلمين ، والمثقفين ، ورجال الفكر ، وهؤلاء من حقهم

الحكم لما لديهم من وعى ودراية ، وأخرى طبقة الكادحين . وعامة الشعب الذين يعملون فى الانتاج . ولكل منهما حقوقها الخاصة وواجباتها .

ب- الاتجاه التاوى :

وقد اشتق أنصار هذا الاتجاه تسميته من (تاؤو) وهو القانون السماوى الذى هو مصدر كل حركة وتغير وحياه . وزعيم هذا المذهب هو (لاوتزو) الذى كان فيلسوفا وحكيما عاش فى القرن السادس قبل الميلاد.

ومن أهم مميزات هذا الاتجاه احتقار العادات القديمة التقليدية ، واحتقار مهنة التعليم ، والتعلم ، فالتعليم أو المعرفة لا تكتسب بالتحصيل والدراسة والاعتماد على العقل . بل عن طريق التصوف والحدس والتأمل الباطنى ، كما تتأتى هذه المعرفة عن طريق البعد عن المحسوسات ، والتطهر من أدرانها التى تعوق الوصول إلى الحقيقة الروحية أو الباطنية المجردة . ووسيلة ذلك هى تجديد القلب . وينظر هذا الاتجاه إلى المجتمع الأرضى على أنه ينطوى على نظم خادعة ، أى أنه يتناقض مع الكنفوشية . فبينما الكنفوشية اتجاه اجتماعى واقعى عملى ، يؤكد على أهمية التعليم نرى الآخر

سلبيا يدعو إلى الانعزال عن الحياة الاجتماعية والسياسات الدنيوية . حيث أن الفضيلة تكمن فى ألا ينشغل الانسان بشىء دنىء . كما تتضمن تأكيدا على اللامبالاه واللاانتماء . والعنصر الايجابى الوحيد لديهم هو انتقاد الثروة والبذخ الذى كان يعيش فيه الأمراء والأشراف. فالاسراف يؤدى إلى اخلاقيات فاسدة كانتشار الربا . والمداهنه . والتدخل فى الحرية الشخصية .

وجدير بالذكر أن هذه المبادىء كثيراً ما استغلت فى تهدئة الرأى العام كلما أحس الحكام والأباطرة بوادر . أو نذر الثورة من جانب الشعب على الأوضاع السائدة أو مظاهر التفرقة أو غير ذلك .

جـ- الاتجاه التشريعى :

ويعكس هذا الاتجاه أحد أشكال الفكر الاجتماعى المرتبط بفكرة القانون . وضرورة خضوع العلاقات الانسانية والاجتماعية . والدولية لقوانين تشبه القوانين الطبيعية وقد رأى مؤسس هذا الاتجاه فى الخضوع للقوانين . والقواعد والمعايير وسيلة لغرس الحضارة والمدنية فى نفوس الشعب . وتتحصل القوانين فى هذا الاتجاه فى أشكال أربعة : قانون ثابت غير قابل للتغير . وهو ينظم علاقة المحكومين بحكامهم . والثانى اجتماعى وينظم العلاقات والعادات

المختلفة التى تسود بين الأفراد وتوجه سلوكهم . والثالث القانون الجزائى . وينظم حجم الجزاء الذى يوقع على المخطىء . أما الرابع فهو القانون التجارى الذى ينظم العلاقات التجارية والمقاييس والأوزان .

والحاكم الناجح هو الذى يبذل الجهد لاعلاء كلمة القانون والاشراف على سيادته . فاذا حاد عن القانون أصبح طاغية . والطغيان مدخل رئيسى للاضطراب وتحقيق السلام . وتطبيق القانون يعتمد على أخلاق الحاكم إلى حد كبير . فالحاكم بلا قانون يفشل مهما كان فاضلا .

ويتضح التعارض بين هذا الاتجاه. والاتجاه الكنفوشى من ناحية . والاتجاه التاوى من ناحية أخرى . فالكنفوشية ترى أن الانسان الفاضل يمكن أن يستغنى عن القوانين كما يمكن للدولة أن تسير بدونها . والتاوية تؤكد على منح الأفراد حرية مطلقة متجاهلة أهمية قيام الدولة ، أو وجود السلطة الحاكمة ، بينما الاتجاه الأخير يؤكد على أهمية القانون ومحوريته فى تقدم المجتمع . وحرية الافراد وتنظيم علاقاتهم .

د- الاتجاه التعاقدى :

ويذهب زعيم هذا الاتجاه وهو (موتـزىMotzi) إلى أن النـاس كانوا يعيشون فى حالة البداوة بلا حكومة، أو قانون ينظم علاقاتهم. وكانت غرائز الأنانية هى التـى تحكمهـم . وأن النفس البشـرية قـد جبلت على الشر . ومـن هنـا فقـد اشـتد التنـاقض حتـى بـين الأب وابنـه. وسـاد الخـوف بـين النـاس . ممـا أدى إلى عـدم الاســتقرار والفوضى . وبعد ذلك ظهر فى كل مجتمع شخص حكيم كفء استبد بالسلطة . واستخدم الأفراد العقـلاء الآخريـن علـى أن يوزعـوا فيمـا بينهم المهام والأعباء التى تفرضها السلطة وأن يطيعـوه طاعـة عميـاء حتى لو كانت أوامره ضاره فى نظرهم لأن ما يراه الحاكم خيرا فهـو خير . والعكس صحيح . وقد انتهى إلى أن حرية ابداء الرأى لاقيمـة لها لأن جمهور الحـاكمين والمسـئولين وحدهـم هـم الذيـن ينبغـى أن يتمتعوا بهذه الحرية فى حالة الاستعانة بهم . ويتعهد الحاكم غرس الحب بين أفراد مجتمعـه بحيـث لايفـرق بـين مصالحـه . ومصـالح الآخرين . فتموت الأنانية . ويظهر الايثـار ويسـود الحـب الشـامل المحايد . فمن يحب الناس سوف ينعم بمردود حبه ومن يكره الناس عليه أن يجنى ثمار كرهه . ومعيار التفرقة بين خير الأمور وشرها هو

مدى ما تعود به من نفع أو تحدثه من ضرر عام . والعمل السوى هو أنفع الأمور . وهو يميز الانسان عن غيره من الحيوانات . والعمل خير فى حدا ذاته وبمقدار ما يعود به من منافع على المجتمع . بل انه من لوزام الحياة .

هذه هى أهم الاتجاهات الرئيسية فى الفكر الاجتماعى فى الصين القديمة ومنه يتضح أن هناك قدرا كبيرا من الاختلاف والتنوع فى جوانب التركيز والاهتمام . ولاشك أن كثيرا منها قد تضمن أفكارا جديدة . ومؤثرة فى الحياة الاجتماعية .

خلاصة :

تلك نماذج من التفكير الاجتماعى عند شعوب الشرق القديم . ويتضح منها مدى ما حظيت به شئون الحياة الاجتماعية . ومشكلات المجتمع من تفكير . وأنها كانت تمثل خطوة أكثر تطورا فى تاريخ الفكر الاجتماعى . وربما استفادت منها فلسفات أخرى . الأمر الذى يؤكد أن الفلسفة اليونانية لم تكن نقطة البدء فى تاريخ الفكر الاجتماعى . بل ربما كانت هذه الفلسفة متأثرة فى بعض جوانبها بما انطوت عليه جوانب الفكر الاجتماعى فى بلدان الشرق القديم .

على أنه تجدر الاشارة إلى أن هذا الفكر كان مفككا . ولم

ربطه وحدة بحث . أو اتجاهات علميه محدده . بل كان أقرب إلى التأملات الفلسفية . وكان ينزع لغايات عملية تحاول تصور ما يجب أن يكون عليه المجتمع ولكن لم يهتم كثيرا بما هو كائن . ووسائل مواجهته . ولم ينتظم هذا الفكر فى مناهج بحث محددة وتحليليـة . وعند هذه النقطة سوف ندرك تفوق اليونان على علماء الشرق القديم. ومـن حيـث تنظيـم أوجـه بحثهـم . واستخدام القـانون العلمـى . والبرهان المنطقى . وهو الأمر الذى دفع البعض إلى التـأكيد علـى أن بواكر الفكر الاجتماعى العلمى تبدأ من اليونان

الفصل الثالث

الفكر الاجتماعى عند اليونان

محتويات الفصل الثالث

- مقدمة

أولاً : سقراط .

ثانياً : السوفسطائيون .

ثالثاً : أفلاطون .

رابعاً : أرسطو .

الفكر الاجتماعي عند اليونان

مقدمة

ترجع أهمية دراسة الفكر الاجتماعي اليوناني إلى أنه يعتبر أول فكر منظم ، حيث تضمن تحديدا للمواقف والاتجاهات التي يتردد بينها الفكر الانساني فيما بعد ، فبينما نجد أفلاطون يمثل الاتجاه المخطط البعيد عن العشوائية والارتجال ، كما كان يؤمن بالقدرية والطوائف الثابتة التي حددتها السلطة الحاكمة ، نجد أرسطو يمثل الاتجاه الدينامي ، فالمجتمعات عنده كائنات حية ، وحركتها من القاعدة واختلاف البناء الديموجرافي ، والفيزيقي يفرض نوعاً من الإختلاف والتنوع والتعقيد الوظيفي .

كما تجدر الإشارة في البداية إلى أن جوانب الحضارة الشرقية والتي عرضناها في الفصل السابق قد امتدت بالتأثير إلى الفكر اليوناني. ويؤكد كثير من الباحثين على أن هناك لقاء قد تم على صورة ما بين الفكر الشرقي ، خاصة البابلي والآشوري أو الفارسي والفرعوني. وبين الفكر اليوناني خاصة في أيونيا ، حيث بدأت الصورة المنهجية الأولى للفكر اليوناني ، الثقافي مع الحضارات المجاورة وكذا الحروب والغزوات والهجرات التي شهدها هذا المجتمع.

وقد أدت هذه الهـزات إلى بعث النشاط والحيوية . وحفـز الفكر الاجتماعى الموضوعى فى هذه الحضارة

ويعتقد بعض الباحثين أن جمهورية أفلاطون تعتبر أول بحث منظم وضعه فلاسفة اليونان فى الفكر الاجتماعى . بيد أن هناك بحوثا سابقه على هذه الجمهورية درست وأمكن الكشف عما تتضمنه من ملامح التفكير الاجتماعى . قبل العصر الذهبى للفلسفة اليونانية وهو عصر أفلاطون وأرسطو من بعده . ومن هذه البحوث :

١-ديوان «الأعمال والأيام» للشاعر اليونانى القديم «هزيود». الذى عرف فى تاريخ الفكر بأنه أول شاعر تعليمى . وقد عرض ديوانه لفكرة العدالة . وقرر طائفة من القواعد العامة التى يجب أن تقوم عليها الحياة الاجتماعية السليمة وأكد على فكرتى العدالة والعمل .

٢-النظم الدستورية والتشريعية التى وضعها المشرعون الاجتماعيون والسياسيون القدامى وكانت تتعلق بالمواريث . والمسئولية والجزاء والتربية العسكرية وقد أشادأفلاطون ذاته بهذه النظم والقوانين.

٣- أشعار عدد من "الشعراء الحكماء" وقد احتوت على الكثير من الحكم والأمثال التى تدعو للعدالة الاجتماعية . وتقرير المعايير السوية فى المعاملات بين الأفراد . وقواعد الأخلاق الاجتماعية .

ومن أشهرها أشعار تيوجنيس الميجارى Theaognis de megare.

هذا إلى جانب عدد آخر من البحوث النقدية . والإجتماعية والأسرية التى عرضت شئون المجتمع قبل جمهورية أفلاطون . غير أنها تعالج هذه الأمور بصفة أساسية متعمقة . ولم تعرضها فى سياق علمى منهجى الأمر الذى تجلى عند أفلاطون . وأرسطو اللذين وضعا الدعائم النظرية للتفكير الاجتماعى المنظم .

هذا وسوف نعرض لجوانب الفكر الاجتماعى اليونانى عند كل من :

١-سقراط .

٢-السوفسطائيون .

٣-أفلاطون .

٤-أرسطو .

أولا : سقراط :

إن السجلات والوثائق التى تتضمن أقوال سقراط . والتى يمكن الإعتماد عليها قليلة . بحيث لا يمكن الجزم بأن له نظرية محددة المعالم . وعلى أيه حال فإن من المتفق عليه أن إسهام سقراط فى علم السياسة يتمثل فى تأكيده على أهمية وضع التعريفات الدقيقة . وتحديد المصطلحات التى نستخدمها . كذلك فإن المتفق عليه أن

سقراط لم يسهم بنظرية متكاملة فى أى من مجالات الفكر.ولكن جل اهتمامه قد تركز فى السخرية من المذاهب والأفكار التى انتشرت فى عصره،أى أنه لا يوجد شىء علمى فى مناقشاته السياسية.ولكن السياسة عنده كانت فوق كل الاعتبارات العلمية والأخلاقية . فقد تناول واجبات الحياة العامة والخاصة معاً ، دون أن يهتم بوضع نظرية مجردة .

ثانياً : السوفسطائيون :

تجسد السوفسطائية البدايات المبكرة للفكر الاجتماعى المنهجى فى المجتمع الإغريقى . ذلك أنهم كانوا بحق رواد الفكر الاجتماعى الجدلى فى صورته البدائية . فقد اتجهوا اتجاهاً حسياً واقعياً نقدياً فى معالجة الموضوعات الاجتماعية . ولو تعرضنا لمؤلفاتهم هذه لوجدنا أنها تعكس دورهم فى توجيه الإهتمام . ولفت الأنظار والأفكار إلى الوضع الاجتماعى وقد اعترضوا على الآراء الفلسفية الميتافيزيقية التى تهتم بالكليات المجردة . والعموميات المطلقة . والقضايا والمسلمات الثابتة كذلك سخروا من التفسيرات الأسطورية السائدة ونادوا بضرورة النظر بعين الواقع إلى الفرد وحقوقه . ذلك أن الفرد هو محور اهتمام الدولة أو المدينة باعتبارها الوحدة السياسية الكبرى وعارضوا القول بأن الفرد مجرد تابع للجماعة .

وقد انتقد السوفسطائيون القيم المجردة . فالعدل مثلاً ليس فكرة مجردة يمكن الوصول إليها بالتفكير السليم دون أن تحقق فى الواقع الاجتماعى ولكن العدل لا يتحقق إلا بالتفاعل الاجتماعى فلا يكون العدل عدلاً إلا بالممارسة الاجتماعية الواقعية . وقد نسب إلى هذه الجماعة أنها جعلت الفرد مقياس كل شىء فما يراه عدلا فهو عدل .

والعكس ، وكانوا يعترضون على ما يسمى بالحقيقة المطلقة أو المجـردة تللك التى كان يتذرع بها أصحاب المصالح والمزايا المكتسبة حفاظا علـى مكاسبهم الاجتماعية ، وكان السوفسطائيون يريدون غرس فكرة النسبية الاجتماعية مع عدم المساس بالقضايا العامة وفى مقدمتها فكرة المسـاواة التى دافعوا عنها بشدة وقد هاجموا مظـاهر الظلـم وعـدم المسـاواة التـى سادت المجتمـع اليونـانى الأمـر الـذى تجلـى فـى نقدهـم لنظـم الـرق والعبودية ، والنظرة العنصرية التى كانت تحرم اليونـانيين مـن التمتـع بحقوق المواطنة .

وفضلاً عن ذلك فقـد هـاجم السوفسـطائيون القـانونى الأخلاقـى والتشريع الدينى الذى كان يدعم البناء الطبقى السـائد ونـادوا بضـرورة الاهتمـام بالقـانون الطبيعـى.ورددوا أن القـانون الخلقـى الـذى يخشـاه الناس هو من وضع هؤلاء الناس ، مثله فى ذلك القانون الوضعى المدنـى. وكلاهما وضع لحماية ذوى المصالح الخاصة ، ويبدو كما لو كـان سـلاحاً للضعفاء فى مواجهة الأقوياء وتخويفهم ، فى حـين أنـه وضـع بالأسـاس لحماية أصحاب المصالح النفعية من ذروة المحرومين ومن هنا فإنـه مـن الخير العودة للقوانين الطبيعية التى تعمل على تحقيق العدالـة الاجتماعيـة فالسعادة فى القانون الطبيعى مثلاً تعنى الاقلاع عن اللذة إلى المنفعة.

ثالثاً : أفلاطون (٤٢٩ - ٣٤٧ ق .م.)

يمثل أفلاطون فى الفكر الاجتماعى اتجاها مثاليا طوبائيا Utopian وهو الاتجاه الذى بدأ بسقراط . وبلغ ذروته على يد أفلاطون . وقد أحدث الفكر الاجتماعى السوفسطائى هزة عنيفة فى المجتمع الأثينى . وعليه اهتز البناء الاجتماعى والقيمى فى هذا المجتمع . ووسط هذا المناخ الفكرى ظهر الفكر الأفلاطونى بما ينطوى عليه من تصورات مثالية تجسدت على نحو واضح من فكرته عن المدينة الفاضلة التى بدت كما لو كانت هروبا من المناخ الاجتماعى السائد فى مجتمعة آنذاك . وقد أنطوى مؤلفه عن المدينة الفاضلة على بحوث كثيرة متصلة بالدراسات الاجتماعية واستحوذ على اهتمام كبير فى تاريخ الفكر الاجتماعى وقد كان هدفه فى هذا المؤلف أن يقرر الأصول الضرورية والتخطيط الأمثل للجمهورية الفاضلة التى تزول عنها الشرور والآثام السائدة فى هذا الوقت . وتقوم على الفضيلة وتظللها العدالة . وتشرف عليها حكومة الفلاسفة .

هذا وتنقسم معالجات أفلاطون للمدينة الفاضلة إلى أقسام رئيسية ثلاث :

الأول: يتضمن الدعائم التى تقوم عليها المدينة الفاضلة وعناصرها الاجتماعية.

الثانى: فى التربية الاجتماعية التى يجب أن تسود المدينة .

الثالث: يعالج الحكومة التى تشرف على المدينة وتعمل على تحقيق النظام الاجتماعى الأمثل .

١- دعائم المدينة الفاضلة وبناؤها الطبقى :

قام أفلاطون بتوضيح طبيعة الاجتماع الانسانى من حيث النشأة والعناصر المكونة وبين أوجه الفساد فيها كمدخل يقيم على أنقاضه النظم المثلى التى تصورها . فالمدينة وحدة مكونة من أجزاء شأنها فى ذلك شأن الجسم الانسانى الذى يتكون من أعضاء لكل منها وظيفته الخاصة وتختلف أعضاء الجسم من حيث وظائفها وأدائها . ولكنها ترتبط ببعضها إرتباطاً عضوياً وثيقاً . وتجتمع فى مركز واحد وتتجه لهدف واحد وهذه الفائدة الجمعية . والترابط الوظيفى جعلته يدرك الضرورة الاجتماعية التى تجعل من المدينة أو الدولة أول تنظيم اجتماعى وسياسى تدعوا إليه الطبيعة . ولما كان الفكر الاجتماعى يرى فى المدينة الوحدة الأساسية للحياة السياسية ، فهى على ذلك – من وجهة نظر أفلاطون – وحدة جمعية . تقوم على تناسق الرغبات والاتجاهات الفردية . والتوازن بين الميول والمصالح الذاتية ولا يمكن أن تتحقق هذه الوحدة الروحية فى ظل سيادة الرق والظلم وعدم المساواة .

أى أن الحاجة الانسانية هى الدافع إلى الاجتماع المنظم . وقصور الحياة الفردية هو الذى يدفع للتعاون المشترك بين الأفراد . وإلى الجهد والجمعية التى تكفل لهم تحقيق الكمال المادى والروحى .

ولما كانت ضرورة الحياة هى الدافع لقيام المجتمعات . فلا مناص إذن من قيام طبقة تتوافر لديها الرغبة فى العمل وتحقيق الحاجات الضرورية والرغبات الخاصة ، أى أن من شئونها تولى العمل والإنتاج ، وهذه الطبقة تشبه القوة الشهوانية فى النفس الانسانية . وإلى جانب ضرورة الوجود فإن المدينة تحتاج أيضاً لضرورة الدفاع عن أبنائها ضد الغزاة الطامعين ، ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى قيام طبقة أكثر حيوية وأرق عاطفة . ولاتخشى المخاطر . ولا تخاف شيئاً. وهذه طبقة المحاربين التى من خصائصها فضيلة الشجاعة . وقد أقام أفلاطون شبها بين هذه الطبقة ، وبين «القوة الغضبية» فى النفس الانسانية أو ما يطلق عليها «قوة النزوع» ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ولكن المدينة أو الدولة الفاضلة لابد أن تقيم دعائم الحكم وتحكم نفسها بنفسها . أى يجب أن تقوم هيئة تختص بالإشراف على الناحية الإدارية ، وسن القوانين ونشر العدالة وتحقيق السعادة والخير العام . لذا كانت هناك ضرورة لقيام طبقة الحكام والرؤساء . ومن أهم

سماتها فضيلة الحكمة . وهى تشبه «القوة الناطقة» فى النفس الانسانية فطبقات المجتمع تشبه «القوة الشهوانية» والغضبية . والناطقة على التوالى . ولكل من هذه الطبقات فضيلة تميزها . فالأولى يجب أن تتسلح بالتعفف والإعتدال ، والثانية بالشجاعة والمخاطرة . والثالثة بالحكمة والحزم . ومتى جمعت الدولة بين هذه الفضائل وأقامت بينها الإنسجام والتوافق يتحقق العدل . أى أن العدل ليس فضيلة رابعة تضاف إلى ما سبق . ولكنها قوة خلقية تنشأ فى جو الدولة – مثلما تنشأ الفضيلة فى النفس الانسانية – من تنسيق الفضائل المختلفة وتحقيق التوازن بينها .

ومن هنا فإن أفلاطون يخطط سلطات المدينة الفاضلة من الناحية التنظيمية والإدارية والوظيفية ، ويحدد الإختصاصات فيها على النحو التالى :

١–حراس الدستور : وهؤلاء يتولون المحافظة على الدستور . ويحولون دون تغييره .

٢–مجلس الشيوخ : ويتولى حكم المدينة بالإتفاق مع حرس الدستور .

٣–الكهنة ورجال الدين : وهم يرعون المعابد ، ويتولون الطقوس الدينية .

٤–حكيم التربية : وهو الذى يهيمن على شئون التربية الاجتماعية والأخلاقية .

٥–رجال القضاء والمحاكم : وهم يتولون الحكم وفقاً لقوانين العقل . وقوانين العقل لا تختلف ولا تتعارض مع القوانين الإلهية التى ترمى إلى تحقيق العدالة والفضيلة الأخلاقية .

٦–قواد الجيش .

٧–رجال الشرطة .

٨–التجار .

٩–العمال الزراعيين .

١٠–عمال الصناعة .

وقد ذهب أفلاطون إلى أن التقسيم الطبقى الذى حدده تقسيم طبيعى . فالطبيعة هى التى أقامته وحددت عناصره ووظائفه . وجعلت من هذه العناصر معادن مختلفه ومتباينة . فطبقة الحكام من الذهب الخالص . وطبقة المحاربين من الفضة . وطبقة المزارعين والعمال وغيرهم من الحديد والنحاس الخام . والدولة على هذا النحو تحقق الغاية المنشودة من الاجتماع الانسانى . لأن هذه الوظائف مع اختلافها وتلك العناصر مع تباينها إلا أنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً . ويقوم بينها نوع من الإعتماد المتبادل . بحيث تشكل فى جملتها وحدة حية دعامتها الفرد الذى يقوم بالوظيفة التى تحددها له الدولة .

ومن كل ذلك يمكن القول بأن الدولة فى نظـر أفلاطـون جماعـة من الأفراد الأحرار المتساوين الذين يرتبطون فيمـا بينهـم بربـاط الأخـوة ويعمل كل منهم على تحقيق وظيفتـه الاجتماعيـة فـى ظـل طائفـة مـن القوانين العادلة التى تصنعها طبقة الحكام .

وهـذه الطبقـة الأخـيرة مطبوعـة علـى حـب العلـم والفلسـفة . وبالتالى لا يصدر عنها إلا ما هو عادل وفـاضل . وأبنـاء هـذه المدينـة لا يسرفون فى طلب الشهوة واللذة والمـال . ولا يتخـذون الحـرب وسـيلة لتحقيق أغراض ذاتية. ولكنهم يعيشون فى أسرة واحدة قوامها العدل. ورائدها تحقيق السعادة .

٢- التربية الاجتماعية فى المدينة الفاضلة :

أشـرنا إلى أن كثـيراً مـن الظـروف والأوضـاع الاجتماعيـة التـى عاصرها أفلاطون كانت الدافع الأساسى الذى جعله يسعى للبحث عـن وسائل عـلاج هـذه الأوضـاع والقضـاء علـى عـدم الإسـتقرار .والفوضـى السائدة فى المدن المعاصرة له . ومن هنا وجه عنايته إلى طبقتى الحكـام والجند لأنهم من أهم طبقـات المجتمـع . وتتوقـف عليهمـا سـعادته . ويجمع أفلاطون هاتين الطبقتين فى طبقـة واحـدة هـى طبقـة «حـراس الدستور» التى أشرنا إليها. ولكنه يتساءل عن وسيلة بناء هذه الطبقة.

وفى محاولة إجابته على هذا السؤال يشير أفلاطون أنه من الضرورى البدء بمملكة الأطفال ، فالأطفال كالعجينة التى يستطيع المعلم أن يشكلها حسبما يريد ، وهذه المملكة بمميزاتها تعتبر نواة ملاءمة لما سيكون عليه مستقبل الدولة . وبالتربية يمكن أن يكون الأطفال مواطنين أكفاء ، تقوم على أكتافهم الدولة المثالية . لأن التربية تكشف عن جوانب الإمتياز . وتنمى الإستعدادات الفطرية . ويصبح هؤلاء مواطنين أكثر خيراً ممن سبقوهم ، وتعقبهم أجيال أكثر استعداداً وكمالاً من أبنائهم. ولذلك فالتربية عملية محورية فى بناء المدينة الفاضلة ، متى أجادها المسئولين تحكموا فى بناء عناصر الدولة المثالية.

وتبدأ عملية التربية عند أفلاطون بالتمييز بين الأحداث (من النوعين) الذين يتمتعون بقوة بدنية وجسمانية . وتكون لديهم استعدادات للقتال . ويتم تعهدهم بالتربية البدنية . والرياضية بهدف المحافظة على قوتهم الطبيعية ، بالإضافة إلى تربيتهم بدنياً وفنياً . ونغرس فيهم حب الفضائل عن طريق النصح والإرشاد . ثم ننمى فيهم أصول الدين تلك التى تقوم على الإيمان بالله وعدالته ، ورعايته للبشر، وبدون هذا الإيمان لا يدرك المواطن مصدر وجوده ، ولا يتفهم المثل القدسية التى ينبغى أن يروض نفسه على التسلح بها أو

الممارسات الدينية .... والطقوس التى يجب أن يؤديها . فيجب إذن البدء مع الأطفال بالتربية الدينية لأن افتقاد العنصر الدينى فى التربية يجعلها ناقصة ، والدولة التى لا ترعى الجوانب الدينية فى التربية ، يتحتم عليها الزوال والفناء .

ويستمر الأطفال – من النوعين – فى هذا النوع من التربية حتى إذا ما بلغوا الثامنة عشر انقطعوا عن متابعة الدرس . وانصرفوا إلى مزاولة التمرينات العسكرية العنيفة عامين كاملين . ثم يعود الممتازون منهم إلى مواصلة الدراسة والبحث فى أربع مواد أساسية هى الحساب، والهندسة ، والفلك ، والموسيقى ، وهى العلوم التى رأى فيها أفلاطون ما يثير حب الحكمة والفلسفة ، عندما يبلغ الحراس سن الثلاثين ، نميز من بينهم أصحاب الاستعداد الفلسفى رجالا كانوا أم نساء ونكرسهم لدراسة الفلسفة ، والبحث عن حقائق الأشياء ويستمرون فى كل ذلك خمس سنوات . وبعد تمامها ينطلقون إلى الحياة العامة ، يعملون فى الوظائف الحربية والإدارية حتى سن الخمسين ، ومن امتاز منهم فى الشئون الإدارية كما سبق أن إمتاز فى الدراسات النظرية يرقى إلى مرتبة الحكام لأنهم وصلوا لمرحلة الفلسفة الخالصة . أما الذين تخلفوا فى مراحل الدراسة المختلفة ولم يتابعوا النظم

الموضوعة، فيكونون طبقة الجند ولايتقلدوا الوظائف العامة أو مقاليد الحكم .

ولما كان الحرس فى المراحل التربوية ليس لديهم الوقت الكافى للسعى وراء تكاليف الحياة . أو مزاولة أى عمل للإرتزاق . فمن واجب الدولة أن تهيىء لهم سبل العيش الكريم فى مرحله تفرغهم للتعليم والتهذيب . هذا فضلاً عن الملبس والطعام . والشراب . والمسكن. كل ذلك وفق إمكانيات الدولة . وقد حرم على هؤلاء الحراس نظام التملك . فهم يأكلون ويعيشون معاً وتتكفل الدولة بكل ذلك .

وقد ذهب أفلاطون إلى شيوعية الأموال . والنساء . والأولاد فى حدود طبقة الحراس وحدها . وقد بنى ذلك على ضرورة نزع عواطف الأسرة . وشواغلها . ويرى أنه لابأس من أن تضع الدولة نظاماً لتحقيق الإتصال الجنسى بين الحارسين والحارسات بحيث تكون الحارسات حقاً مشاعاً لزملائهن من الرجال . ويضع قواعد محددة لمثل هذا الإتصال . حيث أن على المشرفين على تنفيذ هذا النظام أن يقيموا فى الأعياد والمناسبات الرسمية حفلات دينية يجمعوا فيها الحراس من الجنسين . ويتزوج كل منهم من تناسبه زواجاً مؤقتاً يكون هدفه الإنجاب . وفق حاجة الدولة . ويودع الأطفال فى مكان واحد

وديعة مقدسة بين أيدى مربين ذوى كفاءة عالية لتنشئتهم تنشئة صالحة . ومن غير الضرورى أن يكون لكل منهم أبا أو أما . فهم جميعاً أبناء المجتمع . ولكن لا توجد بينهم قرابات معروفة . بل تجمعهم أسرة الجندية . أما النظام الأسرى بالمعنى الدقيق فقد كان مباحاً لأبناء الشعب مع شيء من مراقبة الدولة لتحديد النسل . وعدم تضخم السكان . وكذلك فقد تعرض أفلاطون للمسألة السكانية . وذهب إلى ضرورة المحافظة على الحد الأمثل للسكان . إلى جانب بعض الإجراءات التى تضمن الإحتفاظ بمستوى الصحة النفسية . والعقلية . و الجسمية . ومن هنا فلم ير جريمة فى إعدام الطفل المشوه، أو ناقص التركيب . وكذلك لا جريمه فى إعدام المنحرفين خلقياً والمعتوهين . وعديمى النفع . وفاسدى الأخلاق . والمرضى بمرض عضال ممن لايرجى شفاؤهم . وقد كانت هذه من أهم النقاط التى عرضت أفلاطون لانتقادات مريرة كما سنرى .

٣- حكومة الفلاسفة :

كان أفلاطون يهدف من نظامه فى التربية إلى تكوين طبقة ممتازة . هى فى نظره خلاصة المجتمع . تناط بها مسئوليات الحكم فى الدولة الفاضلة لأنهم يدركون المعانى الكلية للعدل - والجمال -

وغير ذلك كما يسعون بصدق إلى تحقيق المضامين الواقعية لهذه المعانى فى مجتمعاتهم . وهؤلاء قوم يتسلحون بالصفاء وحب الفضائل . فتسموا عقولهم لانخراطهم فى دراسة العلم والفلسفة لفترات طويلة لذلك فأنهم لا يفعلون غير الخير . والعدل الخالص . فالفيلسوف حاكم مثالى ينشد الحكمة كلما أعوزته الحيل . ويحكم وفقاً لما يوصى به العقل . ويسهم فى تحقيق العدالة والمساواة . ومقاومة الشرور والآثام . وقد تصور أفلاطون أن المدن سوف تظل مسرحاً للشرور . والرذائل إلى أن يجىء الوقت الذى يتقلد فيه الفلاسفة أمورها . وليس من الضرورى أن ينفرد بالحكم واحد بعينه . فإن فرداً واحداً لايستطيع الإضطلاع بمهام الدولة متوخياً العدالة بالذات . فقد ينقلب طاغية حينما تتغلب عليه نشوة الحكم، والعدالة هى فيما ينفع الدولة نفسها. من هنا لابد أن يكون جهاز الحكم أميناً وقادراً على تحمل هذه المسئولية . وهذه السلطة يجب ألا تسرف فى استعمال القوة . كما لا تسرف فى منح الحرية . وعلى ذلك فإنه يجب أن تتولى الحكم جماعة دون انفراد فرد واحد بالحكم . ولايقف الأمر عند تسليم السلطة لهيئة حاكمة . ولكن لابد من تيقظ الشعب ووعيه بحقوقه . ومتابعة شئون الحكم . وهذا يفرض قيام هيئة نيابية تحافظ على قوام الدولة . وتقيم

التـوازن والإعتـدال بـين عنـاصر الحكـم . وهيئاتـــه وهــذا التـــوازن والإعتدال والحكمة هى الأغراض التـى تسـعى إليهـا الجماعـة الواعيـة حتى فى عصورنا الحديثة. وكررها كثيرون بعد أفلاطون . ولكنه كــان أسبق منهم لفهم العلاقة بين توازن سلطات الدولة . واعتدالها . وبـين التوازن فى النفس الانسانية فالحكم فـى رأى أفلاطـون لابـد أن تكـون وسطا بين الطغيان المطلق والديمقراطية المطلقة .

• تعقيب:

كانت الآراء المثالية التى ذهب إليها أفلاطون رد فعل لما كـان يسود المجتمع الذى عاش فيه من تشوش الفكـر . وتفكك النظم وقـد حاول الهروب من كل هذه الظروف ووضع تصوراً ذهنياً لتخطيـط مثـالى للتنظيم الاجتماعى المرتكز على الأســاس الفلسـفى الأخلاقـى . والـذى يتضمـن تطلعـات بعيـدة المــدى يصعــب علــى المجتمــع بإمكانياتــه وإسـتعداداته أن يحققهـا . لذلـك كـان نموذجـه بعيـداً عــن الواقعيــة الاجتماعية . ومسرفاً فى المثالية. ورغم كثـير مـن الجوانـب الإيجابيـة التـى انطـوت عليهـا فلسـفة أفلاطـون فـــى مســائل تحديــد الحقــوق والواجبات . والمحافظة على الديـن والعدالـة . والمسـاواة والسـعادة . واحـترام التقـاليد والعـرف . إلا أنـه قـد جانبـه الصـواب فـى تقريــر

إجراءات غير انسانية في الوقت الذى كان يتكلم فيه عن العدل والمساواة والسعادة الأمر الذى يثير الكثير من التساؤلات . والذى جعله عرضة للنقد والحملات المتواصلة . ولكن يبدو أن إفراط افلاطون فى تصور الخير الأسمى . والذى ضمنه نموذجه عن المدينة أو الدولة جعله يهدم الطبيعة الانسانية . ويتنكر لغرائزها من أجل إنقاذ الدولة . وقد أدرك أفلاطون نفسه ما تنطوى عليه آراؤه هذه من تناقض وغلو . فعدل فى كتابة "القوانين" عن كثير من الآراء التى عرفها فى «الجمهورية» فنراه يخفف من اتجاهاته الشيوعية . ويشيد بمميزات نظام الأسرة ويدعو لتعزيز الروابط الأسرية . وينادى بعدم تقييد الزواج بأى التزام اجتماعى أو دينى ولا يرى مانعا من تدخل الدولة للإشراف على شئون الأسرة وتنظيمها . ووقايتها من الانهيار . ولذلك هاجم حياة العزلة كما هاجم ظاهرة الطلاق أو انفصال الزوجين موضحا ما لهذه الظواهر من أثر فى تفكك المجتمع والقضاء على وحدته . وفضلا عن ذلك يعود لضرورة احترام العرف والتقاليد . والعقائد . والطقوس الدينية . لأن هذه الأمور تشكل مجموعة من القوانين غير المكتوبة . ولعل هذه التعديلات التى أدخلها أفلاطون على نظرياته كانت تتضمن عدولاً عن الإسراف فى المثالية . وهدم الفرد . لإنقاذ الدولة والقضاء على قيم كان يحرص على دعمها وتنميتها .

رابعاً : أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م)

إذا كان قد اتضح أن الفكر الاجتماعى الأفلاطونى يتسم بالمثالية المفرطة . فإنه من الواضح أن الفكر الاجتماعى عند أرسطو ينطوى على عدد من المبادىء الاجتماعية التى تعتبر من المسلمات . مثل قوله بأن الانسان حيوان اجتماعى سياسى بمعنى أن الانسان لا يمكن أن يعيش يمعزل عن المجتمع . كما لا يمكن دراسته مستقلاً عن المجتمع وكذلك قوله بأن «الأسرة هى الخلية الاجتماعية الأولى» .وأرسطو هو تلميذ أفلاطون وأستاذ الإسكندر الأكبر . وقد عارض أفلاطون فى كثير من المواقف والاتجاهات . وتعتبر كتابات أرسطو من أبلغ وأدق ما جاء فى الفلسفة القديمة . ومن أهم كتبه وأشهرها كتاب «**السياسة**» الذى عرض فيه نظريته فى شئون السياسة والإجتماع . لأنه درس نشأة الحياة الاجتماعية . ودعائمها الاجتماعية والسياسية باعتبارها من أهم مقومات نظريته فى الدولة .

وقد كان أرسطو وضعياً فى كتاباته الاجتماعية . بحيث يصف ويشرح . ثم يحاول الكشف عن أوجه النقص والفساد . ويقرر ما يراه محققا للمعايير والأهداف التى يسعى إليها .

وقد اتبع أرسطو المنهج التاريخى التحليلى . حيث يرى أن

الرجوع إلى أصغر عناصر المجموع هى التى تساعدنا علــى تتبـع تطـوره وملاحظته جيدا . أى أنه قد درس الدول من حيـث هـى فـى الوجـود الطبيعى . ولم يفكر فى دولة صناعية مثلما فعـل أفلاطـون حينمـا قـدم صورة مثالية يصعب تحقيقها فى العالم الواقعى .

ومن أهم الجوانب التى عالجها أرسطو ما يلى :

١-المجتمع السياسى ومقوماته .

٢-الأسرة .

٣-دراسته لقواعد التربية .

٤-آراءه في الرق .

٥-الحكومة الملائمة .

٦-المجتمع الفاضل .

وسوف نتناول هذه الجوانب لنستجلى منها طبيعـة الفكـر الاجتمـاعى عند أرسطو والذى يمثل ذروة ما وصل إليه الفكر الاجتماعى عند اليونان .

١-المجتمع السياسى ومقوماته :

ينظر أرسطو للأسرة على أنها الخلية الاجتماعيــة الأولى . وهـو أول اجتماع طبيعى . حيث هناك ضرورة أولية تـؤدى لاجتمـاع كـائنين لاغنى لأحدهما عن الاخر . والحياة الاجتماعية لاتتحقق على وجـه

كامل إلا فى إطار أسرة وظيفتهـا إشـباع حاجياتـه المسـتمرة ويـؤدى اجتماع عدة أسر إلى نشأة القرية التى تعتبر وحدة إجتماعيـة أوسـع نطاقاً . وأكثر تنوعاً من الأسرة ذلك أن طبيعة تكوينها تسمح بتقسيم العمل . ومن اجتماع عدة قرى تتكون المدينـة . أو الدولـة . وينظـر للدولة على انها أكـثر الوحـدات الاجتماعيـة كمـالاً . وأوضـح هـذه الوحدات هدفاً . فالمدينة تكفـل لأفرادهـا وسـائل العيـش الكريـم . وعلى ذلك فالدولة فى رأى أرسطو من خلق الطبيعة لأنها تعمل على سعادة أفرادها . وبدونها لا تتحقق هذه السعادة . فالانسان حيـوان مدنى وسياسى بطبعه . ويتوافق مـع الحيـاة الاجتماعيـة أكـثر مـن غيره من الحيوانات الأخرى . ويتميز عن سائر الحيوانات الأخـرى باللغة . والنطق . وعن طريق اللغة يعبر عن معانى الخير والشر لأنه الوحيـد الـذى يـدرك هـذه المعـانى . وهـذا لايتسـنى إلا فـى وسـط الجماعة . ومن يستغنى عن حياة الجماعة إما أن يكـون حيوانـاً أو إلهاً . فاما حيوان لأنه يكون فى غـير حاجـة إلى تجمـع بشـرى . وأما أن يكون إلهاً لأنه يكون قد بلغ مراحل الكمـال التـى لايحتـاج فيها لغيره . ولما كان الانسان يتميز عن الحيـوان مـن ناحيـة . ولم يبلغ مراتب الآلهة من ناحية أخرى فإن الحيـاة الاجتماعيـة تكـون ضرورة طبيعية بالنسبة له . فالطبيعة هى التى تدفع الانسـان إلـى

الاجتماع السياسى . وهذا الاجتماع لابد أن يقوم على القانون والعدالة ، فالمجتمع بدون قانون أو عدالة مجتمع ناقص . لأن القانون هو قاعدة الاجتماع السياسى . والعدالة ضرورة اجتماعية . فضلاً عن أن القانون يتشكل من مجمل الأحكام العادلة .

ويرى أرسطو أن الفرد ولو أنه حقيقة فى بناء المجتمع الانسانى. إلا أنه يذوب فى إطار الدولة ، لأن الدولة نسيج كلى . والأفراد هم خيوط هذا النسيج . والدولة هى التى تعطى للفرد وجوده الحقيقى . حيث أنه ليس له وجود بدونها .وحينما تتكون الدولة أو المدينة ، فإن ذلك يتم عن طريق تفاعل وحداتها . وانسجام عناصرها واتحاد خواصها . ومن ذلك يتكون مركب لايمكن فصل أعضائه . لأن العلاقة بين هذه الأعضاء علاقة عضوية، بحيث تتضافر فى أداء وظائفها كما يتضافر أعضاء الجسد من أجل الإبقاء على سلامته .

أما وظيفة الدولة فليست مقصورة على توفير الحاجات الضرورية للأفراد بل إن أهم غاياتها فهى تهيئة سبل السعادة لهم. وهذه السبل إما مادية . أو معنوية ، ولا تقل السبل المعنوية عن الماديةفى تحقيق السعادة ، لأنها تتصل بعقل الانسان الذى هو أكمل جزء فيه. ومن هنا كان تأكيد أرسطو على ضرورة اهتمام الدولة بنظم التربية والتعليم ، والثقافة العامة ، إلى جانب ماتوفره

من أسباب الأمن والإستقرار فى الداخل ، والسلام فى الخارج .

ومن الناحية المادية يرى أن المجتمع لا يتكون من أفراد وحسب ولكنه إلى جانب ذلك يتكون من الأشياء ، وإذا كانت دراسة الانسان وصلته بالمجتمع تشكل علم السياسة ، فإن دراسة الأشياء والجوانب المادية تشكل موضوع علم آخر هو علم الثروة لإشباع حاجاتها الضرورية. والحصول على الثروة يكون إما بالطريق الطبيعى كالعمل بالزراعة ، والصيد ، وتربية الحيوانات والطيور ، أو بطريق غير طبيعى مثل التجارة ، والصناعة ، ومنح القروض . وفى مجال دراسة أرسطو لهذه الطرق تعرض لدراسة ظواهر ، ونظم اقتصادية كالإنتاج والإستبدال ، والتوزيع والإستهلاك والأسعار ، ونظم النقد ، ووظيفتها وأشكالها ، وغير ذلك من الأمور التى تشكل مقومات علم الاقتصاد السياسى ، وجاء الكثير من تحليلاته متسقاً مع المنطق ، ومستمداً من الطبيعة ، وشئون الاجتماع ، وقد ساعد المنهج التاريخى الذى اتبعه أرسطو على استجلاء كثير من جوانب علم الاقتصاد على نحو لم يسبقه إليه أحد من قبل ، فقد كان أول من وجه الأنظار إلى أهمية هذا العلم كمكمل لدراسة الجوانب الاجتماعية.

٢-دراسته للأسرة :

ركز أرسطو فى دراسته للأسرة على الأسرة الأبوية الكبيرة ،تلك الأسرة التى سادت عصره وعاش فى ظلها . وهى تتكون من الزوج والزوجة، والأولاد ، والموالى ، والرقيق ، وقد ساد هذا النمط فى بلاد اليونان ، والرومان ، والعرب فى عصور الجاهلية ، وغير ذلك من الشعوب القديمة ، والأسرة كما أشرنا هى أول اجتماع تلقائى تدعو إليه الطبيعة منذ فجر الانسانية .

وتختلف المراكز الاجتماعية لأفراد الأسرة وفى التكوين الطبيعى لكل منهم ، فالبعض خلق للسيادة والسيطرة، والبعض الآخر خلق للطاعة وتنفيذ الأوامر ، ويأتى الرجل فى مرتبة أسمى من المرأة ، لذلك فهو المؤهل للسيطرة والحكم ، تليه الزوجة ، فالموالى والأرقاء، وهذه الفئة الأخير تسخره دائماً للأعمال الدنيا والتى لاتليق بالشخص الحر. وهنا يختلف أرسطو مع أفلاطون فى القول بمساواة الرجل بالمرأة ، أو القول بمشاركتها له فى التربية ، وتولى الوظائف العامة ، بل يرى أن وظيفتها تقتصر على تربية الأبناء والعناية بشئون المنزل ، وليس من شأن ذلك – كما يرى – التقليل من أهميتها ، ولكنها على هذا النحو عنصر أساسى فى تقديم أجيال قوية ناضجة إذا أخلصت فى أداء

وظيفتها التربوية . والأبناء فى نظره ثمرة الحياة الزوجية السعيدة . بهم تكتمل المقومات الأساسية للأسرة وعلى هذا النحو فالرجل كامل الارادة لذلك فهو كامل السيادة ، والزوجة تتمتع بإرادة أيضاً . ولكنها فى مرتبة أدنى من إرادة الرجل ، والعبيد والأرقاء لا إرادة لهم على الإطلاق .وللرجل ثلاثة أنواع من السلطة :

الأولى : سلطة على العبيد والأرقاء وهى تشبه السلطة الدكتاتورية .

والثانية : سلطة على أولاده وأقربائه وأبناء عشيرته وهذه تشبه السلطة الملكية

والثالثة : أو النوع الثالث هو سلطته على زوجاته وهى تشبه السلطة الجمهورية.

وتفاضل الإرادة على النحو الذى ذكره أرسطو يترتب عليه المركز الاجتماعى ، والأخلاقى . فالفرد الحر يتمتع بالفضيلة الخلقية. فهو يأمر أفراد أسرته ويجب أن يطاع ، أما غير الأحرار (العبيد) فلا يتمتعون بأى نوع من الفضيلة . ومن الضرورى أن تنعكس فضائل رب الأسرة على أفرادها . بحيث يكون الجميع على قدر معين من الفضيلة الخلقية . وبذلك يكون السلوك فى الأسرة قويماً . وبصلاح الأسرة تصلح المدينة أو الدولة لأن صلاح الجزء متعلق ومرتبط بصلاح الكل . فالفرد الفاضل فى الأسرة الفاضلة ، فى المجتمع الفاضل .والأشخاص الأحرار هم عماد الحياة السياسية ، فيجب أن يتمسكوا بالفضيلة .

والنساء يؤلفن نصف الأشخاص الأحرار . لذلك يجب أن يأخذن بالعمل الفاضل . وتربية الأطفال لابد أن تكون معبرة عن أهداف النظام السياسى الأمثل . لأنهم سيصبحون فيما بعد أعضاء فى الدولة .

أما الزواج . فيراه - أرسطو - دعامة التضامن والوحدة بين عناصر المجتمع . ويفضل وحدانية الزوج والزوجة . ويهاجم التعدد . ويكره الطلاق . ويراه خطراً على الأسرة وينتقد أفلاطون فى آرائه من الاختلاط الجنسى بين طبقة الحراس لما يتولد عن ذلك من أخطار تهدد وحدة الدولة و أخلاقيتها وأبعد من ذلك تعرض أرسطو لأهمية تحديد السن الملائمة للزواج والتى يراها عند الثامنة عشرة بالنسبة للمرأة وعند الخامسة والثلاثين أو ما حولها بالنسبة للرجل . وقد ربط هذا التحديد بأمور كثيرة منها اكتمال النضج العاطفى والجنسى . والنمو العقلى الذى ينعكس على النسل . وينصح بالتوقف عن النسل بعد سن الخمسين حيث يكون النمو العقلى فى هذه السن قد بلغ مداه . والإنجاب بعد هذه السن يعود على المجتمع بأبناء ضعفاء . كما ينصح الأمهات الحوامل بعدة نصائح أثناء الحمل وبعد الولادة . وأثناء التربية . ويتعرض فى هذا النطاق لمجموعة من الإجراءات الصحية المقبولة . كالمشى بالنسبة للحوامل . وعدم الكسل وغير ذلك مما لا يتعارض مع اتجاهات الطب الحديث .

وقد عالج أرسطو انحلال الأسرة . وفرض عقوبات صارمة علـى الخيانة الزوجية فهى محرمة خاصة على الزوجين . وتـزداد العقوبـة إذا حدث ذلك أثناء حمل المـرأة وقد كـان أرسطو مـن أنصـار تحديـد النسل . وفى سبيل ذلك أباح الاجهاض . وترك أولاد السفاح للهـلاك أو الإلتقاط . وهنا يتفق مع أفلاطون . ولكن أرسطو كان أكثر انسانية. بحيث أباح الاجهاض قبل تكوين الجنين ولكـن إذا مـا تكـون الجنـين فإنه يصبح روحاً يجب أن تعيش . ويكون قتلها جناية . وقد تعـرض أيضاً لمسألة الحد الأمثل لعدد السكان . لذلك كله فقد كانت دراســـة أرسطو للأسرة أكثر عمقا ووعيا بالموضوعية والنظرة التحليلية العقلية .

٣-دراسته لقواعد التربية :

ذهـب أرسـطو إلى ضـرورة توحيـد نظـام التربيــة بالنســبة لجميــع الطبقات. وأن التربية ينبغى أن تكون مــن أول الأمـور التـى يوليهـا المشرع اهتمامه. لأن اهمالهـا يعـود بضـرر كبـير علـى الدولـة . لأن أخلاق الأفراد . وعاداتهم وسلوكهم تشكل قوام الدولة ككل وتعطـى الدولة مفهومهـا السـليم . فـالأخلاق الديمقراطيـة هـى التـى تحفظ الديمقراطية.

ولاينكر أرسطو على الآباء قدراً معيناً مـن الحريــة فـى تنشئـة

أبنائهم، كما يتراءى لهم، ولكن هناك أمورا عامة مشتركة، يجب أن تكون مسئولية الدّولة للمحافظة على التضامن ووحدة الأهداف والآمال، وتبعد الدولة عن مخاطر الانقسامات التى يسببها اختلاف التربية.

وفى هذا الاطار يقسم مراحل التربية إلى ثلاث : التربية البدنية، والتربية الأخلاقية ، وأخيراً التربية العقلية . ويرى أن لكل من هذه المراحل نظاماً تربوياً يتوافق مع طبيعتها . ففى المرحلة الأولى نعمل على تنمية الطفل جسمانياً ، وبدنياً ، وفى الثانية يعمل على تقويمه ، وترويضه على الفضيلة ، والأخلاق الجيدة وتعليمه بعض الفنون الأولية ، وفى المرحلة الثالثة ينال المواطن قدراً من العلوم والفلسفة ، وأضاف إلى كل ذلك التدريب العلمى ، بحيث تعمل على أن يحتك النشء بالمشكلات احتكاكاً مباشراً ويتفهم التطبيقات المفيدة فى الحياة الاجتماعية .

ثم يحدد أرسطو مراحل التربية المنزلية التى تبدأ فى نظره منذ سن الولادة إلى سن السابعة ، ثم تتولى الدولة أمر التربية على مرحلتين: الأولى من السابعة إلى سن البلوغ ، والثانية من سن البلوغ إلى الواحدة والعشرين ، ومع ذلك فلم يترك التربية المنزلية دون اشراف ، ولكنه نادى بنظام «مفتشى الأطفال» وهؤلاء يشرفون على التربية داخل

نطاق الأسرة . ويقدمون النصح والارشاد لإتباع الوسائل السليمة فى التربية الصحية والخلقية . وإلى جانب ذلك وضع قواعد ونظما يتبعها هؤلاء المفتشون ومن الضرورى مراعاتها . كذلك ينهى عن القول الفاحش ، لأنه مقدمة للعمل الفاحش كما ينهى عن رؤية المناظر المنافية للآداب ، وأيضاً التماثيل والرسوم التى تثير معان من هذا القبيل ، ولا يترك أرسطو مشكلة شغل أوقات الفراغ دون علاج . فيقول : أن راحة الجسم . والعقل ضرورية عقب العمل . ولكن لابد أن يستفيد الانسان من وقت الفراغ ولو فى اللعب. لتنشيط عقله. وإراحة نفسه بما يعود عليها من لذة .

وفى المراحل الأولى يدرس الطفل الآداب (بما فيها القراءة والكتابة والنحو) . والتربية الرياضية . والرسم . ولكل من هذه الدراسات ضرورتها وأهميتها فى تنمية قدرات الطفل ويشير كل ما سبق إلى عمق النظرة الأرسطية فى التربية وبعد نظره فيها . وما قدمه فى هذا الإطار من مبادىء صالحة وملائمة لكل العصور .

٤-آراؤه فى الرق :

نظام الرق - فى رأى أرسطو - نظام طبيعى . فالطبيعة قد أعدت شعوباً للتفوق والسيادة . وأخرى للخضوع والعبودية . وكانت

هذه الآراء تنطوى على مقدمات نظرية التفرقة العنصرية . وقد عالج نظرية الرق فى مجال حديثة عن الأسرة كما ذكرنا . ويرى أن الأرقاء وظيفتهم جمع القوت الضرورى والقيام بالأعمال الصعبة . ومن الناس من خلقوا أحرارا ، فزود بالجسم والعقل معاً ، ويقصد بهؤلاء اليونان . ومنهم من زودته الطبيعة بقوة الجسم فقط ، وكان يقصد بهؤلاء سائر الشعوب الأخرى التى كان اليونان يطلقون "البربر" . وإذا كانت الطبيعة هى التى حكمت بهذه القسمة . فهى التى جعلت الأرقاء أجزاء لاتنفصل عن ملكيات الأسرة . فالأسرة لابد أن تمتلك بعض الأشياء ، ومن هذه الأشياء ماهو (حى) مثل الرقيق والدواب ، ومنها ماهو مادى (غير حى) كالمتتلكات المادية . وقد كان نظام الرق مباحاً ومشروعاً فى زمن أرسطو . وكانت الغزوات الحربية تشن للحصول على أرقاء ، كما يتم صيد الحيوانات ، وقد تأثر أرسطو فى نظريته عن الرق بكل تلك الأمور والأوضاع السائدة ، وإن كان قد غالى فى تصور الفروق الطبيعية بين الأفراد وتصور الدولة مجتمعاً حراً يعتمد أساساً على جهود العبيد المسترقين ، وليس ذلك بالأمر المقبول من مفكر بذل جهداً كبيراً من أجل إقامة مجتمع على دعائم العدل والفضيلة .

٥-الحكومة :

فرق أرسطو بين الدولة والحكومة . فالدولة هى مجموعة المواطنين . أما الحكومة فهى الفئة أو الهيئة التى تنظم شئون الدولة وتشرف على الوظائف والمرافق العامة. ويختلف شكل الحكومة تبعاً لغايتها. كذلك تختلف باختلاف عدد الحكام . والحكومة اما أن تكون صالحة أو فاسدة . ومن ناحية أخرى فهى إما أن تكون مهمة فرد واحد أو بضعة أفراد أو تكون فى أيدى العامة .

وعلى أساس هذا المفهوم يرى أن الحكومات ستة أنواع ثلاث منها حكومات صالحة وهى الملكية . والأرستقراطية . والجمهورية. وثلاث أخرى فاسدة . هى حكومة الطاغية . والحكومة الأوليجاركية. والديمقراطية . فالملكية حكومة فرد عادل . والأرستقراطية حكومة الأقلية العادلة الفاضلة . والجمهورية هى التى يشترك فيها جميع أفراد الشعب عن طريق ممثليهم . وتتميز بالمساواة . والحرية . واتباع الدستور .

ولكن إذا تحول الملك الفرد إلى شخص ظالم أصبحت حكومة طغيان . وإذا انحرفت طبقة الارستقراطية انقلبت إلى حكومة أوليجاركية . وهى حكومة الجشعين والطماعين والتى يستبد بالحكم

فيهـا طبقـة الأغنيـاء . وإذا فسـدت الجمهوريـة انقلبـت إلى حكومـة ديمقراطيـة وهـى الحكومـة الغوغائيـة التـى يسـودها الدهـاء وتحكمهـا التيارات الشعبية الجامحة . ويتولى الحكم فيها أشخاص من غير ذوى الخـبرة والمهـارة والإدراك . وقـد انتهـى أرسـطو مـن تحليـل مسـتقبل الحكومات إلى أن فضل الأخذ بالقاعدة العامة التى تقـرر أن " الفضيلـة وسط بين الطرفين مرذولين . وأن خير الأمـور الوسـط " . ويطبـق هـذه القاعدة فى مجال السياسة لينتهى إلى أن خير أشكال الحكومـات هـى الحكومة التى يتولى الحكم فيها ملك عادل رشيد ولكنه مع ذلك يفضـل عليها من الناحية العملية الحكومة الجمهورية . لأن الأولى أكثر تعرضا للفساد. وإذا فسدت نجمت عنهـا حكومـة فـى غايـة الفسـاد . وهـى الحكومة الاستبدادية ، على حين أن الجمهوريـة أقـل تعرضـاً للفسـاد وحتى إذا افسدت فانه ينجم عنهـا شـكل مـن الفسـاد محتمـل . وهـو الحكومة الديمقراطية . أى أن أفضل الحكومات حينما يفسد يـؤدى إلى أسوأ أنواعها . بينما أدنى الأشكال أذا فسد يؤدى إلى نوع أقل فساداً .

وفضلاً عن ذلك درس أرسطو أسباب الثورات . وحللها تحليـلاً دقيقاً وأرجعها إلى عوامل طبيعية . واجتماعية واقعية . مثل الاسـراف فى عدم المساواة . أو الظلـم الاجتمـاعى ، أو النمـو غـير المتناسـق فـى

المجتمع . أو فقدان المدينة لعامل الوحدة الذى يثير تيارات سياسية مخالفة أو الحسد الاجتماعى . والطمع فى الثراء والوصول إلى مراتب الشرف . والرغبة فى السيادة السياسية . هذا بالإضافة إلى اختلاف الأصول والسلالات التى يتكون منها المجتمع وعدم انصهارها فى وحدة واحدة توحد الأجانب والأصليين معا .

٦-المدينة الفاضلة :

على غرار ما فعل أفلاطون حاول تلميذه وضع دعائم ومقومات المدينة الفاضلة . التى تعتبر فى نظره أرقى صور الحياة السياسية . حيث يرى أن المدينة الفاضلة هى التى يستطيع كل مواطن فيها أن يعمل وفقا لقوانينها . مع تأمين قدر من السعادة . والمدينة كالفرد لابد أن تسودها الحكمة والفضيلة . ومن الشروط التى يجب أن تقوم عليها المدينة الفاضلة ما يلى

١- يجب أن تكون تربتها خصبة ، ويسهل استغلالها . وأن تكون محصنة ضد غارات الأعداء ، وهجمات المغيرين مع كفاءة طرقها الداخلية .

٢- من حيث المساحة يتوجب أن تتناسب مع حاجات المواطنين . وتوفر لهم حياة سهلة . وليس ضروريا أن تكون المدينة مترامية الأطراف . ويجب أن يمتلك كل فرد جزءا معينا فى داخل المدينة ، وجزءاً على أطرافها . لكى يشترك الجميع فى الدفاع عنها

٣- حدد الحد الأمثل للمدينة بمائة ألف نسمة. ومن الضرورى أن يعرف سكان المدينة بعضهم. وألا يقل عددها عن الحد الأدنى. ولايزيد عن الحد الأقصى الملائم. وفى سبيل المحافظة على الحد الأمثل Optimum size أباح أرسطو بعض الإجراءات غير الانسانية. كالاجهاض وإعدام الأطفال المشوهين وفاسدى الأخلاق. وتحريم الزواج على الشيوخ والعجزة. ومن بلغ الخمسين من عمره.

٤- ثم يحدد البناء الطبقى للمدينة على أنه يتضمن: الزراع. والصناع. والتجار. ورجال الفن. والمحاربين أو الجنود. وطبقة الأغنياء. وطبقة رجال الدين. وطبقة الحكام. ورجال القضاء كما يحدد حق المواطنة Citzenship فالمواطن الحر لا يعمل فى الأعمال اليدوية أو الدنيئة. وفى هذه النقطة يختلف مع كثير من المفكرين.

٥- كذلك فإن نظام التربية الذى أشرنا إليه من قبل يعتبر ضمن مقومات المدينة الفاضلة فهو يرتب طرق التربية السليمة والاشراف على الأطفال. ورعاية الأمهات. وغير ذلك من المبادىء التى لاخلاف عليها.

ومن كل ماسبق يمكن النظر إلى أرسطو باعتباره مبشراً بقيام علم الاجتماع من حيث أنه قد تناول مسائل هذا العلم موضوعاً.

ومنهجاً، كما عالج الكثير من حقائقه . وظواهره . وتمثل بحوثه مرحلة أكثر تطوراً عمن سبقوه . كذلك فقد اتسم أرسطو بالوضعية من حيث أنه درس ما هو كائن فعلاً كتمهيد الدخول إلى ما يجب أن يكون.

وفى النهاية فإنه يمكن القول بأنه ما من شك فى أن الفكر الاجتماعى اليونانى رغم احتوائه على الكثير من الجوانب التى يسهل نقدها – خاصة عند أفلاطون وأرسطو والتى كانت مدعاة لهجوم متواصل، إلا أن هذا الفكر يمثل تطوراً كبيراً فى تاريخ الفكر الانسانى. من حيث وحدته وتنظيمه، واتساع مجالاته ، هذا فضلاً عن أنه يتضمن الانتقال بالفكر الانسانى الى مرحلة متقدمة من التجريد . تختلف فى طابعها عن الطابع المحسوس الذى تميز به الفكر البدائى.

الفصل الرابع

الفكر الاجتماعى عند الرومان

محتويات الفصل الرابع

مقدمـــة :

يتميز الفكر الاجتماعى الرومانى بالإهتمام بالجوانب العملية التطبيقية أكثر من الجوانب النظرية المجردة سواء منها التأملية أو المثالية ، أو التحليلية الواقعية ، وبالتالى فقد كانت اهتمامات هذا الفكر تنصب على العلاقات الاجتماعية ، والأنماط السلوكية .

وقد تضمن هذا الفكر اتجاهين بارزين : أولهما تمثله الفلسفة الأخلاقية العملية بشقيها (الأبيقورية – والرواقية) وثانيهما يتضمن الجهود الفكرية التى انبثقت عنها مجموعة القوانين الوضعية.

والأبيقورية مدرسة يونانية فى الأساس ، ولكنها لها أتباع كثيرون من الرومان ، وهى تلك التى أسسها أبيقور Epicure وهو فيلسوف يونانى ولد فى ساموس (٣٤١-٢٧٠ق .م) وكان تصورها عن المجتمع يخالف تصور المجتمع عند الرواقية حيث يرى روادها أن كل فرد يدرك مصلحته الذاتية ولكنه لايستطيع تحقيق مصالحه إلا إذا كون علاقات اجتماعية مع غيره ، وقد أدت هذه الفكرة إلى ظهور فكرة العقد الاجتماعى فالمجتمع يمر بمرحلة سابقة على الاجتماع هى مرحلة الطبيعة التى تتضمن الكثير من المساوىء لذلك يفكر الأفراد فى إنشاء علاقات اجتماعية ليتعاقد الناس على المعيشة والتعاون من أجل تحقيق مصالحهم .

وكذلك فإن المدرسة الرواقية كانت هى الأخرى مدرسة يونانية وجدت لها أتباعاً كثيرين من الرومان وقد أسسها زينون الستيومى Zenonde sitiume اليونانى المولد وقد أسسها ستيوم فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد . وقد اعتنق مذهب هذه المدرسة كثير من فلاسفة الرومان . وظل فكرها سائداً حتى نهاية الإمبراطورية الرومانية . وقد اتفق الرواقيون مع أرسطو فى أن الانسان اجتماعى بطبعه . ولابد أن يكون اجتماعياً حتى تنمو شخصيته ويؤدى واجبه فى المجتمع وقد كان تصور هذه المدرسة للمجتمع أوسع من تصوره عند المدارس اليونانية الأخرى التى كانت ترى أن المجتمع إما أن يكون اغريقياً أو بربرياً. أما الرواقيون فقد طوروا فكرة المجتمع العالمى . والمواطن العالمى ومن ثم آمنوا بالأخوة الانسانية أو الأخوة بين الصفوة على الأقل .

وهكذا نرى أن الرواقيين اجتماعيو النزعة . والأبيقوريون يميلون للنظرة الفردية ، كذلك فإن الرواقيين يميلون للنظرة العقلية الروحية . بينما الأبيقوريين ماديو الاتجاه فالعلاقات والمصالح المادية عندهم أساس العلاقات الاجتماعية . وقد لعبت الفلسفة الرواقية دوراً رائداً فى الفكر الاجتماعى الرومانى حيث مهدت لإرساء البناء القانونى والتشريعى الوضعى المستمد من التطبيق العملى . والذى ينطبق على كل المدنيين دون تفرقة .

ومن أبرز مفكرى هذه المدرسة فى روما خطيبهم المشهور شيشرون وكذلك " ابكتيت " الذى عاش فى القرن الأول الميلادى وكان أحد الرعايا العبيد الذين صعدوا إلى مرتبة المفكرين الحكماء ثم الامبراطور " مارك أوريل" وهؤلاء الثلاثة طوروا فكرة القانون الرومانى الذى عرف عند المشرعين بالقانون " البريتورى " كما طوروا المبادىء العامة التىعرفت فى الفكر الاجتماعى بمبادىء القانون الطبيعى .

وقد تركت المدرسة الرواقية أثراً عميقاً فى الفكر الرومانى. ودعمت الرسالة الانسانية لهذا الفكر . فنجد مثلاً أن الامبراطور (مارك أوريل) أحد مفكرى هذه المدرسة قد ألغى صنوف الظلم التى كان يعانى منها الرقيق . وأضفى عليهم شخصية انسانية أخلاقية فأصبح عضواً يتمتع بكافة حقوق المواطنة . ويرفع القضايا أمام المحاكم ونادى مارك أوريل بإلغاء نظام الرق لأنه نظام لاتستسيغه الفطرة الانسانية أو على الأقل يجب التضييق من نطاقه . كذلك أثرت الأخلاق الرواقية فى مجال الأسرة فعارضت السلطة المطلقة للآباء وأتاحت بعض الحرية لأفراد الأسرة فلم يعد الإبن ملكاً لأبيه كما يملك الدواب وغيرها . ولم تعد الزوجة غريبة عن شئون منزلها وأسرتها بل أصلح الإمبراطور كثيراً من الشتريعات القديمة وحاول ملائمتها مع كرامة الحياة الانسانية كما أدخل تعديلات على قوانين الوكالة . والوصاية . كل هذا فضلاً عن

مراعاة كثير من ظواهر الرحمة والتعاطف،الأمر الذى ظهر أثره فى تخفيف أثر الروح العسكرية الرومانية والتخفيف من حدتها ولعل من المفيد أن نعرض فى عجالة لأشهر مفكرو الرومان خاصة الذين عالجوا المسائل الأخلاقية والإجتماعية.

١) سنكا : Senaque (هـ - ٦٦ بعد الميلاد) :

كان سنكا سليل أسرة أرستقراطية وقد اتجهت ميوله منذ الصغر إلى دراسة الفلسفة فذهب إلى روما حيث تلقى تعليمه على يد بعض مفكرى الفيثاغورية وقد أثرت فيه إلى حد كبير بحيث آثر حياة العزلة والفلسفة. ومع ذلك فقد شغف بالمحاماة فاشتغل بها بعض الوقت وتولى أحد المناصب القضائية وأشرف على تربية (نيرون) الذى أصبح طاغية الرومان فيما بعد . وقد أحبكت له مؤامرة حكم عليه فيها بالإعدام.ولكن نصحه(نيرون) بالإنتحار قبل تنفيذ هذا الحكم،وقد نفذ ذلك.

وقد كانت معظم كتابات سنكا روايات تراجيدية . ورسائل لتلاميذه ولأبناء الشعب فضلاً عن بعض البحوث الفلسفية . وقد كان لحياته الخاصة أثر كبير فى نزوعه للعزلة . وعدم حب التحدث للناس . واختيار الصفوة من تلاميذه . وقد دعا للأخلاق الفاضلة . والأخذ بأسباب التراحم والتآخى . والتعاون فى كل أمور الحياة .

كذلك غلبت على معالجته لمشكلة الرق المسحة الأخلاقية . وكثيرا ماكان يتساءل . :هل هناك فرق بين الأحرار والعبيد ؟ أليسوا مثلنا فى كل شيء فما هى دواعى التفرقة الصارخة التى يعانون منها ؟

٢) ابكتيت Epictete : (**القرن الأول بعد الميلاد**) :

يقال أن ابكتيت كان عبداً لرجل صديق لنيرون . وولد فى آسيا الصغرى . وبعث به والده إلى روما . وتتلمذ على يدى بعض مشاهير الرواقيين . ويذكر عنه أنه كان يقول : " إننى لاأشتغل بالفلسفة . ولكن اشتغل بتحرير نفسى . وقد اعتق من رقه . وأقبل على الدرسات والتعاليم الفلسفية . وقد جادل الرومانيين حول قضية الخير والشر وماهيتها كما فعل سقراط مع الاثينيين وأيضاً كان موضع سخرية وتهجم وقسوة . وقد هاجر من البلادبعد قرار الامبراطور الرومانى بإخراج الفلاسفة من روما وعاش فى مدينة يونانية افتتح بها مدرسة لتعليم الشباب واستمر فى أداء هذه الرسالة حتى نهاية حياته ولم يعثر لهذا المفكر على كتابات مدونة. ولكن أحد تلاميذه قد لخص فلسفته فيما بعد .

ويتضح من أقواله أنه كان مدافعاً قوياً عن الأخلاق الرواقية . وكان مبعث إخلاصه لها ما واجهه فى حياته من حرمان وقسوة لذلك كان يرى أن مهمة الفلسفة أن تصلح الأخلاق وتربية المواطنين على

الفضيلة . وليست وظيفتها كما كانت عند اليونان هى البحث عن المبادىء الأولى للوجود أو البحث عن العلل الأولى . وقد كانت الفكرة المحورية فى فلسفته هى (الحرية) وربما كان ذلك رد فعل لما واجهه فى حياته الخاصة .

ومن هنا كان دفاعه عن الرق يتسم بالتحمس . فالرقيق كمايرى كائن عقل مثل غيره من سائر الكائنات فليس هناك رق بالطبيعة ويحث المجتمع على تقوية الروابط الروحية والمبادىءالأخلاقية والعناية بالجوانب الدينينة والإنسانية .

٣) مارك أوريل Marc Aurele:

(امبراطور روما من ١٦١ إلى سنة ١٨٠ بعد الميلاد) .

كان هذا الامبراطور الرومانى فيلسوفا رواقياً رائداً لذلك نراه يذكر بالعرفان أولئك الذين أسهموا فى تربيته . وقد شهد عصره الكثير من الفتن والغزوات وهجمات البرابرة لذلك قضى جزءاً كبيراً من حياته فى مجالات الحروب وقيادة الجيوش وخوض المعارك حتى أدركه الموت بعيداً عن وطنه فى فييناً عام (١٨٠ميلادية) .

ومارك أوريل آخر الفلاسفة الذين مثلوا المذهب الرواقى فى عصور ازدهاره فى الفكر الرومانى وقد ترك مذكرات شخصية تتضمن

كثيراً من الخواطر والتأملات الفلسفية ومما يجدر ذكره أن السلطة لم تغير من سماته كفيلسوف رواقى . فبقى فى الفلسفة الرواقية على مايتفق واتجاهه الانسانى أو الأخلاقى هذا فضلاً عن أنه كان متديناً إلى أبعد الحدود .

وتنطوى كتاباته على كثير من البراهين على اثبات وجود الله وعدالته . وقد دعا إلى دعم الجامعة الانسانية أو العالمية التى دعت الرواقية إليها فالناس يتساوون فى العقل لذلك يميلون إلى الاجتماع الذى يمثل سمو المنزلة الانسانية ورفعتها . وكلما زادت هذه المنزلة سمواً زاد تماسك الجماعات الانسانية وتضامنها فقانون الطبيعة إذن يعرض على الناس التعاون من أجل العمل المنتج والخير الأسمى بغض النظر عن اختلافات اللون أو البيئة . لأن هناك اتفاقاً فى جوهر العقل الذى يمثل وحدتهم القرابية .

خــــلاصة :

نلمس مماسبق أن مفكرى الرومـان قد اهتموا أساساً بالجانب الأخلاقى للحياة الاجتماعية وقد كان ذلك فى الحقيقة رد فعل لكثير من التيارات التى سادت الإمبراطورية الرومانية والتى تضمنت انحلالا خلقيا ظاهراً وتفككاً فى كثير من جوانب الحياة فى المجتمع . ولقد كان تركيز الفلسفة الرواقية على الجوانب الأخلاقية هو العامل الدافع لاعتزالها مناقشة المسائل الميتافيزيقية وبعدها عن الجدل فى النواحى السياسية والدينينة باستنثناء مايتصل منها بمسائل إنسانية مثل فكرة القانون العام والمساواة ومقاومة الرق .

وقد وجدت الامبراطورية الرومانية فى سنواتها الأخيرة فى المذهب الرواقى مبادىء إيجابية فى مواجهة ماوصلت إليه أحوالها من تفسخ وانحلال ولئن كانت الإمبراطورية الرومانية لم تشهد ازدهاراً فى مجالات الفلسفة فإنها قد عوضت ذلك بما حققته من تطور فى الجوانب التشريعية والقانونية ،وقد أدى ذلك إلى الاستعانة بالأخلاق والمثل الانسانية التى طورتها الرواقية كأحسن مايكون .

ومن النتائج العامة التى يمكن استخلاصها فى هذا الاطـــار أن فقهاء القانون الرومانى قد عكسوا ماكانت تسير عليه المنتجات القديمة من مبادىء أخلاقية سياسية .

فقد كانت هذه المجتمعات تعتمد على مبداى الحرية السياسية والرق المدنى كما اتضح من استعراضنا للفلسفة الأرسطية والأفلاطونية ولكن فقهاء الرومان اعتمدوا على نظرية السلطة المطلقة محل الحرية السياسية . كما اعتمدوا نظرية المساواة الطبيعية محل نظام الرق . ولابد أن الفكر الرومانى قد جانبه الصواب فى المبدأ الأول . بينما بلغ تطوراً رفيعاً فى الجانب الثانى . الأمر الذى ظهر أثره فى الفكر الاجتماعى والسياسى عند المسيحيين

الفصل الخامس

الفكر الاجتماعى المسيحى

محتويات الفصل الخامس

مقـــدمة :

كانت الفلسفة المسيحية فى طور النشأة والتكوين فـى الوقت الذى كانت فيه الامبراطورية الرومانية فى طريقها للإنهيار والتدهـور وقد كان من أهـم ماكرستـه المسيحية وأولتـه عنايتهـا الفائقـة فكـرة المساواة بين الأفراد فاعترض مفكروا المسيحية علـى قسمة النـاس إلى أغنياء وفقراء أو سادة وعبيد . أو أحرار وأرقاء . ولقد هاجم روادهـا الأول نظام الرق من حيث أنه يتعارض مع القوانين الإلهية .

ومن أهم سمات هذه القوانين أن الناس متســاوون فـى الخلـق والعقل والإستعداد للعمـل الفـاضل ، ومـن هنـا كـانت حملـة علمـاء المسيحية على الرق ، والملكية الخاصة وتبرير تعارضها مع المسـيحية لكثـير مـن الأفكـار الشـيوعية . ويجـد الـدارس كثـيراً مـن الأفكـــار الاجتماعيـة المنسـقة عنـد أشـهر فلاسـفة المسيحية .وهـم القديـــس أوغسطين . والقديس سان توماس . وحنا كلفن .

١) القديس أوغسطين St; Augustin (٣٥٤-٤٢٠م)

يمثل القديس أوغسطين الفلسفة المسـيحية فـى قرونهـا الأولى أصدق تمثيل . وقد لعبت التحليلات التى وردت فى مؤلفه (مدينـة الله) دوراً كبيراً فى الفكر الاجتماعى حيث عالج الحـق الطبيعـى

والحق الإلهى وشرعية السلطة السياسية والسلطة الدينينة والنزعة الانسانية . ودور العقيدة الدينية فى اعلاء العلاقات البشرية وفقاً للمبادىء الأخلاقية السامية . كما ناقش واجب السلطة السياسية فى ضرورة العمل على تحقيق العدالة الاجتماعية .

ومن مقومات المجتمع فى نظره اشتراك الأفراد فى الفكر والعاطفة مما يقيم بينهم نوعاً من الوحدة المعنوية . ويرى أن كل فرد ينتمى إلى عالمين العالم الأرضى العلمانى والعالم السماوى الإلهى . وتتجاذبه قوانين هذين العالمين وتشريعاتهما. العالم الأرضى يجذبه لمغريات تجربة لخطيئة والإثم . والسماوى يجذبه إلى تعاليم السماء المقدسة والجهاد فى سبيل تحقيق السعادة عن طريق العدالة الإلهية.

والحياة الاجتماعية تعتمد فى بدايتها على مبادىء القانون الطبيعى وحينما يقع الناس فى الخطيئة يصبح القانون الوضعى ضرورة اجتماعية . ومايتضمنه من إجراءات جزائية وعن هذه الضرورة استمدت السلطة الأرضية مبررات وجودها واستطاعت أن تفرض نظم الرق والملكية الفردية وغيرهما من الأمور التى تعتبر عقابا من الله على خطيئة البشر. كما أنها من مستلزمات سلطة الدولة وركيزة للتنظيم الاجتماعى .

وحينما تعرض أوغسطين للملكية الفردية أرجـع حـق الملكيـة للذات الإلهية فا لله هو المالك الحقيقى . وهو الذى أسبغ هذا الحـق على الجنس البشرى . فالملكية ليست حقاً طبيعيا أو قانونياً ولكنهـا ترجع لمصدر مقدس ومع ذلك فإن حمايـة الملكيـة مـن أهـم واجبـات الدولـة وينظـر أوغسـطين لـلرق نظـرة مزدوجـة فمـن وجهـــة النظـر الانسانية هو نظام يحق إلغاؤه ومن وجهة كونه نتيجة عقابيـة علـى خطايا البشر فهو نظام طبيعي يتمشى مع العدل الإلهى

ولما كانت الخطيئة لاتزال باقية فسوف تبقى كثـير مـن الآلآم والآفات التى يعتبر الرق أحد مظاهرها الاجتماعية وزوال نظـام الـرق رهن بزوال التسلط والظلم والخطيئة وزوال هذه الظواهر الأخيرة لايتـم إلا حينما يتولى ا لله بنفسه السـلطة المباشـرة الأمـر الـذى لايمكـن أن يتاح فى الحياة الأرضيـة بـل حينمـا يـرث ا لله الأرض ومـن عليهـا وينتقل البشر إلى المدينة أو العالم السماوى .

٢) القديس سان توماس الأكوينى St: Thomas D'Aquin
(١٢٢٥-١٢٧٤م)

يمثـل القديـس سـان تومـاس الفلسـفة المسـيحية فـى القـرون الوسطى والمجتمع فـى نظـره مجموعـة مـن الأفـراد الذيـن تجمعهـم

المعاشرة المشتركة والخضوع المشترك لمجموعة من القوانين التى يجب أن تحقق العدالة . والإشتراك فى الهدف والمطالب ومن أهم مؤلفاته الاجتماعية : " حكومة الأمراء " وهو كتاب يعكس شدة الصراع بين البابوية والأباطرة .

والحكومة هى القوة التنظيمية فى المجتمع . وهى ضرورة اجتماعية تؤدى دور النفس فى الجسد البشرى فالحكومة تعمل على سلامة واستقرار المجتمع ووسيلة ذلك هى العمل . والعمل نوعان :

الأول : داخلى . ويتضمن التشريع ووضع القوانين المنظمة للعلاقات وإقامة المساواة والعدالة . وترويض رجال القضاء على مراعاة ضمائرهم وأن يكون العدل هدفهم الأول .

والثانى: خارجى . وهو العمل على الوقاية من الغزو والهجوم المباغت وقد أيد مشروعية الحرب . واستخدمت كافة الوسائل بما فيها الخداع واسترقاق الأسرى وغير ذلك .

وقد ذهب إلى أن السيادة السياسية هى سلطة من القوانين وهذه وظيفة كل أفراد المجتمع السياسى . أو من يمثلونهم وقد أقر بمشروعية الملكية الخاصة إلا إذا ساد الفقر وعم الحرمان . فتصبح الملكية عامة بين الجميع وقد اعترف بظاهرة الرق . وسلم بها .

ورأى أنها تحقق دوراً اجتماعياً أساسياً . وهو عقاب البشر على خطاياهم . ويتفق فى ذلك مع القديس أوغسطين

٣) حنا كلفن : (١٥٠٩-١٥٦٤م)

ويمثل حنا كلفن عصر الإصلاح الدينى . حيث كان من أبرز المصلحين الاجتماعيين وكان له تأثير كبير فى النظم السياسية والاجتماعية . وقد نسب التنظيم السياسى إلى الله سبحانه وتعالى . ورأى أن الملوك هم ظل الله على الأرض . ودرس أشكال الحكومات، كما درس المبادىء السياسية المختلفة وتعاقب هذه الحكومات . ومظاهر الفساد الذى يتطرق إلى كل شكل من أشكالها .

وقد رأى أن لكل من الدولة والكنيسة اختصاصاً محدداً وعارض اندماجهما فى هيئة واحدة بل رأى أنه من الضرورى أن تكون لكل منهما هيئة عليا ترسم غاياتها . وأهدافها وتحققها وذهب إلى ضرورة تشكيل مجلس شيوخ من كبار رجال الدين الذين يشرفون على شوئن الكنيسة . ولايتدخلون فى السياسة على الإطلاق، كما نادى بعدم تركز سلطة الكنيسة فى يد البابا وحده .

ولم يكن من أنصار الحكومات الشعبية رغم تقريره أن الشعب هو صاحب السلطة . وهو مصدر السيادة . وقد هاجم كلفن التيارات

الشيوعية رغم أن الكثيرين كانوا يعتقدون أن حركات الإصلاح غالباً ماتؤدى إليها، ورأى أن الشيوعية تقوم على فهم خاطىء للقانون الطبيعى وما تنطوى عليه هذه الفكرة من معانى الحرية والمساواة والإخاء.

ويتكون القانون الطبيعى فى نظره من ثلاثة عناصر هى المبادىء الطبيعية . وميثاق الحكومة . وحق المقاومة . وبالنسبة للمبادىء الطبيعية يراه معتمداً على النظام الطبيعى الذى خلقه الله وأن هذا النظام هو أساس الجماعة الإنسانية والقانون الطبيعى خالد ومصون . ويتطلب نظاماً للعدالة . وهذا النظام يستمد ضرورته من ضرورة الخطيئة الإنسانية . فالعدالة الدنيوية دواء إلهى وليست عقاباً كما يزعم بذلك الكاثوليك . وفى ضوء العدالة يتعرض كلفن لطبيعة الدولة فيقول أن الله قد نظم هذا العالم وكل مقاطعاته وأقاليمه صور من مملكة السيد المسيح . وأن الله سبحانه وتعالى يرعى هذا العالم بعنايته وعدالته . وهذه الإعتبارات من شأنها أن تزيد من حبنا لله سبحانه وتعالى . وهى دلائل على وجوده . وفيها الدليل على حبه . ولكل ذلك فإن أسس صور العدالة تتوافر فى جمهورية يقوم على شئونها رؤساء منتخبون .

أما العنصر الثانى . وهو فكرة " الميثاق " فيرى كلفن أنها

حق من الحقوق التى تتفرع عن القانون الطبيعى . ومصدرها يوجد فى الفلسفة الرواقية . والأبيقورية . وانتقلت للرومان باسم التعاقد الحكومى . ثم ظهرت فى العصور الوسطى . خاصة فى تتويج الامبراطور " شرلمان " وأطلق عليها مبدأ رضاء الشعب واهتم بها كلفن وحاول إقامتها على مبادىء من نصوص الإنجيل حتى أنه اعتبر المسيحية نمواً طبيعياً للميثاق القائم منذ بدء الخليقة بين ا لله والناس فالذين يؤيدون كلفن يذهبون إلى أن ا لله قد تعاقد مع الناس. فكيف لايتعاقد الناس مع ملك أو حاكم .

وأبعد من ذلك طبق كلفن هذه الفكرة فى ميدان الكنيسة وطبقها عندما تولى مقاليد الحكم فى جنيف . حيث أسس كنيستها على نظرية التعاقد.فصاغ لها دستوراً دينياً ومدنياً ودعى الشعب كله للتوقيع عليه.أى أن الميثاق كان دينياً واجتماعياً فى نفس الوقت.

والعنصر الثالث : وهو حق المقاومة . فيقوم على مايراه كلفن من أن الشعوب يجب أن تقاوم سلطة الحكومة إذا ماتبين لها أن هذه الحكومة لاترى مبادىء القانون الطبيعى فى نظامها أو تقيد حرية المواطنين . أو تتدخل فى شئون العقيدة .

وقد أقر هذا الإستثناء فى حالة انحراف الحكومة . لأنها

(الحكومة) لاتكون فى هذه الحالة معبرة عـن إردة ا لله . ومـن ثـم يجب العصيان والتمرد . وقد اعتمد هذا الحـق لإدراكـه عـدم إمكـان توفر الطاعة والخضوع فى ظل القهر . والحكم الإستبدادى ومع كل هذا لم يكن ينصح بضرورة الثـورة أو يحـرض عليهـا . ولكنـه كثـيراً ماكان ينصح باتباع الأساليب السوية فـى إنهـاء الخلافـات . ولكـن الأمر الذى لم يتسامح فيه هو مخالفـة الحكومـة للقـانون الطبيعـى . والإرادة الإلهية .

الفصل السادس

الفكر الاجتماعى عند بعض مفكرى المسلمين

محتويات الفصل السادس



مقدمة :

اهتم العرب قبل الإسلام بالكثير من جوانب الفكر الاجتماعى، حيث فكروا فى شئون الحياة والمجتمع وكانت لهم نظم وأوضاع اجتماعية ارتضوها فيما بينهم . كذلك كانت لهم لقاءات عامة يناقشون فيها مشكلاتهم وأمور حياتهم ،ويفكرون فى وسائل علاجها .

وقد مهر العرب فى بعض الجوانب ،كالكهانة والعرافة،وقد مارسوا نظام الثأر ،وكانت لهم شعائر وطقوس وعبادات خاصة،وأيضاً عرفوا جميع نظم الزواج ،من تعدد الأزواج والزوجات إلى وحدانية الزوجة وتعدد الأزواج،إلى وحدانية الزوج والزوجة،ونظام الطلاق وكذلك مهر العرب فى بعض جوانب الفلك الطب،والحروب،والترجمة ،الأمر الذى يمكن معه القول بأنهم لم يكونوا فى عزلة عن المجتمعات الخارجية والحركات الفكرية الأخرى ،وحينما انتشر الإسلام حقق فى فترة وجيزة وحدتهم القومية ،تلك التى لم تتحقق خلال التاريخ الطويل رغم توافر مقوماتها . والإسلام دين اجتماعى بالدرجة الأولى ،والنظام الاجتماعى فى الإسلام جزء من الدين فقد اهتم هذا الدين بالعقائد والعبادات وإلى جانب ذلك اهتم بالتشريعات الدقيقة التى تنظم الحياة الاجتماعية مثل الزواج،الطلاق،والوراثة،والزكاة،والرق

والحج،والصوم،والضوابط الاجتماعية ،وحقوق الإنسان ،وأعلى كثير من القيم الفاضلة كالحرية والمساواة والتواد والتراحم،والتعاون،وإضفى الإسلام على العمل والكد صبغة مقدسة تصل إلى مراتب العبادة

هذا فضلاً عن كثير من الجوانب الأخرى التى تستعصى على الحصر،وهي كلها أمور لم تتوافر في أى دين آخر،وقد كانت اليهودية موغلة فى المادية ،وجاءت المسيحية مسرفة فى الروحانية،ولكن جاء الإسلام وسطاً بين الأمرين ،فقد تكاملت فيه الناحيتين فى ظل التأكيد على عدم الإسراف فى أى منهما على حساب الآخر

والإسلام كدين اجتماعى يحث على التفكير والإجتهاد،وطلب العلم،وقد اهتم المفكرون الأول فى عصر الخلفاء الراشدين بجمع القرآن الكريم ،وتفسيره ،ورواية الأحاديث النبوية وجمعها وتبويبها،وفى العصر الأموى زاد الإهتمام بالدراسات والجوانب الفقهية ،وقد شهد العصر العباسى نهضة علمية،وثقافية واسعة النطاق شملت كل فروع الفكر الاجتماعى ومختلف العلوم الإنسانية والطبيعية ،وقد كان لهذه الحركة الإحيائية آثارها الواسعة على مختلف أنحاء الإمبراطورية الإسلامية .

وعلى الرغم من ذلك فقد كان الإهتمام بطبيعة الحياة الاجتماعية، والتغير الذى حدث فى المجتمع والذى كان فريداً فى

نوعه . كان الإهتمام بذلك كله ضئيلاً . لذلك جاء الكثير من الدراسات مختلطا بالدين . والفلسفة . فيما عدا دراسات المفكر والعالم العربى عبد الرحمن بن خلدون التى جاءت موضوعية فى تصويرها لواقع الحياة فى المجتمعات الإنسانية .

ومن هنا فإنه يمكن النظر للدراسات الاجتماعية عند العرب من زاويتين : الأولى زاوية دينية . ويمثلها الفارابى وإخوان الصفا . والزاوية الثانية : وصفية تحليلية ويمثلها ابن خلدون والجغرافيون العرب .

أولاً : الفارابى

ولد أبو نصر محمد بن طرفان بن أوزلغ عام ٢٦٠هجرية – ٨٧٤م . بولاية فاراب على نهر سيمون من أعمال بلاد الترك . لذلك اشتهر بنسبته إلى هذه الولاية . ومما هو معروف عنه أنه عكف بولاية فاراب على دراسة العلوم والفلسفة واللغات وخاصة اللغة التركية . والفارسية . والعربية . وقد رحل من بلاد الترك مع والده إلى بغداد التى تعلم فيها العربية والنحو والطب والمنطق . وبعد أن تعرضت بغداد للفتن والإضطرابات رحل إلى دمشق . ثم غادرها إلى حلب . وقد زار مصر عام ٣٣٧- ٣٣٨ هجرية . ومات فى دمشق عام ٣٣٩ هجرية – ٩٥٠ ميلادية .

وقد احتل الفارابى مكانة بارزة فى الفكر الإسلامى. حيث يقول المؤرخون : " الحكماء أربعة اثنان قبل الإسلام هما أفلاطون وأرسطو . وإثنان فى الإسلام . وهما الفارابى وابن سينا ".وقد لقب الفارابى بالمعلم الثانى (الأول أرسطو) .كما لقب ابن سينا بالشيخ الرئيسى وقد تبنى الفارابى كثيراً من آراء أرسطو .فضلاً عن تأثره بالأفلاطونية الحديثة وهى تلك التى ظهرت على أيدى أفلوطين الإسكندرى. والفارابى يمثل الإتجاه المثالى أو اليوطوبى فى الفكر الإسلامى .ومن أهم مؤلفاته فى الشئون الاجتماعية " آراء أهل المدينة الفاضلة " .

(أ) طبيعة وأشكال المجتمع الإنسانى :

يؤيد الفارابى ما ذهب إليه أرسطو من أن الإنسان مدنى بطبعه. وأن الاجتماع الإنسانى يعتبر ضرورة لإشباع حاجات الأفراد. كما يشير لأهمية تقسيم العمل .والتخصص الاجتماعى ودورهما فى بناء المجتمع .فالإنسان بمفرده لايمكن أن يشبع كل متطلباته. بل هو فى أمس الحاجة إلى أناس يقدمون له بعض ما يحتاج إليه .كل فى مجاله. ولايتوفر له ذلك إلا فى إطار المجتمع الإنسانى .

ومن حيث أشكال المجتمع الإنسانى نرى أن المفكر الإسلامى قد قسمه إلى نوعين .مجتمعات إنسانية كاملة وأخرى غير كاملة أو

ناقصة. وتتضمن المجتمعات الكاملة مستويات ثلاثة: هي العليا (أو العظمى) والوسطى. والدنيا. والمستوى الأول يمثل اجتماعات البشر كلهم على وجه الأرض. والمستوى الثانى يمثل اجتماع أهل الأمة الواحدة. أما المستوى الثالث فيشير إلى اجتماع أهل المدينة والمجتمعات الناقصة أو غير الكاملة فتنقسم هى الأخرى إلى ثلاث مستويات: الأولى اجتماع أهل القرية أو الحلة (وهى جزء من المدينة)، والثانى: اجتماع أهل السكة. والثالث: اجتماع أهل المنزل.

والمقصود باجتماع أهل السكة هو تجمع الناس فى الشوارع والأسواق. وأقل أشكال المجتمعات الإنسانية نقصاناً هو اجتماع أهل المنزل. ويظهر أن أساس هذا التقسيم يقوم على مدى ما يمكن أن يتحقق فى كل منها من مظاهر التعاون فى إشباع الحاجات. ومدى حاجة كل منها لغيره أو للجماعات الأخرى، فجماعة المنزل فى حاجة إلى جماعات أهل المدينة. وإذا ما تمكنت المدينة من تكوين وحدة سياسية، فإنها تدخل فى نطاق الجماعات الكاملة فى أولى مراحلها، أما إذا تعاونت عدة مدن وأخذت شكل الأمة فإنها تصبح فى مرتبة أعلى من حيث الكمال.

واجتماع العالم كله فى وحدة سياسية تحت سيطرة سلطة

واحـدة فيمثـل دون شـك أعلـى مسـتويات التجمـع الإنسـانى وأكملهـا والاجتماع الفاضل هو الذى يتعاون فيه الأفراد من أجل السعادة والأمـة الفاضلة هى الأمة التى تتعاون مدنها فى سبيل سعادتها ورقيهـا . لذلـك فقد ركز بحثه على النواحى المثالية التى ينبغى أن تتحقق حتى تصبـح هـذه الأشـكال فاضلـة . مسـتخدماً فـى ذلـك معيـار السـعادة الـذى يوضحه . والمدينة الفاضلة هى تلك التـى يتعـاون أفرادهـا فـى سبيـل إنجاز ما يحقق سعادة كل فرد فيها . وطريق ذلك لايتأتى إلا بـأداء كـل فرد فيها للعمل الذى يتقنه .

وفى أثناء دراسة الفـارابى للمجتمعـات الكاملـة أهمـل النوعـين الأول والثانى منها . وهما اجتماع العالم كله . واجتماع الأمـة . ولم يـدرس من بينها إلا اجتماع العالم على النحو الذى يبتغيه . فوجـه اهتمامـه إلى أبسط أنواع هذه التجمعات وهو المدينة . وقد سبق الرواقيون الفارابى فـى القول بنظرية "الجامعة العالمية " أو "الجمهوريـة العالميـة " تلـك التـى تضم شعوب العالم أجمع وتحكمها هيئـة واحـدة . ويكـون الفـرد فيهـا مواطناً عالمياً . وطنه العالم أجمع . وليس مواطناً فى دولـة بعينهـا . ونحـن لايمكن أن نأخذ على الفارابى إهمالـه فكـرة المجتمـع العـالمى لصعوبـة تحققهـا علميـاً . ولكـن مـا يؤخـذ عليـه هـو إهمالـه النـوع الثـانى مـن

المجتمعات الكاملة . وهو الدولة او الأمة خاصة وقد عاصر هذا المفكر هذا النوع من المجتمعات بل وعاش فيه . ولعله بفكر العالم الاجتماعى قد أدرك دوره فى تحقيق الأهداف المثلى من الاجتماع الإنسانى .

(ب) مقومات المدينة الفاضلة :

يشبه الفارابى المجتمع بالكائن الحى . فالمدينة الفاضلة كالجسم الصحيح تتعاون أعضاؤه فى سبيل حياة الجسد ككل . والمحافظة عليه . وكما أن القلب أهم أعضاء الجسم . ومحور نشاطه . فإن الرئيس بالنسبة للمدينة هو قلبها النابض . ومصدر حياتها . ودعامة نظمها . وأداة سعادتها .

ولما كانت القوى العضوية تتفاوت ، تتفاوت أيضاً وظائف المدينة . وهيئاتها فى أدوارها وقدراتها . فالرئيس فى المقدمة بالنسبة للمدينة يليه أعضاء مسئولون تتفاوت مراكزهم حتى تصل إلى طبقة من يخدمون ولا يخدمون . وهؤلاء هم أبناء الطبقة الدنيا

ومن الشروط الواجب توافرها فى رئيس المدينة الفاضلة . الانحدار من أب واحد . ووحدة الجنس والسلالة . والإشتراك فى اللغة . والتناسل . وتشابه المقومات الخلقية . والسمات الطبيعية والإشتراك فى

البيئة الطبيعية، والذكاء والفطنة، وحسن العبادة وسلامة الحواس، وحب العلم، والتعلم، والبعد عن الشراهة وحب الملذات الدنيوية، وحب الكرامة، والبعد عن الدنيا، والتعفف عن أعراض الدنيا، وحب العدل، وقوةالعزيمة، وهذه الصفات يجب أن تتوافر في رئيس المدينة بالفطرة . ولكن هناك صفات مكتسبة يجب أن يتحلى بها ويحصل عليها ومنها، حب الحكمة والفلسفة، وأن يكون عالماً حافظاً للشرائع . وسننه الأولية والمقدرة على الإستنباط فيما لايحفظه عن أسلافه، وأن يعمل على تقوية بنائه البدى، وتكون لديه القدرة على تعليم الناس، ما يجد من شرائع وما يبتكر من سنن، وإذا لم تتوافر هذه الشروط (الطبيعية) في إنسان بقيت المدينة دون رئيس وعليها أن تتبع سنن الرؤساء السابقين، إلى أن تتوافر لها من يتمتع بهذه الصفات الفطرية، أما إذا لم تتوافر الشروط المكتسبة في واحد، وتوفرت في جماعة فلا بأس من أن يكونوا هم الرؤساء، وأن يتولوا الحكم جماعة .

وفضلاً عما سبق فإن الفارابي يضيف شرطاً روحياً تأثر فيه بأفلاطون، وبعض النزعات الصوفية، وما يقرره الدين الإسلامي وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، فهو يريد رئيس المدينة الفاضلة فيلسوفاً كامل التعقل بما يفيضه الله على عقله المنفعل من حقائق تنتظم جميع

المقولات. بحيث يصبح مطلعا على ما سيكون. عالما بما هو كائن بفضل ما يفيضه الله عليه من اشراق .

ويتعرض الفارابى لأشكال المدينة غير الفاضلة. ويسردها وهى المدينة الجاهلية التى لايعرف أهلها السعادة. ويعتقدون فى أن الخير فى ملذات البدن. والمدينة الضرورية التى يقصد أهلها إلى التكالب على الحاجات المادية. والمدينة البدالة أو التجارية وهى التى ينزع أهلها إلى جمع الثروة واكتنازها. ومدينة الخسة وهى التى يسودها اللهو والعبث. وملذات البدن. ومدينة الكرامة التى يقصد أهلها للصيت والشهرة. ومدينة التغلب التى تسودها الروح الحربية. ومدينة الإباحية التى تنعدم فيها الضوابط الاجتماعية والأخلاقية. والمدينة الفاسقة وهى التى يعرف أهلها صفات المدينة الفاضلة. ولكنهم لايتحلون بها. والمدينة الضالة التى يضل أهلها طريق الدين. ويسيئون تفسير النصوص والعقائد. والمدينة المبتذلة. وهى التى كانت فاضلة. وظهرت فيها تيارات منحرفة. فتبدلت سماتها .

هذه هى أهم الآراء التى عالجها الفارابى فى كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة " وقد كانت مثاراً لإنتقادات عنيفة قللت من شأنها. قللت بالتالى من الدور الذى أسهمت به فى تاريخ الفكر الاجتماعى.

فضلاً عن تجاهل مجتمع الدولة أو الأمة، كما قلنا، نراه يعول بشكل زائد على شخص رئيس المدينة الفاضلة، الأمر الذى يثير كثيراً من التساؤلات حول مدى امكانية توافر هذه الشروط الطبيعية والمكتسبة فى شخص واحد. لقد عاصر الرجل بالفعل نمط الدولة فى ظل الإسلام. وكان نمطاً متطوراً عن غيره ولكنه لم يتناولها بالموضوعية العلمية. التى كان من الممكن أن تجعل دوره فى الفكر الاجتماعى أكثر صدارة ووضوحاً .

ثانياً : ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧م)

يمكن تلمس معظم آراء ابن سينا فى كتابه "الشفاء" . ونجده فيها متأثراً ببعض آراء أفلاطون وأرسطو والفارابى. ورغم ذلك فإن آراءه تعكس إلى حد ما طبيعة العصر الذى عاش فيه وظروفه .

(أ) المجتمع والتفاضل الاجتماعى :

يرى ابن سينا أن هناك اختلافاً جوهرياً بين حياة الإنسان وحياة الحيوان. وحيث يحيا الحيوان حياة غريزية طبيعية. بينما يحيا الإنسان حياة اجتماعية. وتتميز بالتفكير وتحتاج لإشباع حاجات كثيرة. ويتطلب ذلك أن يقوم المجتمع على تعاون أفراده. ويعتمد هذا التعاون على تفاوت كفاءات الأفراد إلى حد بعيد. وهذا التفاوت يعبر

عن حكمة إلهية، وعليه يقوم التخصص وتقسيم العمل الاجتماعى، وتتطور مبادئ التعاون المشترك .

والتفاضل الاجتماعى أيضاً نعمة من الله على البشر، حيث من هذا المنطلق يحافظون على بقائهم، وتنمو حياتهم وتتطور، فلو كان البشر متساوين فى أموالهم وقدراتهم لأدى ذلك إلى فنائهم وانقراضهم، فلو كان الناس فئة واحدة متساوية كأن يكونوا فقراء جميعاً أو أغنياء جميعاً، أو ملوكاً جميعاً لكان التنافس بينهم محدوداً فى إطار ضيق، لكن تفاضلهم واختلافهم يجعل لكل منهم دوراً يرضى عنه ويسهم به فى إستمرار بقاء وتطور الحياة الاجتماعية، لأن اهتماماتهم سوف تتفاضل وتتنوع أيضاً، فالحياة الاجتماعية لاتستقيم بالتشابه، ولكن بالإختلاف والتباين والتفاضل .

(ب) آراؤه فى الدخل والإنفاق :

فى مناقشات ابن سينا للجوانب الاقتصادية للحياة، يحدد مصادر كسب الرزق فى نوعين : الأول ما يئول للإنسان بالوراثة، والثانى ما يكتسبه بجهده وعرقه، ولابد أن تكون مصادر الكسب معروفة فضلاً عن ضرورة كونها مشروعة، فلا يجوز أن يكون مصدر الرزق غير مشروع أولاً بقوة الدين والمجتمع، كالسرقة والغش

وغيرها ولكن ينبغى أن يكون المصدر حلالا . ولوكان ما يدره من الكسب قليلا . أما أوجه الإنفاق فمنها ما هو واجب ومنها ما هو جائز مستحب ولكنه غير واجب . ومنها ما هو غير جائز ويتعلق الأول بنفقات الإنسان وأسرته على وسائل المعيشة المختلفة . والثانى ما ينفقه فى أوجه الخير البر . والنفقات غير الجائزة تتمثل فيما لايجوز أولاً بقوة الدين والمجتمع .

(جـ) الدولة والمدينة :

المدينة عند ابن سينا هى تجمع من الناس يقوم على التعاون المشترك . حيث لايستطيع الإنسان الحياة بمفرده . ويدير شئونه بنفسه ، أوبتدبير أمر أسرته وأهله بدون شريك يعاونه على اشباع حاجياته . فالإنسان كما قال أرسطو – كائن اجتماعى .

وطبقات المدينة عنده تتقسم إلى ثلاثة ، الأولى المديرون . والثانية : الصناع ، والثالثة : الحفظة . وتنظيم هذه الطبقات تنظيما متسلسلا . ويتولى الحاكم تنصيب رئيس لكل فئة من هذه الفئات . وهذا الرئيس بدوره ينصب من هم أقل منه . بحيث ينتهى الأمر إلى إقامة مجتمع عامل يكون لكل فرد فيه منفعه ولايوجد فيه عاطلون .

ويعالج مشكلة البطالة ويتصور أن هذا العلاج يتأتى بنفى العاطلين وقبل نفيهم يقوم الحاكم بتوجيههم نحو احترف مهنة معينة

نافعة ومالم يستجيبوا نفذ عليهم النفى أما الموارد التى تشكل ميزانية المدينة أو كما يسميها " مصادر حالها " فتتمثل فى الضرائب والغرامات التى تفرض على المجرمين والغنائم.

ويتناول ابن سينا بعض المشكلات الاجتماعية التى يبدو أنها كانت سائدة فى عصره وهى القمار والسرقة والربا . والقواده وأشار إلى رذيلتين كفيلتان بهدم بناء المدينة وهما الزنا واللواط فهاتان المشكلتان تغضان البصر عن الزواج . وفى مقابل ذلك ينصح بالزواج ويرى دعم أركانه وتقوية أواصره بحيث لايتم الطلاق لأسباب تافهة .

وهكذا نلتمس أن ابن سينا ربما كان متأثراً باليونان والفارابى فى تصور المدينة على أنها تؤلف دولة . أو وحدة سياسية ولكنه يختلف عن الفارابى فى أنه كان أكثر واقعية فى تصور المدينة ولم يفرط فى المثالية كما فعل الفارابى وكذلك كان يغلب عليه الطابع الدينى والاجتماعى . بينما كان يغلب على الفارابى الطابع الفلسفى .

ثالثا : ابن باجة :

جاء كتاب " تدبير المتوحد " لابن باجة متضمناً لمعظم آرائه الاجتماعية وفيه يتحدث عن المدينة الفاضلة مثل الفارابى وكذلك يتحدث عن الإنسان الفاضل أما الانسان " المتوحد " فهو الانسان الفاضل الذى يعيش فى مدينة غير فاضلة .

(أ) الفرد والمجتمع :

يرى ابن باجة أن الإنسان كائن اجتماعى . ومدنى بطبعه بمعنى أنه يميل للعيش فى مجتمع . ويتحدث عن العزلة إذا كانت مرغوبة لذاتها فهى تصبح مرذولة . أما إذا كانت بهدف اجتناب الفساد والمعصية . فهى خير ولاشك فيه . والدولة هى الوحدة الاجتماعية الكبرى ويعبر عنها– مثل الفارابى – بأنها المدينة والمدينة. إما فاضلة أو فاسدة . ويقصد بمفهوم " تدبير المدينة " سياسة المدينة أو الدولة والتدبير. أو السياسة الفاضلة هى تلك التى تشمل العالم كله.

(ب) المدينة الفاضلة والمدينة الناقصة :

فى المدينة الفاضلة نجد أن قوامها الفضيلة وأنها تحكم العلاقات الاجتماعية بين الأفراد ويتصور أن المدينة الفاضلة بغير حاجة إلى أطباء أو قضاة لأن الغذاء فيها يكون وفيرا فتقوى الأجساد. وتبرأ العلل والأمراض من نفسها دون العلاج فالعناية بالجسد وبنائه على أساس سليم خير واق من الأمراض كذلك فإن العلاقات فيها تقوم على التحاب . وبالتالى لاتقع نزاعات تحتاج لمحاكم أو قضاة فى هذه المدينة يؤدى كل شخص العمل الذى يتقنه رائده فى ذلك خير المدينة بأسرها وهكذا فالانسان الفاضل جزء من المدينة الفاضلة .

والمدن الناقصة هى تلك التى تحتاج لقضاة وأطباء. وكلما ابتعدت عن الكمال زادت هذه الحاجة ويتسم أهل هذه المدن بأنهم يسرفون فى الملذات الجسمية وينتشر بينهم الجهل وعدم التبصر بمايريدون.

(ج) تدبير المتوحد :

يتصادف أن يعيش شخص أو أكثر من الفضلاء فى مدينة غير فاضلة وهؤلاء يطلق عليهم ابن باجة " النوابت" أى يشبههم بالنبات الذى ينمو من تلقاء نفسه . لأن أراؤهم تختلف مع آراء المجتمع الذى يعيشون فيه ، هؤلاء هم الفلاسفة والأطباء والقضاة وهناك ضرورة لوجودهم فى المدينة غير الفاضلة حتى يقتفى الناس أثرهم ويستفيدون من وجودهم ولكنهم يعيشون فيها غرباء وتحول المدينة من مدينة غير فاضلة إلى مدينة فاضلة رهن تزايد عدد " النوابت " فيها .

وهناك قواعد " للسير " أو السلوك الذى يجب أن يتبعه المتوحد إذا عاش فى مدينة غير فاضلة فعليه أن يحافظ على صحته لكى لاتعتل ويحتاج لطبيب وإذا كثر عدد المتوحدين فى مدينة ما فإنه يجب عليهم أن يقيموا فى أحد أجزائها معاً وفى هذه الحالة سوف لايحتاجون للطبيب وكذلك على المتوحد أن يهتم بتغذية نفسه بما ينفع ويتجنب الإسراف فى الطعام وأن يكون معتدلاً فى أمور حياته

الجسدية فالأمور الجسدية ليست غاية . ولكنها وسيلة لإتقان الأعمال العقلية . ويجب أيضا أن تكون صحبته من بين أهل العلم ويبتعد عن المهتمين بحياتهم الجسمانية إلا إذا دعته ضرورة للتعامل معهم وأيضا يجب أن يهتم بالعلوم النظرية لاالعملية . وعليه أن ينصرف عن التصوف لأن التصوف وهم . والتفكير السليم هو الذى يهدف لبلوغ السعادة الحقيقية .

(د) التنشئة الاجتماعية :

يرى ابن باجة أن التنشئة تختلف باختلاف البيئة المنزلية فالمنزل الفاضل الذى يتبع أصول العقل وأحكامه هو ذلك الذى يوجد فى المدينة الفاضلة أما المنزل الناقص فيوجد فى المدينة الناقصة ولكثرة مايشوبه من أمراض وعلل ينتظر أن ينتهى إلى خراب وتفكك.

والإنسان فى مراحل حياته المختلفة يقوم بأدوار مختلفة أيضا وكل دور نتيجة للدور الذى سبقه . وفى نفس الوقت يمهد للدور التالى.وتتنوع الأعمال وفقاً لإختلاف الأدوار تنوعها والفرد الذى يؤدى دوراً حالياً . يجب أن يكون أداة من قبل أن يكون مصابا بالنقص . وأيضاً فرط الذكاء ينطوى على نقص مثله مثل انخفاض مستوى الذكاء فالذكاء المفرط يخمد مبكراً كما تخمد جذوة النار .

والسلوك الإنسانى نوعان: بهيمى، وإنسانى . الأول : هو الذى يقوم على الحاجة والإنفعال . فمثلاً اندفاع الإنســان إلى الطعـام بدافـع الجوع فإنه يكون فى هذه الحالة بهيمى السلوك فالحيوان يتجه للطعام والشراب بدافع غريزى أيضاً . ولاتكون له غايــة بعـد الشـبع . ولكـن غاية الإنسان هى الأعمال الذهنية أو العقلية ، وأيضاً فى حالة الإنفعال نجد الحيوان حينما يضرب يرد ماوقع عليه من اعتداء بطريقة انفعاليـة كالرفس دون تفكير فى عاقبته . أما الإنسان فحينمـا ينفعـل فيتصـرف بعقله ويدرك أو يقدر جيداً نتائج فعله .

وفى الإنسان جزء بهيمى . فهو يمتاز عن الحيوان بأنــه مؤلـف من جزئين . أحدهما عاقل . أما الآخر فهو جسد له حاجات ضرورية لابد من إشباعها . بينما نجد الحيـوان مجـرداً مـن الجـزء الأول وهـو الجانب العقلى . من هنا فإن فعل الإنســان لايمكـن أن يكـون إنسـانياً محضاً . بل يمتزج فيه الجانب البهيمــى ولتـأخذ مثـلاً عمليـة الطعـام فهذه العملية تنظوى على فعلين الأول هو الدافع الطبيعى الموجود عنــد الحيوان ثم الغاية النهائية التى تقوم عند الإنســان علـى إرداة عاقلـة . وهى أنه يقصد من الطعام حفظ حياته . ونشــاطه . لإمكـان الإسـتمرار فى بذل جهود الإنسانية وليحقق السعادة العقلية أو الروحية .

وهكذا يمكن أن نلمح أن آراء ابن باجة فى هذه الناحية تنطوى على بعض الفهم لطبيعة السلوك الإنسانى . ومع ذلك كانت مشوبة بالصبغة المثالية .

تعقيب :

مماسبق يمكن القول بأن معظم جوانب التفكير الاجتماعى عند علماء المسلمين الذين عرضنا لهم . والذين يمثلون الاتجاه الأول . وهو الاتجاه الذى خلط بين الفلسفة . والدين . والفكر الاجتماعى . يمكن القول أن اسهاماتهم فى مجالات علم الاجتماع كانت من قبيل " اليوتوبيا الاجتماعية " والدراسات الفلسفية الاجتماعية التى مهدت لظهور العلم. بينما لم يحدث على أيديهم تقدم حقيقى فى مجالات الدراسة فى هذا العلم . إلى أن جاء القرن الرابع عشر الميلادى . وظهر العلامة العربى عبد الرحمن بن خلدون .الذى بعث هذا النوع من الدراسات بعثاً جديداً على أسس جديدة.فاعتبر بحق أول عالم أنشأ علم الاجتماع.وحدد موضوعه ومنهجه وأرساه على قواعد علمية سليمة.

رابعا : عبد الرحمن بن خـــلدون :

تمهيـــد :

ولد عبد الرحمن بن خلدون فى أول رمضان عـام (٧٣٣هجريـة) ١٧ مايو ١٣٣٢ ميلادية فى تونس . وقـد تلقى تعليمـه بمسجد القبـة حيث حفظ القرآن الكريم . بقراءاته المختلفة (التجويد) ثم درس العلـوم الشـرعية . واللغـة والأدب والبلاغـة هـذا إلى جـانب دراسـته للمنطـق والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية .

وقد تقلد ابن خلدون كثيراً من الوظائف الادارية . وعين عضـواً بالمجلس العلمى بفاس . مع ملك المغرب فى ذلك الوقت السلطان أبـو عنان الذى اختص ابن خلدون بمكارم كثيرة ورفع مكانته حيـث عينـه ضمن كتابه وموقعيه . ومـــع ذلك فقــد كان ابن خلــدون طموحـاً ولم ترضى هذه الوظيفة طموحه .

وجدير بالذكر أن هذا الطمـوح كثـيراً مـاأوقع ابـن خلـدون فـى أزمات ومشكلات . فقد كان يسـعى لتحقيـق مـايريده بكافـة الوسـائل حتى لو تتنافى بعضها مع القيم والأخلاق . فعلى سبيل المثال اشـترك فى دسائس ومؤامرات ضـد السـلطان . أثنـاء وجـوده فـى بلاطـة وفـى إحدى هذه المؤامرات اكتشف أمره وأودع السجن لمدة عامين .

ويقال إن انشغال ابن خلدون المستمر بالرغبة فى الحصول على مزيد من المناصب جعله يشترك بل ويخطط لعدد من المؤامرات التى كانت تجرى ضد حكام الدويلات المغربية . وقد لزمته هذه الصفة فترة طويلة . ولما لم يظفر ابن خلدون بما كان يرجوه ترك المغرب مستقيلاً من وظائفه وهاجر إلى الأندلس . وقوبل بترحاب كبير هناك وكلفه سلطان غرناطة ببعض المهام . وقد نجح فيها ابن خلدون فزادت مكانته وعلا شأنه لكن الوشايات كثرت حوله . وخشى من مغبتها . فترك غرناطة بعد عامين ونصف كانت فترة سعيدة فى حياة ابن خلدون . وانتقل بعد ذلك إلى بجاية وتولى فيها أرقى المناصب لكنه تركها إلى بسكره بعد أن تغير نظام الحكم فى بجاية . ثم إلى تلمسان التى لم يدخلها لأنه عرف بوفاة سلطانها قبل وصوله إليها فاتجه إلى فاس وفى هذه المرة لم يتول مناصبه فى فاس بل تفرغ للقراءة لكنه دخل السجن مرة أخرى عندما تغير نظام الحكم فى فاس . وبعد ذلك بذل جهوداً كبيرة فى العودة إلىتلمسان مزمعاً على هجر العمل بالسياسة والإعتكاف مع أسرته للقراءة والتأليف وبالفعل عاش مع أسرته فى هذا المكان أربعة أعوام بدأ فيها بكتابة مؤلفه الشهير" العبر" وجعل له مقدمه طويلة تحتوى على كثير من أفكاره فى علم العمران أو الاجتماع الإنسانى .

وبعد هذه السنوات الأربع عاد ابن خلدون إلى تونس لإعادة قراءة وتنقيح مؤلفه . وذلك بالإستعانة بالمراجع الموجودة فى تونس وظل فيها أربعة أعوام أخرى . ثم غادر تونس ومنطقة المغرب العربى كلها متوجها إلى مصر حيث وصلها فى عام ٧٨٤هجرية . حيث نزل بالاسكندرية . واتجه للقاهرة بعد شهر وكانت شهرته وأفكاره العلمية قد سبقته للقاهرة . فقوبل فيها بترحاب شديد . وفى الوقت نفسه بهرته القاهرة . واتجه طموحه للتدريس بالأزهر . وبالفعل كان له ماأراد . وقربه سلطان مصر فى ذلك الوقت وعينه بإحدى المدارس لتدريس الفقه المالكى .

ومالبث أن عينه فى منصب قاضى قضاة المالكية . وهو منصب رفيع فى هذا الوقت . وقد تولى هذا المنصب لمدة عام واحد حيث كانت الوشايات قد لاحقته وألصقت به التهم الكاذبة وكان ابن خلدون قد فقد القدرة فى هذا الوقت على الصمود لما أصابه من ألم نتج عن غرق أسرته وزوجته وأولاده جميعاً فى الباخرة التى كانوا يستقلونها من تونس للحاق به فى القاهرة . الأمر الذى جعله زاهدا فى كثير من الأمور الدنيوية .

وفى هذه الفترة كان ابن خلدون لايلبث أن يتولى منصبا فإذا

بالوشايات تطارده لدى السطان . فيعفى من المنصب وينقل لغيره وهكذا عدة مرات حتى توفى بعد هذه الحياة الحافلة فى القاهرة . ودفن فيها .

مراحل النشأة :

- المرحلة الأولى :

هى مرحلة النشأة والتلمذة والتحصيل العلمى وتمتد من ميلاده سنة (٧٣٢) هجرية وحتى (٧٥١) هجرية . أى حوالى عشرين عاماً. وقد قضاها فى مسقط رأسه . تونس . وقضى منها نحو خمسة عشر عاما فى حفظ القرآن الكريم وتجويده بالقراءات والتلمذه على يد الشيوخ وتحصيل العلوم .

- المرحلة الثانية :

هى مرحلة الوظائف الديوانية والسياسية . وتمتد من آواخر عام (٧٥١) هجرية إلى آواخر (٧٧٦) هجرية أى خمسة وعشرين عامــاً هجريا متنقلا بين بلاد المغرب الأدنى والأوسط والأقصى . وبعض بلاد الأندلس . وقد أستأثرت الوظائف الديوانية والسياسية بمعظم وقته وجهوده أثناء هذه المرحلة .

- المرحلة الثالثة :

فهى مرحلة التفرغ للتأليف . وتمتـد مـن آواخـر سـنة (٧٧٦) هجرية إلى آواخر سنة (٧٨٤) هجرية وتستغرق نحو ثمان سنوات قضى نصفها الأول فى قلعة ابن سلامة ، ونصفهـا الأخـير فـى تونـس. وقـد تفرغ فى هذه المرحلة تفرغاً كاملاً للتأليف فأنهى " كتاب العبر وديـوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر . ومن عـاصرهم مـن ذوى السلطان الأكبر " ويطلق الآن على القسم الأول مـن هـذا الكتـاب اسـم " مقدمة ابن خلدون " وهو يشـغل مجلـداً واحـداً مـن سـبعة مجلـدات يشغلها هذا الكتاب ولم يستغرق تأليف هذا القسم فـى وضعـه الأول إلا خمسة أشهر .

- المرحلة الرابعة :

وهى مرحلة وظائف التدريس وتمتد حوالى أربـع وعشـرين سـنة قضاها كلها فى مصر وقد استأثرت وظائف التدريس والقضـــاء بأكبـــر قسط من وقته وجهده فى أثناء هذه المرحلة .

ويعتبر عبد الرحمن بن خلدون واحداً من أكبر مفكـرى عصـره. وقد كان رجل سياسة وحكم إلى جانب كونه عالما ومفكـرا اجتماعيـا . فقد خدم ملوكاً كثيرين . وتنقل فى رحلات وأسفار أتاحت له الإتصال

بشخصيات عديدة . هذا فضلاً عن أنه عاصر حوادث معقدة أثرت فى حياته الخاصة من ناحية وفى دراساته وبحوثه من ناحية أخرى . وكان ابن خلدون متميزاً بالذكاء ودقة الذهن . ودقة الملاحظة . الأمر الذى جعل دراساته وتحليلاته قريبة من حقائق الأمور .

وللأهمية التى يحظى بها فكر ابن خلدون . خصصنا هذا الجزء لاستجلاء جوانب هذا الفكر . وماتضمنه من دراسات جديدة ورائدة فى نفس الوقت . يصفها ويشرحها بدقة وعمق أذهل كثيراً من المفكرين فى الشرق والغرب . لأنه تفوق على مفكرى عصره . كما أن مفكرى الغرب لم يتوصلوا فى الحقيقة إلى هذه الأفكار والدراسات إلا بعد ابن خلدون بوقت طويل .

وقد هاجم ابن خلدون كتب التاريخ السابقة عليه .وانتقد جوانب الضعف فيها . منبهاً إلى الحاجة إلى مؤلف شامل يعرض التاريخ على أساس جديد أو مبادىء أو مناهج جديدة . من أهمها الشرح والتحليل وتفسير أسباب الحوادث والعلاقات العلية بينها وقد دخل بهذا المنهج إلى فكرته عن ضرورة قيام علم جديد هو علم العمران . أو الاجتماع كما نسميه اليوم .

لعل هذه اللمحة التمهيدية السريعة تفيد فى فهم أبعاد شخصية

عبد الرحمن بن خلدون . وتفاعل مع ظروف العصر الذى عاش فيه .
ذلك العصر الذى شهد بداية انكماش الدولة الإسلامية فى الغرب والشرق . وتدهور ثقافتهم وكثير من أمجادهم . وفى الوقت نفسه فإن أفكار أى عالم هى محصلة صادقة لما يسود المجتمع الذى يعيش فيه من ظواهر . وأحداث يتفاعل معها العالم . وينفعل لها . ومن هنا فإن مغامراته السياسية وكثرة رحلاته . وما واجهه قد تركت بصمات واضحة على إنتاجه الفكرى المتنوع . فكان عمله الأساسى هو كتاب " العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من أهل السطان الأكبر"ويقع فى سبعة مجلدات ضخمةتوضح إلى أى مدى كان هذا الرجل موسوعياًمتنوعا . شاملا . لكثير من الفروع القائمة فى علم الاجتماع اليوم .

فقد تناول الظواهر الاجتماعية أو وقائع العمران البشرى التى أكد معظم العلماء والدراسين أن أفكاره فى هذا المجال تمثل البدايات المبكرة لعلم الاجتماع .سابقاً علماء الغرب بما يزيد على أربعة قرون ونصف.

- ***أفكاره الرئيسية :***

شكلت دراسة الظاهرات الاجتماعية جزءاً كبيراً من مقدمة ابن خلدون . وفى الوقت ذاته شكلت موضوع علم الاجتماع وقد أدرك ابن خلدون مدى اتساع نطاق الظواهر الاجتماعية وتنوعها لذلك جاءت معالجاته لها متسمة بالتسلسل والمنطقية والمنهجية وقد دارت أفكاره الأساسية حول السكان والعمران والطبقات والأحوال الاجتماعية .

ولقد كان تركيز ابن خلدون الأساسى ينصب على ظواهر العمران البشرى خاصة مايتعلق منها بالتطور الاجتماعى وذهب إلى أن هذا التطور لايتم مصادفة أو عشوائياً . ولكن له قوانين تحكمه وتفسره لذلك رأى أن هناك ضرورة ملحة لدراسة هذه القوانين أو التوصل إليها . وهذا يفرض من وجهة نظره دراسة المجتمع البشرى فى ذاته . وهذه الدراسة تشكل موضوع علم مستقل هو علم الاجتماع . ومعنى ذلك ان وظيفة علم الاجتماع هى الكشف عن القوانين التى تحكم الظواهر الاجتماعية فى حدوثها وتطورها وأدائها لوظائفها .

وحينما شرع ابن خدون فى وصف وتحديد المنهج الملائم لدراسة الظواهر الاجتماعية بدأ بتوجيه النقد إلى الطرق المنهجية التى استخدمها السابقون عليه .

وأشار إلى أنه ينفرد بقواعد تختلف عنها . ولم يسبقه إليها أحد . فهاجم الطريقة التاريخية الخالصة التى ترتكز على الوصف السطحى المحدود للظواهر الاجتماعية دون محاولة استخلاص شىء عن القوانين التى تحكمها وكثيراً ماهاجم المؤرخين لابتعادهم فى بعض الحالات عن استخدام الطرق العقلية والمنطقية فى العرض التاريخى . وعدم نزاهتهم فى هذا العرض فى كثير من الأحيان .

كذلك هاجم ابن خلدون الطريقة التى يتبعها علماء الأخلاق والسياسة فى تركيزهم على إبراز محاسن معتقدات الأمة وتقاليدها . وأخلاقياتها . وحث الناس على التمسك بها . هذا فضلاً عن هجومه على المناطق أو الطرق المثالية التى كان أفلاطون وأرسطو والفارابى من أبرز أنصارها .

وقد تمثلت الخطوط الرئيسية لفلسفة ابن خلدون الاجتماعية فيما يلى :

أولا : توصله إلى علم الاجتماع وفهم ظواهره :

استخلص ابن خلدون من قراءته للتارخ عموماً والتاريخ الإسلامى بشكل خاص أن الحوادث . والظواهر الاجتماعية لاتسير حسب المصادفات أو وفق إرادة الأفراد وإنما لها قوانين ثابتة لاتقل فى ثباتها عن قوانين الظواهر الأخرى . ومن هذه النقطة كان رفضه لكثير من

الروايات التاريخية التى رأى أنها لاتتفق مع هذه القوانين . كما دعى إلى إتباع طريقة دقيقة لتحقيق الأحداث التاريخية . وهذه الطريقة تتمثل فى البحث نظرياً عما إذا كانت واقعة من الوقائع ممكنة فى ذاتها ، وعن مدى تناقضها مع طبائع الأشياء وعن مدى اتفاقها مع الزمان والمكان الذين حدثت فيهما وقرر ابن خلدون أن دراسة الاجتماع البشرى بهذه الطريقة ينبغى أن تكون موضوعاً لعلم جديد هو علم العمران وأن هذا العلم مستقل بنفسه فإنه له موضوع وهو العمران البشرى . والاجتماع الإنسانى وذو مسائل وهى بيان مايلقه من العوارض والأحوال شأنه فى ذلك شأن العلوم الأخرى .

وبهذه النتيجة كان ابن خلدون أول من قرر بوضوح نشأة علم الاجتماع مع ذلك فإنه ينكر على سابقين عليه قد تعرضوا لموضوعات الدراسة فى هذا العلم ، كما أن موضوعاته أيضاً تدرسها علوم أخرى . ولكنها لم تدرس بنفس الطريقة التى يعيشها أو نفس الغرض الذى يشير إليه وهذه الإشارة تتضمن تميزاً لعلم الاجتماع عن غيره من العلوم الأخرى فعلم أصول الفقه مثلا تعرض للمسائل التشريعية ، وكانت غايته شرح أصولها الفقهية . ولكن لم يذهب أحد من قبله إلى أن المسائل التشريعية مسائل اجتماعية . بالدرجة الأولى . كذلك أمور

أخرى مثل الخلافة ونظم الحكم التىأوضح أنها ظواهـر اجتماعيـة لهـا أسباب عميقة فى طبيعة الاجتماع الإنسانى .

كما يذهب إلى أن الإنسان مدنى بطبعه كما أشـار إلى ذلك مـن قبله أرسطو والفارابى وغيرهم فحاجة الإنسان لغيره تـؤدى إلى التعـاون ومن ثم التضامن الذى هو دعامة المجتمـع . هـذا إضافـة إلى اسـتئناس الإنسان بغيره من أجل إستكمال خواصه النوعية والجنسية. وحاجاتـه الضرورية. وأشار ابن خلدون إلى العوامل التى ترجع إليها نشأة الحياة الاجتماعية وهى فى نظره :

١) الضرورة وهى إما ضرورة اقتصادية لأن الفرد لايمكـن أن يكتفـى ذاتيـا وإمـا ضرورة دفاعية فى مواجهة العدو المشترك المثل فى الحيوانات المتوحشة . الشعور الفطرى . فالإنسان مزود بشـعور فطـرى يدفعـه للإسـتئناس بأخيه الإنسان . وهذا عامل أساسى فى قيام الحياة الإنسانية .

٢) الميل لتحقيق فكرةالجمعية . فلابد هنا من توفـر جـانب الإرادة وإلا سادت الاضطربات والعدوان المستمر فالإرادة الإنسـانية الفرديـة هـى التى تعصـم الفـرد مـن عـدوان الآخريـن وتـؤدى للإسـتقرار والسـلام والأمن .

ونشأة المجتمع تؤدى إلى سيادة نوعيـن مـن الظواهـر : الأول

الظواهر الطبيعية . والثانى الظواهر الاجتماعية . والظواهر الاجتماعية تتأثر بالظواهر الطبيعية . كما تتأثر بالظواهر الاجتماعية الأخرى وقد قارن بين المجتمعات الحيوانية . والبشرية . فالأولى تكون مدفوعة بالفطرة فقط أما الثانية فالدافع إليها الفطرة والعقل معاً .

ثانياً : القواعد المنهجية عند ابن خلدون :

إن من يستعرض مقدمة ابن خلدون لايجد فصلا أو جزءا محددا بعنوان المنهج أو القواعد المنهجية . ومع ذلك فليس من الصعب على القارىء أن يستخلص هذه القواعد بوضوح وإذا ماجمعت فى إطار واحد لشكلت كما فعل بعض الدراسين إطاراً منهجياً فريداً ومتكاملاً . ولعل من الممكن الإشارة إلى هذه القواعد بشىء من الإيجاز .

(أ) الإستزادة من العلم :

يرى ابن خلدون أن هذه القاعدة العامة أساسية لكل من يريد أن يشتغل بالبحث العلمى . والباحث كما يرى ابن خلدون يحتاج إلى عدد متنوع من المعارف العلمية التى تنير له طريق الفهم والتحليل فلابد فى هذه المسألة من الإطلاع فى مجالات السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الشعوب . والسير والأخلاق والعادات . وقياس ذلك كله على شعوب متفرقة لمعرفة مابينها من اتفاق أو اختلاف . ويشير ابن

خلدون إلا أنه طبق هذه القاعدة على نفسه ولولاها مابلغ الفهم والوعى وعمق التحليل الذى ظهر فى آرائه ومؤلفاته.

(ب) التعرف على طبائع العمران البشرى :

وهى قاعدة عامة أخرى ألزم ابن خلدون نفسه بها . فهى تعتمد على محاولة الإحاطة الواسعة بشتى العلوم . والتعمق فيها فقد ميز فى هذا المجال بين التجمعات الإنسانية أو البشرية التى تتعاون فقط من أجل الحصول على ضروريات الحياة . والتجمعات التى تشكل مجتمعا متفاعلاً متغيراً تحكمه نظم السلوك الجمعى . وينخرط أفراده فى جماعات هادفة تخلق لنفسها تراثاً وثقافة . ويرى أن الصورة الأولى مجرد اجتماع عادى يمهد للعمران البشرى المنظم الذى يظهر فيه آثار النظم الاجتماعية . والعلاقات والتفاعلات بين أفراده ويؤسسون أنماط سلوكهم وعاداتهم . أو طبائعهم الخاصة . ويدخل فى هذا الإطار مايصيب المجتمع من تغيرات أشار إليها ابن خلدون على أنها تبدلات وعدم استقرار فى طبائع الأمم والشعوب . فتنتقل من حال إلى حال . وهذا التغير يصيب الأفراد والنظم والدول .

ويدرك ابن خلدون بجلاء أن لكل جماعة أو قرية أو قبيلة أو مدينة طبائعها الخاصة التى تنفرد بها وتتميز عن غيرها من حيث البنية والوظيفة . ومايطرأ عليها من تغير . ويذهب البعض إلى إدراك

ابن خلدون لكـل ذلـك كـان تمهيـداً للنظريـات البنائيـة الوظيفيـة فـى الأنثروبولوجيا ونظريات الفعل الاجتماعى فى علم الاجتماع .

(ج) التشكك كمقدمة لليقين :

يشير ابن خلدون إلى أن الكثير من الروايات يشوبه الكذب وعدم الدقة ، كأن يتملق الـراوى أصحـاب المكانـة ، والمرتبـة العاليـة وميـل النفس لقبول مايلائمها حتى لو كـان كذبـاً . أو أن يسـلم المـرء بصـدق ناقل الراوية نتيجة الثقة فيه ، فيقبل مايقوله دون تمحيص كذلك فقـد يكون ناقل الخبر قد فهم ماسمع على نحو غير سليم . وإضافة إلى ذلك فقد يؤدى الجهل بالقوانين الطبيعية إلى التصديق الأعمى . وهذا كثـيراً مايؤدى إلى وقوع المؤرخين فى الخطأ .

ومن هنا يؤكد ابن خلدون على أن التشكك يفتح الباب لمراجعة الأخبار . والروايات والتدقيق فيها . ومطابقاتها علـى طبـائع الأشـياء وعلى القوانين الطبيعية . وقوانين العمران . حتى يتبين ماقد يشـوبها من خطأ أو كذب . أو عدم دقـة . أو عـدم فهـم ولعـل الحـرص علـى تنقية التاريخ من الشوائب . قـد أدى بـابن خلـدون للتوصـل إلى علمـه الجديد. ذى القوانين الجديدة . والفهم الجديد . ألاوهو علم العمران.

(د) التحليل العقلى :

وتلك إحدى القواعد التى أكد عليها ابن خلدون فى كتاباته فهو يرى أن العقل يتحكم فى رفض الروايات والأخبار التاريخية أو قبولها. وقد رفض ابن خلدون كثيراً من الروايات لأنها لم تستقم مع منطق التحليل العقلى . فهناك روايات إذا أمعنا فيها النظر والتأمل العقلى نجد أنه من العسير القبول بها أو بما احتوت عليه من أخبار وتفاصيل. ومن السهل على العقل الذى تسلح بالمبادىء السابقة أن يتوصل إلى قبول ماهو ملائم . ورفض ماليس كذلك من الأخبار والسير.

(هـ) التأكد الحسى :

إلى جانب التحليل والتأكد العقلى . يشير ابن خلدون إلى التحقق بالمشاهدة أو الملاحظة الحسية . وقد اعتمد ابن خلدون على منهج الملاحظة اعتماداً كبيراً فى الكثير من أعماله ويوصى بقياس الغائب عن الملاحظة بالمشاهد منها .

(و) منطق المقارنة :

لعل المقارنة من بين المناهج الأساسية فى دراسات علم الاجتماع فهى تساعد فى الكشف عن أوجه الشبه والإختلاف ثم الوصول إلى القوانين والمبادىء التى تحكم الظواهر الاجتماعية . وقد ظهر أثرهذا

المنهج فى دراسات ابن خلدون للفروق بين المجتمع أو العمران الحضرى . والبدوى

(ز) منطق التجريب :

وقد كان التأكيد على التجريب من الإسهامات التى نقلت علم الاجتماع من ميدان الفلسفة الاجتماعية إلى ميدان العلم . وقد سبق بذلك الإكتشافات والتطورات العلمية بوقت كبير . فكثيراً ماأكد على أهمية المران والتدريب لاكتساب المهارات العلمية والصنائع والمعاملات فضلاً . عن أنه لمس جوانب نفسية كثيرة فى هذا المجال .

ولو أننا أضفنا هذه القاعدة المنهجية لقاعدة الملاحظة الحسية لتبين لنا كيف تلمس ابن خلدون الطريق لدعائم أكيدة واضحة للمنهج العلمى فى علم العمران أو الاجتماع . الأمر الذى مكنه من إستقراء كثير من الشواهد العامة فى المجتمعات الإنسانية هذه وغيرها من القواعد المنهجية نجدها فى ثنايامعالجات ابن خلدون لمسائل علم العمران . فاهتمامه بالتاريخ حفزه للعمل على ترسيخ قواعد التحليل التاريخى السليم .واهتمامه بالظواهر الاجتماعية حفزه للتأكيد على المشاهدة والمقارنة والتجريب . وفهم الوقائع فى إطارها الزمنى الخاص. بدلاً من فهمها فى ضوء أحداث سبقت وانقضى زمانها .

ثالثاً : موضوع علم العمران عند ابن خلدون :

ذهب ابن خلدون إلى أن موضوع هذا العلم يتمثل فى دراسة الاجتماع الإنسانى وما ينشأ عن هذا الاجتماع من ظواهر . أو وقائع وقد انقسم الموضوع عنده إلى قسمين رئيسين :

الأول : ويهتم بدراسة بنية المجتمع . وهو مايعرف حديثاً باسم المورفولوجيا الاجتماعية . ويعرف لدى علماء الاجتماع الأمريكيين باسم " الأيكولوجيا الإنسانية " ويدرس هذا القسم ظواهر البدو والحضر . وأصول المدنيات القديمة وتوزيع الأفراد على المساحة التى يشغلونها . وظواهر الهجرة والكثافة والتخلخل . ودرس فى هذا المجال أثر البيئة الجغرافية على شئون الاجتماع الإنسانى . ولكنه لم يكن متطرفاً إلى حد القول بالحتميةالبيئية أوالجغرافية بل أنه درس آثارها على مايوجد فى المجتمع من نظم . وظواهر . وعادات . سابقاً بذلك علماء المورفولوجيا والأيكولوجيا على حد سواء فنجده يشير إلى العلاقة القائمة بين درجة الحرارة وبين كثافة السكان وانتشار العمران . ويقول أن المناطق المعتدلة سكانها أعدل أجساماً . وألواناً وأخلاقاً . وأدياناً ويميلون إلى الإعتدال فى سلوكهم

ومساكنهم وملابسهم وهو بطبيعة الحال قد توصل إلى هذه الملاحظات باستخدام الاستقراء والملاحظة والمقارنة التى أشرنا إليها من قبل .

أما الثانى : فيهتم بدراسة النظم العمرانية التى تختلف باختلاف النشاط العمرانى . وهو هنا يقسم هذه النظم إلى سياسية واقتصادية وتربوية وعائلية ودينية . هذا ولاتزال هذه النظم وغير مماأشار إليه ابن خلدون تشكل محاور هامة للبحث والدراسة فى علم الاجتماع .

كذلك فإن التركيز على هذه الموضوعات لابد أن تكون له أغراض محددة . وهنا يشير ابن خلدون إلى أن أغراض هذا العلم هى الأخرى ذات شقين .

الأول : يتضمن الأغراض المباشرة . وتلك تتمثل فى الوقوف على طبيعة الظواهر الاجتماعية والقوانين التى تحكمها وذلك شأن سائر العلوم الأخرى .

الثانى: ويتضمن الأغراض غير المباشرة . والتى تتمثل فى عصمة المؤرخين من الوقوع فى الأخطاء وقبول الحقائق التى تتعارض مع القوانين الأساسية للعمران . وهذه أيضاً أغراض نبيلة فى

حد ذاتهـا . ولعـل المتتبـع للتطـورات التـى حدثـت فـى علـم التاريخ يجد أنها سارت فى هذا الإتجاه .

رابعاً : نتائج الدراسة فى علم العمران :

توصل ابن خلدون فى دراسته لعلم العمران إلى عدد من النتائج من أهمها :

[أ]إن الحياة الاجتماعية ومـايعرض فيهـا مـن حضـارات ماديـة عقليـة تشكل الموضوع الأساسى لعلم الاجتماع . أو العمران وقـد دفعـة هـذا الفهـم إلى الإهتمـام بدراسـة أعمـال النـاس وأسـلوبهم فـى تحصيـل أقواتهم وأسباب تنازعهم . ومايتوصلون إليه مـن قوانـين يخضعـون لها أو يحتكمون لها فى هذا التنازع .

[ب]إن المجتمع أمر ضرورى وطبيعى . ذلك أن الإنسان مدنى بطبعـه ولايقدر على الحياة بمعزل عن المجتمع . فالأفراد فى حاجة دائمـة للتعاون من أجل اشباع حاجاتهم الدفاعية والاقتصادية .

[ج] كذلك فـإن للسلطة دور بـارز فـى المحافظـة علـى بقـاء المجتمـع واستمراراه ويرى أن رد العدوان . وتحقيق التوازن مـن أهـم أهـداف السلطة فى المجتمع .

[د] التطور من أبرز خصائص المجتمعات الإنسانية .وقد أتاحت دراسـة التاريخ الإسلامى ،وتاريخ الشعوب الشرقية أن يتمكن ابن خلدون من

رصد نشأتها وتطورها واضمحلالها. الأمر الذى استخلص منه قانون الأطوار الثلاثة. طور النشأة والتكوين. لطورالنضج والإكتمال. وأخيرا طور الهرم والشيخوخة التى تعقبها الوفاة. ومن ثم يقوم مجتمع آخر على أنقاض المجتمع الذى اضمحل .

[هـ] هناك فروق بين المجتمع البدوى والحضرى. فالبدوى يقوم على العصبية التى تعتبر هى والفضيلة. والدعوة الدينية عوامل فعالة فى تطور هذا المجتمع. هذا على حين أن الإنفراد بالمجد. والركون للدعة والإنتفاع بثمار الحضارة هى من خصائص المجتمع الحضرى. وهذه كلها خصائص تساعد على دخول الفساد الاقتصادى والروحى وغيرها .

نقد علم العمران عند ابن خلدون :

على الرغم من تطور أفكار عبد الرحمن بن خلدون بمقياس عصره إلا أن الأمر لايسلم من توجيه بعض الإنتقادات لإسهاماته فى مجال علم العمران. وهذا أمر طبيعى فى مجال الدراسات الإنسانيةومن بين الإنتقادات التى وجهت إليه ما يلى :

أولاً :

ادعى البعض أن فكرة المجتمع لم تكن واضحة لدى ابن خلدون الأمر الذى جعله يرجع الكثير من الظواهر المؤثرة فى المجتمع إلى عوامل بيولوجية. ومع ذلك فإنه يمكن الرد على هذه الدعاوى بأن الرجل اجتهد لتقريب أفكاره بأمثلة حية استقرأها من رحلاته العديدة، ومشاهداته المتنوعة. ومع هذا فإن الرواد المحدثين لعلم الاجتماع قد عادوا لكثير من هذه الأفكار ورددوها بعده بما يصل إلى خمسة قرون .

ثانياً :

فى مجال السلطة السياسية، يرى البعض أنه قد شغل بها إلى حد كبير، وجعل منها عاملاً أساسياً فى تطور المجتمع الإنسانى، وانتقاله من حالة لأخرى، ولعل ذلك كان مدخلاً لاتهامه بالميل للمحافظة على الأوضاع السائدة، وتسخير العلم الجديد لهذه المهمة، بدلاً من جعله علماً يسهم فى التغير الاجتماعى .

ثالثاً :

من الإنتقادات التى وجهت لابن خلدون أنه وضع قانوناً ثابتاً للتطور، وهذا القانون شبيه بقوانين الكائنات الحية فى العالم

الطبيعي. ومن هنا قيل أنه كان حسي النزعة. ومع ذلك فإن هناك آخرون يردون على ذلك بأن الرجل باعتباره عالماً مسلماً رأى أن كافة الكائنات الحية تولد وتنشأ وتنضج، ثم تضمحل وتفنى. وكان يدرك أن قانون الفناء أذلى، وأبدى، فنقله إلى مجال العمران البشرى متأثراً فى ذلك بما أصاب بعض الإمبراطوريات السابقة من ظهور فازدهار فاضمحلال. فضلاً على أنه عاصر بداية انكماش الإمبراطورية الإسلامية. وهذه كلها كان لابد أن تترك تأثيرها على أفكاره .

رابعاً :

على أن النقد الذى ينطوى على كثير من الصدق يتمثل فى أن ابن خلدون لم يحسن استغلال وتطبيق قواعده المنهجية. فقد اقتصر استقراؤه على الأمم التى لاحظها. وهى شعوب العرب والبربر. خاصة فى شمال أفريقيا. وما كان يسود هذه الدويلات فى هذا الوقت لايصلح للتعميم أو استخلاص قانون عام ثابت ينطبق على المجتمعات الإنسانية بأسرها. ولعل هذه الإنتقادات جميعاً سواء ما تم تفنيده منها. أو ما وافقنا عليه. لاتقلل من شأن هذا الرائد العظيم. كما لاتقلل من دوره الرائد فى تأسيس علم جديد، ووضعه على الطريق الصحيح. كما أن الإنتقادات التى وجهت إلى مسلكه الشخصى فيما

يتصل بعلاقاته بالسلطة. وطموحه السياسى لاتقلل أيضا من شأنه كمفكر موسوعى تناول جميع جوانب الحياة الإنسانية وظواهرها الاجتماعية .

ففى هذه الناحية كان بشراً ينطبق عليه ما ينطبق على غيره من سمات الضوء. وسمات الظل معاً ولو أنه كان لابن خلدون تلاميذ وأتباع طوروا دراساته وحملوا لواء نظرياته من بعده كما هو الحال فى الرواد المحدثين لكان لهذا العلم شأن آخر اليوم. لكن ما حدث أن الدراسات فى مجاله عادت بعد وفاته للصبغة الفلسفية المثالية التى كانت سائدة من قبله. ولم يتغير هذا الوضع إلا بعد أربعة قرون ونصف تقريبا. حينما ظهر العالم الفرنسى أوجست كونت .

الفصل السابع

رواد علم الاجتماع فى العالم الغربى

محتويات الفصل السابع

أولاً : فى فرنسا [كونت ، دوركيم].

ثانيـاً : فى بريطانيا [سبنسر ، مل ، هوبهاوس ، توينبى].

ثالثـاً : فى المانيا [تونيز ، زيمل ، فيبر] .

رابعاً : فى أمريكا [سوروكين ، بارسونز ، ميلز ، ميرتون].

أ - فى فرنسا

كما ذكرنا من قبل كان " ابن خلدون " صاحب فضل كبير فى نشأة علم الاجتماع ولكن دراساته قد أهملت لوقت . وقد ظهرت بعض المدارس الاجتماعية التى تلت " بن خلدون " وسبقت التمهيد لقيام علم الاجتماع فى العصر الحديث . نذكر منها على سبيل المثال دراسات " ميكافيللى " . ثم ظهرت أيضاً ألوان من التفكير المثالى فى القرن السادس عشر والسابع عشر عرف أصحابه بأتباع مدرسة " اليوتوبيا الاجتماعية " الذين اهتموا بما يجب أن يكون عليه المجتمع . وما يجب أن تكون عليه النظم الاجتماعية ، وكانت أهدافهم عملية لذلك لم يهتموا بشرح وتحليل ماهو كائن فى المجتمع . ومن بينهم " توماس مور " (Thoms More) وهو عالم إنجليزى . والعالم الإيطالى " كسبانيلا " (Companella) " وفرنسيس بيكون " (F. Bacon) وهو فيلسوف إنجليزى . والمفكر الفرنسى " فينيلون " (Fenelon) .

وهؤلاء العلماء ذهبوا إلى أفكار لاسبيل إلى تحقيقها ولكنهم رغم ذلك تعرضوا بالنقد الشديد لألوان الظلم الاجتماعى والسياسى السائدة فى المجتمع فى أوقاتهم.وتدلنا أبحاثهم على أن علم الاجتماع لم يتقدم على أيديهم ، بل إرتد إلى ما يشبه التفكير الاجتماعى عند اليونان .

ورغم أنهم نادوا ببعض الأفكار الإشتراكية إلا أن هذه الأفكار عادت للظهور بعد ذلك بقرنين من الزمان بصورة علمية صحيحة .ولا يهمنا إستعراض أفكار هؤلاء العلماء وإنما اكتفينا بالإشارة إليهم .

أما المدارس الاجتماعية التى مهدت لظهور علم الاجتماع فى العصر الحديث فهى مدرسة التعاقد الاجتماعى Social Contract ومدرستى فلسفة القانون . وفلسفة التاريخ وفلسفة الاقتصاد والاحصاء. ومدرسة الإتجاهات الإشتراكية العلمية . ومع ذلك نتناول فى هذا الفصل أعمال كل من " أوجست كومت " A. Commte " واميل دوركيم " E.Durkheim.

أولا : أوجست كومت (١٧٩٨-١٨٥٧) :

ينسب كثير من المؤرخين إلى " أوجست كومت " أنه أول من أقام علم الاجتماع الحديث وقد أعلن هذا العالم فى القرن التاسع عشر ضرورة قيام هذا العلم من جديد بعد أن ظلت بحوث " ابن خلدون " مهملة لفترة طويلة . وكان كومت أول من أعاد إحياء الدعوة لقيام هذا العلم . وقد عالج مسائل على درجة كبيرة من الأهمية .

أولا : أهمية علم الاجتماع :

كان كومت يرغب فى اصلاح المجتمع . وإنقاذه من مظاهر الفوضى التى تفشت فيه وقد ذهب إلى أن الفلسفة هى وسيلة تساعدنا للوصول إلى غايات عملية فى ميادين لابد أن يسبقه تنظيم عقلى للآراء ومنهج للبحث وطرق التفكير . لذلك رأى أن عملية الإصلاح تحتاج لجهود شاقة تنظمها فلسفة جديدة .

وحينما لاحظ المجتمع وما يسوده فى عصره رأى كثيرا من الفوضى العقلية والسياسية والتيارات المتناقضة . لذلك فإن هناك حاجة لوحدة عقلية أو اتفاق عقلى . فهناك الأسلوب العلمى الوضعى الذى صاحب التقدم العلمى والدراسات الكونية والطبيعية والبيولوجية وهناك الأسلوب الميتافيزيقى فى التفكير . وهو ما يتعلق بظواهر الإنسان والمجتمع .

لذلك رأى أن الأسلوب الأمثل للتغلب على هذا التناقض يتمثل فى ثلاثة بدائل هى :-

(١)التوفيق بين التفكير الوضعى : والميتافيزيقى دون تناقض .

(٢)تعميم وحدة المعرفة الوضعية عن طريق تطبيق المنهج الوضعى فى دراسة كل ظواهر الكون .

(٣)إخضاع جميع العلوم للمنهج الدينى والفلسفى . وجعل منه منهجا

أساسياً فى كل العقول.

وقد رأى أنه لا سبيل للتوفيق بين التفكيــر الوضعــى والتفكيـر الميتـافيزيقى لأنهـا متناقضـان لأن الأول يقـوم علــى المعرفــة الحســية الملموسة . والآخر على المعرفة العقلية الفلسفية . أما البديل الثالث وهو القضاء على الطريقة الوضعية وتكريس فهم الظواهــر فـى ضـوء الطريقـة الدينية والميتافيزيقية . فهو بديل يحقق لنا وحدة المعرفة ولكن لا يمكن تحقيقه عمليا . لأننا لايمكن أن نلغى المكتشـفات العمليـة التـى قـامت على اساس المعرفة الوضعية . والإعتماد على هذا الأسلوب يفرض علينا إلغاء الطريقة الوضعية وتجميد المعرفة الإنسانية عند حد معين .

ولما كان هذان البديلان يستحيل تنفيذهما فإنه يبقـى ان نجعـل التفكير الوضعى منهجا عاما.ونقضى علــى مظـاهر التفكـير الميتـافيزيقى فيمـا عـدا ظواهـر المجتمـع.وهـذه يجـب أن نفهمهـا علـى وضعهـا علــى أساسين:

الأول: أن تكـون هـذه الظواهـر خاضعـــة لقوانـــين ولا تســير حســب المصادفات . ففهـم الظـاهرة الاجتماعيـة علـى أسـاس وضعـى يعنى البحث عن القوانين التى تحكمها .

الثانى: أن يستطيع الأفراد الوقوف على هذه القوانين لكــى يفهمـوا

الظواهر وفق قوانينها وأوضاعها .

والشرط الأول متحقق بالفعل في الظواهر الاجتماعية . فالمجتمع جزء من الطبيعة الكلية . وهذه الطبيعة تخضع لقوانين ثابتة. أما الأساس الثانى وهو معرفة الناس لهذه القوانين فهو رهن يتحقق دراسات علمية فى هذا المجال . ولن يتحقق ذلك إلا بقيام علم الاجتماع الذى يدرس ظواهر الاجتماع دراسة وضعية تحليلية أو بمعنى آخر القضاء على الفوضى العقلية والخلقية السائدة . وعلى هذا الأساس فإن لهذا العلم أهمية تفوق سائر العلوم الأخرى . لأن العلوم الأخرى مجرد تمهيد له ، وأن له غايات نبيلة . وقد سماه فى البداية علم الطبيعة الاجتماعية أو الفيزيقا الاجتماعية ، ثم عاد وسماه علم الاجتماع كما سبق أن أوضحنا .

وقد عرف الظواهر الطبيعية . والظواهر التى تدرسها العلوم الأخرى ولكنه لم يحدد الظاهرة الاجتماعية أو موضوع دراسة علم الاجتماع لأنه فى نظره كما قلنا يدرس كل الظواهر التى لا تدرسها العلوم الأخرى .

ثانيا : موضوع علم الاجتماع :

قسم " كومت " موضوعات علم الاجتماع إلى قسمين رئيسيين هما :-

الاستاتيكا الاجتماعية : وهى دراسة المجتمعات الإنسانية فى حالة استقرارها وبإعتبارها ثابتة فى فترة معينة من تاريخها . ويدرس كذلك المجتمع الإنسانى فى تفاصيلة وجزئياته . لأن المجتمع عنده يتضمن عدة نظم سياسية ، وقضائية وخلقية ، ودينية . والاستاتيكا تدرس هذه التظم من حيث مكوناتها ووظائفها وذلك للكشف عن القوانين التى تحكم الترابط أو التضامن بينها .

والثانى هو الديناميكا الاجتماعية : وموضوعه دراسة قوانين الحركة الاجتماعية والسير الآلى للمجتمعات . والكشف عن درجة تقدم الإنسانسة وتطورها . أى أنه يدرس الاجتماع الإنسانى فى جملته أيضا. ولكن من ناحية تطورة ، وإنتقاله من حال إلى حال . وعند دراسته للديناميكا الاجتماعية إهتدى " كومت" إلى نظريتين أساسيتين هما :

نظريته عن قانون الأطوار الثلاثة ، والثانى نظريته فى تقدم الإنسانية.

قانون الأطوار الثلاثة :

يتلخص هذا القانون فى أن التفكير الإنسانى إنتقل فى إدراكه لفروع الإنسانية من الطور أو الدور الثيولوجى (الدينى اللاهوتى) إلى الدور الميتافيزيقى ، إلى الدور العلمى أو الوضعى . ففى الحالة الأولى

كـان العقـل الإنسـانى يفسـر الظواهـر تفسـيراً دينيـا عـن طريـق نسـبة الحوادث إلى قوى خارجة عن هـذه الظواهـر نفسـها كالآلهـه والأرواح والشياطين وغيرها . وفى الحالة الثانية كان يفسر الظواهر بنسـبتها إلى معانى مجردة . أو علل أولى لا ينوى على إثباتها . فالنمو فى النبـات مثلا كان يرجعه إلى روح النبات . أما الفهـم العلمـى أو الطـور الثـالث فهو تفسير الظواهر بنسبتها إلى قوانين تحكمها وأسـباب مباشـرة تؤثـر فيها . مثل العوامل الطبيعية . والطقس والقوانين الكيمائية وغيرها .

ويدلل على صدق قانونه بالرجوع إلى تـاريخ العلـوم مـن ناحيـة وتاريخ الإنسانية من ناحيـة أخـرى . وهـذا يكشـف عـن مـرور عمليـة تفسير الظواهر بالمراحل والأدوار التى ذكرها وذهب إلى أن هـذا القـانون هـو قـانون عـام للتطـور الاجتمـاعى . وليـس خاصـا بتطـــور التفكـــير فحسب. فأساس كل معرفة هو التفكير . وبالتالى فإن قانونه ينسـحب إلى كـافــة مجالات المعرفة الإنسانية .

(أ) نظرية التقدم :

تعنى كلمة تقدم عند " كومت " السير الاجتمـاعى نحـو هـدف معـين لا يمكـن الوصـول إليـه إلا بعـد المـرور بـأدوار ثلاثـة ضروريـة ومحددة. أى أن الحركة الاجتماعية لابد أن تكـون محـددة بقوانـين .

وكان هذه الفهم جديداً بالنسبة لمن سبقوه الذين فهموا الحركة الاجتماعية بإعتبارها ذبذبات أو إضطرابات ولذلك كان يسخر فى هذه الناحية . والتقدم عنده يبدو فى مظهرين : مادى . واجتماعى. وغالباً ما يكون الأول أسرع . وأوضح .

الأول يكون تحسنا فى حالتنا الاجتماعية . أما الثانى فيكون تحسنا فى طبيعتنا الاجتماعية والتطور كما يراه غالباً ما يكون مصحوباً بتحسن وتقدم مطرد . ولكنه فى إتجاهه نحو الكمال يكون بطيئاً وتتخلله صعاب وعقبات كثيرة . وتدخل النشاط قد يعجل بالحركة نحو التقدم . لأنه يعجل بظهور مراحل لم تكن لتظهر لولا تدخل النشاط الإنسانى أو نشاط الحكومة بإعتبارها تمثل المجتمع .

وفى مجال دراسته عن الاستاتيكا الاجتماعية توصل إلى مجموعة حقائق منها أن الإنسان يميل إلى الاجتماع ميلا غريزيا وحالة الاجتماع هى الحالة الطبيعية للإنسان . وهذه الرغبة الغريزية مستقلة تماماً عن الرغبات الفردية . والأغراض الخاصة . ومن هنا هاجم نظرية العقد الاجتماعى بإعتبارها تصور الإنسان يميل للاجتماع عن قصد وروية ولكنه يرى أن التعاقد ليس سبباً فى الاجتماع ولكنه نتيجة من نتائجة . وثمره من ثماره .

وقد توصل " كومت" إلى أن العناصر الأساسية للمجتمع هى الفرد . والأسرة . والدولة . ومع ذلك فالفرد فى ذاته ليس قوة اجتماعية مستقلة . لأن قوته تستمد من تضامنه وتعاونه مع قرانه . ولكنها تزول إذا بقى وحيداً منعزلاً عن غيره . كذلك فإن قوة الفرد لا تظهر إلا بتفاعلها مع غيرها . وهى وليدة الضمير الجمعى . وإمتزاج العقول فى الفكر والعمل . والأسرة هى الخلية الأولى فى تركيب المجتمع . وهى نتاج من نتائج الحياة الاجتماعية . وقد أيد " كومت" مبدأ خضوع المرأة للرجل . وكذلك قرر سموها عن الرجل فى النواحى العاطفية والوجدانية الضرورية للإستقرار فى حياة الأسرة . وقد أكد على دور الزواج فى الحياة الاجتماعية . وأن ما يهدم الزواج . يهدد النظام الطبيعى للأسرة ومن هنا فإنه يعارض فكرة الطلاق لأنها تؤدى إلى الاخلال بنظام الحياة . الأسرية وحياة المجتمع والأسرة عند اتحاد له طبيعة أخلاقية تتمثل فى التحاب والتعاطف . والتوعية بالحقوق والواجبات . وتربية الأطفال وغرس الروح الدينية.

ومن دراسة الأسرة تطرق " كومت" إلى دراسة المجتمع ككل . فهو كيان معقد يسوده التضامن والتعاون وهو تجمع ذو طبيعة عقلية . وله وظيفة أخلاقية تابعة لوظيفته العقلية ولاحقة لها . والتضامن

الاجتماعي لا يتحقق في رأيه إلا إذا إهتم المجتمع بثلاثة نظم اجتماعية أساسية هم نظام التربية والتعليم ، ونظام الأسرة . والنظام السياسي في الدولة .

فيرى أن التعليم يجب أن يبتعد عن الدراسات النظرية المجردة. بل يتجه للدراسات العلمية الوضعية عن طريق التعرف على حقائق العلوم الوضعية . بعيداً عن الجمود النظري ويؤهل الأفراد لما يتطلبه المجتمع من وظائف جديدة . وإصلاح نظام الأسرة يقوم على أساس نظم الأسرة المسيحية خاصة النظم الكاثوليكية . ويؤكد على وظيفة الأسرة الأخلاقية والتربوية . وإصلاح الدولة أمر صعب من وجهه نظره، لأن الحكومة هي أولى الوظائف الاجتماعية . وتعكس مدى تقدم المجتمع . وهذا التقدم يعتمد على نظام هذه الهيئة . وانقياد الأفراد لها . ومدى سلطتها عليهم ، ووظيفة الحكومة يجب أن تقوم على تحقيق مبدأ التضامن والتعاون في المجتمع .

ودرس "كومت" الظواهر الاقتصادية . ونقد جميع النظريات الاقتصادية السائدة في عصره فقد عارض أراء مدرسة الفيزيوقراط الذين يذهبون إلى ضرورة إشاعة الحرية الاقتصادية ونادى بضرورة التدخل من جانب الحكومة لإقامة توازن بين أهداف الفرد بما يجب أن تكون

عليـه المعـاملات الاجتماعيـة . كمـا هـاجم الاشـــتراكيين والشـــيوعيين واعـترف بـأنهم توصلـوا لبعـض الحقـائق بوجـوب تدخـل الدولـة فـي العلاقات الاقتصادية وتنظيم والإشـراف علـى وسـائل الإنتـاج . ولكنـه إختلف معهم فى دعوتهم لإلغاء الملكية الفردية . والقضاء علـى جهـود الأفراد الخاصة. فالملكية عنده ظاهرة اجتماعية . والقضاء عليها خروج على نظم المجتمع . والغاء لشخصية الفرد وتضييق لدائرة نشاطه .

وقد أدى إهتمام "كومـت" بالناحيـة الأخلاقيـة إلى أن دعـى إلى قيـام علـم وضعـى هـو علـم الأخـلاق بهـدف الكشـف عـن القوانـين الأخلاقية. لأن لهذا أهمية اجتماعية كبـيرة مـن حيـث أنـه يتيـح لنـا اختيار أحسن الوسـائل التـى تسـاعدنا علـى تغيـير الظواهـر وتكييفهـا للظروف الاجتماعية . وعلم الأخلاق الوضعى لايمكن أن يقوم إلا بقيـام علم الاجتماع أولا . لأن علم الاجتماع يمد هذا العلم الجديـد بالمبـادىء العامة. ومناهج البحث والموضوعات الأساسية التى يجب أن يعالجها.

هـذا وقـد درس "كومـت" الجوانـب الدينيـة فـي المجتمـع . فالمجتمع فى حاجة إلى مجموعة من العقائد المنظمة التـى يتفـق عليهـا الأفراد جميعاً ويتأتى هذا الدين عن طريـق الغـاء الديانـات الأخـرى .

وصهرها فى دين واحد جديد . وهذا ما جعلـه يذهب إلى تقرير ديـن جديد هو " الدين الوضعى " الذى يدور حول عبادة الإنسانية كفكـرة . تحل عنده محل فكـرة " الله " فـى الديانـات الأخـرى . ورسم لهـذه الديانة طقوساً دعـى كـل الأفـراد للإتجـاه إليهـا بالعبـادة والتقديـس . ووظيفة هذه الديانه عنده تتمثـل فـى تحقيـق وحـدة دينيـة عاليـة لأن الأفراد سوف يتجهون بقلوبهـم وعقولهـم نحـو فكـرة واحـدة . ومركـز واحد فتبطل الشرور والأثام وتنتهى المنازعـات والحـروب ويعـم السـلام والتحاب .

ثالثا : إسهامات " أوجست كومت " :

كان لكومت مكانة بارزة بين علماء عصره لما تركه من ثروة فلسفية وإنتاج خصب . وبفضل ما تركه من تجديد من مناهج البحث. وكذلك فلقد فتح آفافا جديدة للدراسة فى هذا العلـم . وقـد لخـص لنـا أهم إسهاماته فى كتابه " دروس فى الفلسفة الوضعية " منها :-

(١)أنه كان أول من كشف عن مبدأ الوحـدة العقليـة الـذى لم يكتشـفه أحد من قبله . فقد لجأ النـاس مـن قبـل إلى تفسـير الظواهـر بفعـل الشياطين والآلهـه وغيرهـا . كذلـك توصـل " كومـت" فـى الناحيـة الأخلاقية إلى وجوب إتفاق العقول على المشاكل النظرية التى تتعلـق

بعلاقات الأفراد ببعضهم وعلاقاتهم بالإنسانية . واتفاق العقــول هنـا يشكل أساساً لوضع تربية مشتركة يساهم فيها كل أفراد المجتمع .

(٢)دعى إلى هدم النظام السياسى السائد خاصة فى المجتمع الفرنســى. وإحلال نظام ثابت محله يحقـق فكرتــى التقـدم والنظـام . فهاتـان الفكرتان مرتبطتان أشد الإرتباط .

(٣)فى الناحية الجمالية دعى إلى قيام فن جديد على غــرار فـن إحيـاء القديم . أو فن العصور الوسطى . ولكن يختلف فى إرتباطه بالعقائد والأفكار القائمة مع حياة المجتمع الوضعى ونظمه ومبادئه .

(٤)ذهـب إلى أن كـل النظــم الاجتماعيــة السياســى منهــا والأخلاقــى. والاقتصادى تعتمد علــى الوحـدة العقلية القائمـة علـى أسـاس الفلسـفة الوضعية بالذات، لأن الفلسفة الوضعية هى التى تبرر هذه الوحدة العقلية.

(٥)من النقاط الجديرة بالتقدير عند " كومت" هى نقطة تطبيـق منهـــج البحث الوضعى على الظواهر الاحتماعية، وتحقيق وحدة المعرفة الوضعية.

(٦)كان لــه تاثير كبـير فـى إحـلال الفلسـفة الوضعيـة محـل الفلسـفة المتيافيزيقية وكان لهذا الإحلال أثـر واضح فـى تكييـف النظريـات الفلسـفية . وتغيـــير مصطلحاتهـــا مـــن الأســـلوب الميتـــافيزيقى إلى الأسلوب الوضعى .

رابعاً: أهم الانتقادات الموجه إلى " كومت ":

(١)أشار "كومت" بوضوح إلى قواعد منهجية ذات قيمة علمية ولكنه لم يلتزم بهذه القواعد في دراسة موضوعات العلم . ولكنه إتجه إتجاهات أخرى حيث وصل إلى قوانين فلسفية شخصية بدلا من أن يستخلص قوانين مستخلصة من طبيعة الأشياء .

(٢)أقام "كومت" منهجه على أساس صدق قانون الأطوار الثلاثة . مع أن هناك انتقادات هامة يمكن أن توجه إلى هذا القانون . فقد أقامه على أساس أن الإنسانية كل لا يتجزأ . مع أن ما نلاحظة هو أن هناك مجتمعات جزئية مختلفة . وقد تحدث عن الإنسانية ككل . ولكن من الملاحظة أن هناك مجتمعات إنسانية . ويختلف كل مجتمع عن المراحل التي يمر بها غيره . مما يصعب معه القول بأن الإنسانية تسير على وتيرة واحده .

(٣)أرجع "كومت" تطور الظواهر الاجتماعية إلى التفكير . مع أن المجتمعات في تطورها تشهد كثيراً من العوامل التي تتفاعل آثارها وتحدد نتائجها . كما أن التطور في التفكير ليس إلا مظهراً من مظاهر تطور المجتمع . ولا يعتبر هو نفسه سببا لهذا التطور .

(٤)كان "كومت" بعيداً عن الاجتماع الديني في تقريره الدين الوضعي

الجديد فالإتجاه بالعبادة والتقديس إلى طائفة من بنى الإنسان تعتبر فكرة غريبة . لا يقبلها أحد مع " كومت" فقد أشار "كومت" إلى أن الدين الوضعى عنده ينتهى فى آخر تحليلاته إلى إحياء ذكرى الرجال العظماء . والفلاسفة الذين أدوا أعمالاً جليلة . وخدمات عظيمة للجنس الإنسانى .

(٥)سلم "كومت" بأن مظاهر الحياة الاجتماعية تتضامن مع بعضها البعض (وذلك فى حديثة عن الاستاتيكا الاجتماعية) ولكن هذا لا يستقيم مع ما نشاهدة فى كل مجتمع من قيام تيارات نقدية . واتجاهات ترمى إلى تفويض النظم الموجودة . وكذلك ما تشاهده من نظريات متناقضه .

وفى نهاية هذه الانتقادات يمكن الوصول أو القول بأن فضل "ابن خلدون" فى إنشاء علم الاجتماع يفوق فضل "أوجست كومت" بدرجة كبيرة واضحة . فعدم إلتزام "بن خلدون" بالمنهج مثله مثل "كومت" إلا أن عدم إلتزام "بن خلدون" كان شكليا . بينما عدم إلتزام "كومت" كان جوهريا . كما أن تقسيم "بن خلدون" لفروع علم الاجتماع كان قريباً جداً من التقسيم الحديث . بينما تقسيم "كومت" موضوع علم الاجتماع إلى استاتيكا وديناميكا كان تقسيما مخالفا لطبيعة

الظواهر . لأن مكونات هذه الظواهر ووظائفهـا يؤثـران فـى تطورهـا إلى حد بعيد . هذا فضلاً عن أن "بـن خلـدون" كـان واقعيـاً فـى الأسـباب التى ذكرها عن إقامته لعلم الاجتماع . وهى تخليـص التـاريخ والمنهـج التاريخى من شوائبه . بينمـا كـانت الأسـباب التـى ذكرهـا "كومـت" خيالية . وفلسفية . وفهم شخصى لتطور الفكـر الإنسـانى . وكـل هـذا يرجح كفة " بن خلدون" وفضله فى قيام علم الاجتماع.

ثانيا : إميل دوركيم . (١٨٥٨ - ١٩١٧) :

إحتل العالم الفرنسى " إميل دوركيم " مكانة بـارزة فـى تـاريخ علم الاجتماع . ذلك أن بحوثه العلمية تمثل نشـأة علـم الاجتمـاع فـى العصر الحديث وهو رائد المدرسة الفرنسية فى علم الاجتماع . وقد ترك ثروة علمية هائلة . فضلا عن تلاميذ وأتبـاع أسـهموا فـى دعـم وإرسـاء الدراسات الإجتماعية على أسس قوية .

ولقد اهتم بالدراسـات الاجتماعيـة منـذ بدايـة حياتـه . فعمـل مدرسا ثم أستاذا جامعيا فى فرنسا . وله بحوث ومؤلفات كثـيرة منهـا تقسيم العمـل الاجتمـاعى وقواعـد المنهج الاجتمـاعى " والانتحـار " و " الأشكال الأولية الدينية " وهذا فضلا عـن المقـالات التـى نشـرها فـى المجلة التى أنشأها وهـى " التقويـم الاجتمـاعى " . وكذلـك المؤلفـات

التـى نشـرها أتباعـه بعـد وفاتـه . وعلـى هـذا فـإن الأعمـال العلميـة لـ دوركيم . كثيرة ولا يمكن الحديـث عنهـا فـى مجـال ضيـق كهـذا . ومن هنا فإننا سوف نختار بعض الجوانب التى أسهم بهـا فـى مجـال علم الاجتماع ودراساته .

أولاً : الظاهرة الاجتماعية :

كما أشرنا من قبل فإن التعمق فـى طبيعـة الظـاهرة الاجتماعيـة يعتبر على قدر كبير من الأهمية . وقد إهتم بها "دوركيم" فـى محاولـة منه لإرساء دعائم إستقلال علم الاجتماع ويرد على مـا أثـير حـول هـذا الإستقلال من معارضات .

وهذا الموضوع لم يحظ بالإهتمام الواجب من قبـل . فلـم يعـرف "بن خلدون" الظاهرة الاجتماعية تعريفـا دقيقـا . وأوجسـت كومـت لم يجعلها موضوعا لعلـم الاجتمـاع بـل جعـل موضوعـه الظواهـر التـى لم تدرسها العلوم الأخرى . كذلك فإن "سبنسر" إتجه فى تفسير الظـاهرة الاجتماعية إلى مماثلات بيولوجية أوقعته فى كثير من الأخطاء .

وأيضاً فقد فسر " تارد" الظاهرة الاجتماعية تفسيراً سيكولوجيـا وبذلك كاد يقضى على شخصية علم الاجتماع . وترتيباً على ذلـك فقـد

حاول "دوركيم" القضاء على هذه الإتجاهات . وخصص لهـذا الموضـوع جزءا كبيراً من كتابه " قواعد المنهج ".

يقول "دوركيم" إن الأفراد يسيرون فى مختلـف شـئون حيـاتهم على أساليب وقواعد يلتزمون بها . ففى الحيـاة الدينيـة يتفقـون علـى قواعـد تنظيـم طقوسـهم وشـعائرهم ومقدسـاتهم وفـى حيـاتهم الأسـرية يلتزمون بقواعد خاصة بالزواج والطلاق . والقرابة والمصاهرة . والحقوق والواجبات فى داخل الأسرة . وفى الجوانب الاقتصادية يسيرون علـى نظام معين فى طرق التبادل . والإنتـاج ومـا يرتبـط بهمـا . ولا يخـرج أحد عن هذه الإلتزامات وفى حالة الخروج عنهـا فإنـه يواجـه بعقـاب صارم . كذلك الحال فى النواحى السياسية . والأخلاقية . والقضائية. واللغوية . والتربوية . والفنية وكل هذه الأساليب والقواعد التى يسـير عليهـا الأفـراد ويلـتزمون بهـا فـى كـل شـئونهم . تسـمى" الظواهـر الاجتماعية " وحتى فى الجوانب التى لا توجد فيها ظواهر اجتماعية. فإن التيارات والإتجاهات التى تنشأ من تفاعل الفراد واحتكاكهم تعتبر ظواهر اجتماعية فلا يمكن للأفراد أن يخرجوا عمـا تفرضـه مـن حـدود والتزامات . وحتى فى الجوانب المورفولوجية نجـد أن حركـة السـكان وقيام المدن . ونشأتها . واختيار مواقعهـا وتوزيـع الأفـراد . والكثافـة

والتخلخل والهجرة ، كلها تسير وفقاً لنظم قواعد خاصة، وهى تسمى الظواهر والأوضاع الاجتماعية المورفولوجية .

ولهذه الظواهر صفات خاصة تميزها عما عداها ، وعليها يتحدد موضوع علم الاجتماع .

(١) فالظواهر الاجتماعية إنسانية ، حيث يتميز بها المجتمع الإنسانى عن الحيوانى ، فهذه الظواهر تختلف من مجتمع لآخر وفى نفس المجتمع الواحد من حقبة لأخرى ، وفى تغييرها تخضع لظروف البيئة الجغرافية ، والإجتماعية ، وتتناقلها الأجيال المختلفة . فهى إذن سمات مكتسبة أى يكتسبها الفرد من الحياة الاجتماعية وليست فطرية أو وراثية ، أما الإستجابات التى تبديها الحيوانات فى مجتمع حيوانى فهى إستجابات وراثية ولا تكتسب من الوسط الذى تعيش فيه ، لذلك فإن هذه الظواهر لا تختلف من مكان لآخر أو من زمن لآخر . ولذلك فالظواهر الاجتماعية لها قوانين شأنها فى ذلك شأن ظواهر العلوم الأخرى ، ودراستها تشكل موضوع علم مستقل هو علم الاجتماع .وهكذا فالظاهرة الاجتماعية إنسانية .

(٢) كذلك فالظواهر الاجتماعية عامة General بمعنى أنها تلاحظ فى معظم أجزاء المجتمع ، وهى تحدث وتكرر وفقاً لقوانين عامة .

ويمكن إحصائها وقياسها ومقارنتها .

(٣) والظاهرة الاجتماعية إلزامية وجبرية بمعنى أن الفرد يشعر بأنه مجبر على الإلتزام بها ، وإن كان الفرد لا يلمس هذا الشعور فى معظم الحالات ، فما ذلك إى لكونه تعود عليها . وأصبحت عادية بالنسبة إليه وكثيراً ما يشعر الفرد بأنها محببة إليه لكثرة تعوده عليها . والجبر والإلزام هنا هو جبر وإلزام أخلاقى أو معنوى ويطلق عليه بعض العلماء الضغط الاجتماعى Social Pressrure .

(٤) وأيضاً فالظاهرة الاجتماعية ظاهرة تاريخية توجد فى فترة تاريخية من حياة المجتمع ،فهى تعتبر ذات بداية ونهاية وتتوالى فى اطور متتابعة من تاريخ المجتمع وهى تتضمن العادات والتقاليد . ونوع الملابس وشكلها يخفى وراءه تطورا فى العادات والتقاليد التى أدت إلى سيادة الظواهر الاجتماعية تتصف بالتطور والتغير المستمر سرعته.

(٥)الظاهرة الاجتماعية شيئية Choses لها صفة الخارجية . أى أن الظاهرة الاجتماعية موجودة فى المجتمع خارج شعور الفرد كحقيقة موضوعية دائمة وهى تنتقل من جيل لجيل وثابتة لا تتغير إلا فى حدود ضيقة . وهى سابقة على الوجود الفردى . لأن الأفراد

يولدون ويخضعون منذ البداية لنظم وظواهر اجتماعية سابقة على وجودهم فى الحياة .

(٦) الظاهرة الاجتماعية ليست من وضع الفرد أو مجموعة أفراد ولكنها من صنع المجتمع ومن خلقه . وتظهر فيه فى صورة تلقائية بفعل العقل الجمعى . ومن هذه النقطة يتطرق "دوركيم" إلى القول بثلاث طبائع مختلفة للإنسان يجب ألا تختلط ببعضها البعض لأن كلا منها يعبر عن ناحية تلقائية فى الإنسان . ولكل طبيعة علم خاص بها . فالطبيعة النفسية يدرسها علم النفس . والطبيعة الحيوية يدرسها علم الحياة . والطبيعة الاجتماعية يدرسها علم الاجتماع .

(٧) ويؤكد "دوركيم" كثيراً على صفة القهر والإلزام فى الظاهرة الاجتماعية . لأن هذه الصفة هى التى تؤكد موضوعيتها وهى بذلك تشيه الظواهر الأخرى التى تدرسها علوم غير علم الاجتماع . فهذه الصفة تجعل الظاهرة الاجتماعية عملية عامة .

(٨) وبعد أن ينتهى "دوركيم" من الإشارة إلى خواص الظاهرة الاجتماعية يعرفها بأنها عبارة عن نوع من السلوك العام والإتجاهات والأساليب والأوضاع التى يصب فيها الإنسان تفكيره وأعماله . وهى ليست من صنع الفرد أو مجموعة أفراد . ولكنها

من صنع المجتمع وهى عامة ولها كيان خـاص مستقل عـن الصـور التى تتشكل بها فى الحالات الفردية ،وتتميز بقوة ملزمة جبرية .
(٩) ومن منطلق تحديد الظاهرة الاجتماعية وتعريفها . وذكـر خواصهـا تمكن "دوركيم" أن يقيم دعائم علم الاجتماع ، ويدلل على اسـتقلاله وموضوعيته .

ثانيا : فروع علم الاجتماع وأقسامه :

أخذ ميدان علم الاجتماع فى الإتسـاع والتشـعب بعـد أن غلـب الإتجاه العلمى على دراسة ظواهر الاجتماع ، ولهذا فإن كـل مجموعـة من الظواهر تتصل بناحية من نواحى المجتمـع أخـذت فـى الإسـتقلال النسبى . واتخاذ صفة العلم الجزئى . حتـى أصبـح أمامنـا الآن علـم الاجتماع العام من ناحية . والعلوم أو الفروع الاجتماعية الخاصة التـى ينطوى عليها من ناحية أخرى . وكانت وجهة نظـر "دوركيـم" تتمثـل فى أن تقسيم وتبويب هذه الفروع لايزال أمرا سابقا لأوانه لأنـه لايـزال هناك نموا مطردا فى نواحى النشاط الاجتماعى ، ولكنه مع ذلك يشرح الدعائم التى يجب أن يقوم عليها هذا التقسيم .

(أ) المورفولوجيا الاجتماعية :

فالإنسان يعيش فى بيئة جغرافية . تتضمن أراضى ومصادر للثروات . وتختلف المجتمعات من حيث عدد السكان وكثافتهم والبيئة والمناخ والتضاريس كلها أمور تؤثر على وجود السكان وتوزيعهم. وكثافتهم .وهذه الناحية الخارجية يجب أن تكون موضوعا لعلم اجتماعى يدرسها ويحللها. ويطلق "دوركيم" على هذا العلم المورفولوجيا الاجتماعية أو علم البنية والتركيب الاجتماعى . وهذا العلم يجب ألا يقتصر على الوصف . بل إن عليه أن يدرس ويحلل . ويستنبط الأسباب العميقة التى تكمن فى طبيعة الحياة الاجتماعية . فيدرس مثلا أسباب تكاثف السكان فى جهات أو مناطق دون أخرى . وأسباب الهجرة من الريف إلى المدن والعكس . وعوامل تطور المدن وتدهورها فكأن موضوع هذا العلم هو الدراسة الجغرافية للبيئة وسكانها وعلاقة ذلك بالتنظيم الاجتماعى من ناحية . ودراسة السكان من حيث التخلخل والتوزيع على المساحة وما يتصل بذلك .

(ب)أما القسم الثانى ، فهو علم الوظائف الاجتماعية :

Social physiology وهو علم يشتمل علـى عـدة علـوم خاصـة وذلك لتعدد الظواهر الاجتماعية التى يتضمنها وهذه العلوم الخاصة هى:-

علم الاجتماع الدينى : Religious Sociology

فالدين هو أهم الظواهر الاجتماعية . وأقـوى دعائمهـا . ويؤثـر على مختلف أوجه النشاط الاجتماعى . فالعقائد والطقـوس والعبـادات تفرض نفسها على المجتمع . وتجعل من أفرادة وحدة حية متماسكة .

علم الاجتماع الأخلاقى : Moral Sociology

والظواهر الأخلاقية هى الأخرى ذات أهمية فى المجتمع. فهى مجموعة من الأحكام والعادات والتقاليد التى يخضـع لهـا الأفـراد فـى تعاملهم،والأخلاق التى يقصدهـا "دوركيـم" هنـا . هـى الظواهـر التـى يمكن دراستها دراسة علمية قائمة على الملاحظـة والتحليـل التـاريخى المقارن، وليست الأخلاق النظرية القائمة علـى فـروض فلسـفية متعلقـة بالخير والشرّ واللذة والألم،الفضيلة والرذيلة والحسن والقبـح،كمـا فعـل فلاسفة اليونان.

علم الاجتماع القضائى : Juiridical Sociology

وهو يدرس ناحية هامة من نواحى الحياة الاجتماعية وهى الناحية التشريعية والقضائية . والإجتماع القضائى يرتبط بالإجتماع الأخلاقى . لأن الأفكار الأخلاقية هى روح القانون ودعامته وقوة القانون تأتى من المثل الأخلاقية التى يجسدها . والتى توجد فى المجتمع .

علم الاجتماع الاقتصادى Economic Sociology

وهو يدرس الظواهر المتعلقة بإنتاج الثروات وتبادلها . وتوزيعها.واستهلاكها . والآثار الاجتماعية التى تحدثها .

علم الاجتماع اللغوى : Linguistique Sociology

ويدرس الظواهر اللغوية دراسة وصفية تحليلية . لأن اللغة حقيقة اجتماعية . فهى ظاهرة اجتماعية ومظهر حياة الجماعة ومن أهم ما يميز المجتمعات الإنسانية عن غيرها .

علم الاجتماع الجمالى : Aesthetic Sociology

وهو يمثل الناحية الجمالية فى المجتمع . ويحدد معايير أذواق الأفراد وفنونهم من شعر . ونثر وخطابه . ونحت . فهذه الأمور تعتبر

مظهرا من مظاهر إنتاج الجماعة . وتعبر عن مثل عليا تنشدها هذه الجماعة .

(ج) والقسم الثالث : عند "دوركيم"

هو علم الاجتماع العام General Sociology وهو يعبر عن فلسفة العلم العامة . فكما إتضح من القسم الثانى نجد أن مجال العلم قد اتسع . وتفرع إلى فروع عديدة . ولا يعنى هذا التنوع أنه لا توجد صلة بين هذه الفروع . ولكنها كلها تحصل على مادتها من مجال واحد . هو المجتمع ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى علم تركيبى يدمج النتائج والقوانين التى تتوصل إليها هذه العلوم الفرعية . وهذه الأمور العامة المشتركة تشكل موضوع علم الاجتماع العام . وهذا العلم هو الذى يربط بين القسمين السابقين "المورفولوجيا - والوظائف الاجتماعية". والشروط العلمية للوصول إلى القانون الاجتماعى . وتبرز الحاجة إلى ظهور فروع جديدة تدرس ميادين جديدة فى الحياة الاجتماعية.

ثالثا : منهج البحث العلمى فى علم الاجتماع :

علم الاجتماع اذن هو العلم الذى يدرس الظواهر الاجتماعية دراسة موضوعية علمية وصفية تحليلية . ولكى يحقق العلم هذه الغاية فلا بد أن يستعين بمنهج علمى يساعده على الوصول إلى قوانين

الظواهر الاجتماعية . وهنا كانت لـ "دوركيم" إسهامات عديـدة تتمثـل فى تحديد الشروط الضرورية التى يجب أن يلتزم بها البحـث للوصـول إلىنتائج صادقة وقد عالج هذه المسائل فى كتابه "قواعد المنهـج الأخلاقـى" وفـى بحـث بعنـوان "علـم الاجتمـاع والعلـوم الاجتماعيـة" وفـى كتـاب "الانتحار". ومن أهم القواعد المنهجية التى توصل إليها "دوركيم" ما يلى:

(١)يجب دراسة الظواهر الاجتماعية بإعتبارها أشياء بمعنى أنها تعـالج كما تعالج الظواهر الوضعية الأخرى . وفى هذه الحالـة ينظـر إليهـا الباحث بإعتبارها أشياء خارجية عن شعورة الداخلى . وعلـى هـذا تتحقق موضوعية الظاهرة وشخصيتها العلمية .

(٢)على الباحث أن يتجرد من كل فكـرة سـابقة يعرفهـا عـن الظـاهرة موضوع الدراسة حتـى لا يقـع أسـيراً لأفكـارة الشـخصية المسـبقة . كذلك فإن على الباحث أن يتجرد مـن بعـض الأفكـار الموروثـة عـن ظواهر الطبيعة لأن هذه الأفكار تكونت دون منهج معين .

(٣)على الباحث أن يبـدأ بتعريـف للظـاهرة أو الظواهـر التـى يتخذهـا موضوعا لدراسته وهكذا فالتعريف هام بالنسبة للظواهر التـى يسـعى لتفسيرها . فهو عن هذا الطريق يستطيع تصنيـف الظواهـر علـى أساس خواصها العامة . وعناصرها الأساسية .

(٤)يجب على الباحث بذل الجهد فى ملاحظة الظواهر فى حالة استقلالها عن صورها الفردية ، لأن تجريد الظاهرة من الحالات الفردية هو الذى يكفل موضوعية البحث . فلو كان الباحث يناصر مذهبا معينا فإن عليه أن يتجرد من هذه الحالة الفردية ، ويدرس ما يقابل هذا المذهب دراسة موضوعية . أما الخطوات التى يتعين على الباحث إتباعها فهى :

١- دراسة نشأةالظاهرة وعناصرها المكونة .

٢- دراسة الظاهرة والوقوف على مختلف أشكالها،وربط الماضى بالحاضر.

٣- دراسة العلاقة بين الظاهرة وغيرها من الظواهر المشابهة لها،والمختلفة عنها .

٤-إستخدام منهج المقارنات فى دراسة الظواهر .

٥- الكشف عن وظيفة الظاهرة الاجتماعية ، والعوامل التى خضعت لها فى تطورها .

وهكذا نجد "دوركيم" يؤكد على إستخدام علم التاريخ ولكن يشير إلى عدم حصر هذا الإستخدام فى إطار حقبة معينة أو عصر معين ولكن يوسع إطار البحث التاريخى عن طريق المقارنة .

وفضلاً عن كل ذلك فإن هناك أهمية أسلوب آخر هـو الأسـلوب الإحصـائى. فالحقـائق الصادقـة تتمثـل فـى معالجـة الظواهـر . مثـل حـالات الـزواج . والطـلاق . والقتـل . والإنتحـار . وغيرهـا معالجـة إحصائية رقمية .

رابعاً : أهم نظرياتة :

توصل "دوركيم" إلى عدد كبير من النظريات سوف نختار أهمها لعرضه بشكل موجز :

(أ) طبيعة وأشكال المجتمعات :

تنشأ الحياة الاجتماعية بصورة طبيعية . وبشكل مغاير لطبـائع الأفراد . ويعترض "دوركيم" على أصحاب نظرية التعاقد الذين جعلـوا من نشأة المجتمع نشأة صناعية عن إرادة وقصـد . كمـا يعـترض علـى البيولوجيـين . والنفسـيين فيمـا ذهبـوا إليـه مـن تفسـيرات للطبيعـة الاجتماعية . ووضع "دوركيم" دعائم المجتمعات فذهب إلى أن التقسيم يجب أن يقوم على درجة التركيب . بمعنى أن يكـون أبسـط الأشـكال الاجتماعية هو أول درجة فى التصنيف . ثـم تلاحـظ درجـة الإندمـاج التـى تتحقـق بـين الهيئـات والعنـاصر الأوليـة الداخلـة فـى تركيـب المجتمع. وهـو بذلـك يقيـم التقسيـم علـى مبدأيـن : التركيـب

المورفولوجي، وتوزيع الوظائف . وعلى هذا يـرى أن هنـاك نوعـين مـن المجتمعات :

الأول : مجتمعات محدودة النطاق بسيطة غير معقدة التركيب، فليست فيها هيئات متخصصة ولكن المجتمع ككل يقوم بالوظائف ككل.

والثاني: هـو المجتمعـات واسعة النطـاق التـى يكـون الـتركيب فيهـا معقدا، والوظائف متميزة ، وتخضع لمبدأ توزيع العمـل ، ويطلـق "دوركيـم" علـى هـذه المجتمعــات " المجتمعــات التاريخيــة " ويضرب مثلا عليها وهو المدينة . كـالمدن اليونانيـة والرومانيـة . كذلك الامبراطوريات القديمة كالرومانية . وفـى هـذه المجتمعـات يزداد التخصص ، وتغلب عليها سلطة القـانون وقـوة التعـاقدات والمعاملات القانونية .

(ب) نظريته فى الدين :

تقوم نظريته فى الدين على أساس تقسيم الظواهر الدينية إلى قسمين:

الأول : مقدس ، أو قدسى Sacred وهو ما يتصل بالعقائد .

الثانى : علمانى Cosmpolitan وهو مـا يتعلـق بـالطقوس والعبـادات وما يتصل بها .

والقسم الأول : تدخل فيه الآلهة . والكائنات الروحية . والنصوص الدينية . والأحجار المقدسة والرقى والتمائم . فهذه الأمور تختلف عند الإنسان عن الأمور العلمانية . لأنها فى نظر أعضاء المجتمع من طبيعة تختلف عن طبيعة الأشياء الدنيوية .

و القسم الثانى : عبارة عن الأعمال والطقوس التى تنظم سلوك الإنسان نحو القسم الأول أو القدسى .ويدخل فى القسم الثانى الصلاة والصوم. والحج . والدعاء . والزكاة .

وينتهى "دوركيم" من هذا التقسيم إلى القول بأن " الدين " عبارة عن مجموعة متماسكة من العقائد والأعمال المتصلة بالعالم . أو التى يظن أنها تأتى من جانب هذا العالم وهى عقائد وأعمال تشترك فى الإعتقاد بها مجموعة من الأفراد يتكون منهم مجتمع معين .

(جـ) نظريته فى شئون الأسرة :

درس الأسرة بإعتبارها أول خلايا المجتمع فدرس طبيعتها . كما درس أشكالها ووظائفها وتوصل إلى أن الاجتماع العائلى أو الأسرى لايقوم على الغريزة أو الدوافع الطبيعية . أو القرابة الدموية . ولكن هذا الاجتماع فى طبيعته يقوم على قواعد وأساليب يضمنها العقل

الجمعى . وتتطلبها الحياة الاجتماعية ذاتها . ويرى أن نطـاق الأسـرة ينتقل من الاتساع إلى الضيق . وبالتالى فإن وظائفها أيضـاً قـد تطـورت مـن الواسـع إلى الضيـق . فخرجـت منهـا وظـائف كثـيرة تحولـت إلى الحكومة والهيئات القضائيـة والمجـالس النيابيـة بعـد أن كـان رئيـس الأسرة الذى يتولى كل هذه الوظائف . كما أن الوظيفة التربوية أصبحت من إختصاص المدارس. وهكذا الحـال فـى بـاقى الوظـائف . ولم يبـق للأسرة غير الوظيفة الأخلاقية التى يراها وظيفة أساسية . حيث يدخل فـى نطاقهـا عمليـات التنشـئة الاجتماعيـة مثـل تلقين النشــء أداب الأسرة. وعرفها وتقاليدها ودينها . والحرص علـى ممتلكاتهـا والدفـاع عن مصالحها وغير ذلك .

(د) نظريته فى الإنتحار :

فى نطـاق علـم الاجتمـاع الأخلاقـى درس "دوركيـم" أهميتـــه مـــن قبل وذهب إلى أن الانتحار يرتبط أشد الإرتباط بالحالة الاقتصادية والدينية والعرف والتقاليد وغيرها مـن شـئون الاجتمـاع الإنسـانى.وقـد خصص لهذه الدراسة كتابا خاصا سماه "الانتحار" Suicide نشرة عـام ١٨٩٧.

وقد اعتمد فى هذه الدراسة على الإحصائيات التى أجريت فـى

البلاد الأوروبية ما بين عام ١٨٤٠-١٨٩٠ . خاصة فى فرنسا . وانجلترا . وإيطاليا . وألمانيا . ويخرج بهذه الظاهرة من المحيط الفردى . كالحب والغيرة . والإدمان. والمرض المستعصى وغيرها . وأدخل هذه الظاهرة فى نطاقها الاجتماعى . فبحث عن العوامل الاجتماعية الكامنه فى طبيعتها . وهذه العوامل ترجع لأسباب خارجة عن ذوات الأفراد وتنشأ من طبيعة الظروف المحيطة بالمجتمع . وهى أسباب عامة بصرف النظر عن تجسداتها الفردية أو الطرق الشخصية التى تتحقق فيها الظاهرة وتتشكل بها . وقد تكون هذه الأسباب الاجتماعية مرتبطة بالأسباب الاقتصادية . والدينية . والسياسية . وانهيار روابط الأسرة والحروب . والثورات وما إلى ذلك من الأمور العامة فى المجتمع . وهنا توصل "دوركيم" إلى قانون اجتماعى مؤداه أن الميل للإنتحار يتناسب تناسبا عكسيا مع درجة التكامل فى البيئة الدينية . وكذلك مع درجة التماسك فى الأسرة . ومع درجة الوحدة فى الهيئة السياسية فكلما قويت هذه الهيئات الثلاث . الدين والأسرة. والدولة. واشتدت سلطتها على الأفراد الذين ينتمون إليها كلما قل عدد المنتحرين . والعكس صحيح . وعلى هذا فعدد المنتحرين يتزايد كلما ضعفت الروابط التى تربط الأفراد بمجتمعهم . ويقل هذا

العدد إذا قويت الروابط وإتجهت نحو التكامل وقد أيد "دوركيم" هذا القانون ودعمه يالإحصاءات التى أضفت عليه صيغة علمية .

خامسا : أهم الإنتقادات الموجهة لآراء "دوركيم" :

١) ذهب بعض الباحثين إلى أن صفة الجبر والإلزام التى تتميز بها الظواهر الاجتماعية تجعل من الفرد عبدا للمجتمع . مسلوب الإرادة. معدوم الحرية . وبالتالى تنهار قيمه الآخلاقية والعقلية . أى أن هذا المبدأ يرفع من (الأنا الاجتماعية . ويحصر من شأن الأنا الفردى) . ولكن "دوركيم" يرد على ذلك بأن الأفراد حينما يتصرفون لايحسون بهذا الجبر والإلزام . ولكنهم يتصرفون بمحض إراداتهم لأن التربية الاجتماعية قلت من حدة هذا الجبر والإلزام . وتعرفوا على الفوائد التى تعود عليهم من هذا الجبر والإلزام . فاطمأنوا فى ظله. ولم يعودوا يشعرون بالقوى التى تنطوى عليها إلا فى حالة الخروج عما يرسمه المجتمع .

٢) جاء تقسيمه للعلوم الاجتماعية قاصراً . فلم ينشىء علما لدراسة المجتمعات البدائية وتطورها رغم أنه استقى من هذه المجتمعات الكثير من مادته العلمية . كذلك أغفل علوما هامة مثل علم الاجتماع السياسى . والريفى. والحضرى . والتربوى رغم أهميتها . ورغم أنه تعرض لموضوعاتها .

٣)كذلك كان تقسيمة للمجتمعات ناقصاً بحيث توقف عند الامبراطوريات القديمة . ولم تصنيفه يتضمن. المجتمعات الإقطاعية . والامبراطوريات . والقوميات الحديثة . والدول الاستعمارية فى العصر الحديث .

٤)كما أن نظريته فى الدين كانت ناقصة ، فقد أرجع الدين إلى أصل أرضى . أى إلى طبيعة المجتمع الإنسانى . ولم يعترف بإرتباط الدين بالإرادة السماوية . ورغم أنه وفق فى تفسير الطقوس والعبادات إلا أنه أخفق فى تفسير القسم الأول . وهو القدسى .

ورغم هذه الإنتقادات وغيرها فإن عظمة "دوركيم" تبقى واضحة فى مجال الفكر الاجتماعى عموما . وعلم الاجتماع بوجه خاص . فقد تميز كما قلنا بدقة التحليل والعمق بشكل لم يسبقه إليه أحد .

(ب) فى بريطانيا

أ- هربرت سبنسر Herbert Spencer(١٨٢٠-١٩٠٣)

تلقى هربرت سبنسر تعليمه داخل منزل الأسرة ، حيث لم يلتحق بأى مدرسة لاعتلال صحته . كذلك لم يدرس بالجامعة . الأمر الذى جعل الدوائر الأكاديمية فى إنجلترا لا تهتم بكتاباته أو نظرياته .

وقد أدت طبيعة نشأته إلى ميله إلى العزلة خاصة حينما بلغ سن الرشد وإلى جانب ذلك كان يعارض بعض المبادىء الأكاديمية . ولعل هذه العوامل يجب أن تؤخذ فى الحسبان إذا أردنا فهم أفكاره وميوله الفلسفية .

وقد إتجه سبنسر فى سن مبكرة إلى دراسة الميكانيكا ، حتى أنه أصبح عام (١٨٣٧) رئيسا لمهندسى سكك حديد لندن وبرمنجهام . ثم استقال من هذا العمل ليصبح محرراً فى مجلة الايكونوميست عام (١٨٤٨) .وفى عام (١٨٥٠) نشر كتاب " الاستاتيكا الاجتماعية " .

ويرى سبنسر أن الخط الأساسى للمعرفة العلمية يتمثل فى نظرية التطور ، وهو خط صحيح بالضرورة . ولو أن كثيرا من نظرية التطور عند سبنسر تعجز فى مواجهة الدراسات الاجتماعية الحديثة

خاصة الدراسات الاستقرائية والكمية كما سنرى فيما بعد . ومع كل هذا فإن النظرية تمثل واحدة من أهم النظريات التى أثرت على الفكر الإنسانى . منذ مراحلة الأولى . حيث لامثيل لهذه النظرية فى دراسات المحدثين فلقد اعتنق الرجل مذهب التطور فى النشوء والإرتقاء، وكتب فى عدة فروع منها علم النفس والحياة والاجتماع . والتربية والسياسة . وقد عكست هذه الكتابات آراءه وافكاره التطورية .

أولا : دعائم فكره الاجتماعى :

لاحظ "سبنسر" من دراسته فى البيولوجيا أن الأنواع الدنيا من الحيوان تتكون أجسامها من أجزاء متماثلة لا يتوقف بعضها على بعض أما الأنواع العليا فتتألف أجسامها من أعضاء متباينة تعتمد فى أدائها لأعمالها ووظائفها بعضها على البعض .

وقد ذهب "سبنسر" إلى أن هذا الأمر . وهذا التكوين ينطبق على المجتمع . فالمجتمع شأنه شأن أى كائن حى يبدأ متجانسا . ثم يميل إلى التعقيد واللاتجانس . ويبدأ الإنتقال من التشابه والتماثل عند "سبنسر" ينطبق على كل الظواهر السياسية وظواهر الأخلاق . والعادات والقانون . ويذكر الكثير من الأمثلة التى توضح هذا المبدأ ويقرر فى النهاية أن " التخصص هو غاية كل تطور وإرتقاء فى

الموجودات " وهذا القانون يستند عنده على أساسين :-

الأول : كلما تزايدت درجة التعقد فى المركب الحيوى تزايدت درجة التخصص والتنوع .

الثانى : كلما تزايدت درجة التخصص والتنوع فى الأعضاء تزايدت درجة استقلالها .

وحينما ينتقل للحديث عن المجتمع ليطبق عليه هذه القاعدة يقول أن الجماعات البشرية كانت فى البداية تعيش على الفطرة، وتتكون من أفراد متشابهين من حيث طرق المعيشة والإنتماء للمجتمع، والغايات والحاجات، ولا يعتمد كل فرد على غيره فى سائر أموره. فكان الفرد يعد طعامه، ويبنى مسكنه ويدافع عن نفسه مثله فى ذلك مثل الأنواع الدنيا من الحيوان. ثم ظهرت الحياة الاجتماعية وإنتقلت إلى مرحلة أكثر إرتقاء، فظهرت الفروق بين الأفراد، وأمكن ملاحظتها بوضوح وأصبح للفرد زوجة وأولاد يزرعون ويحصدون معا، ويتقاسمون أعمال الزراعة والصيد والرعى وشئون الحياة الاجتماعية الأخرى. فتزايد التخصص والإستقلال فى مرحلة تطورية أخرى، فأصبح هناك من يقوم بالزراعة، ومن يقوم بغيرها من الأعمال سواء المرتبطة بها أو غير المرتبطة.

كما ظهر من يقومون بأعمال الإدارة . والحكم والأمن وغيرهـا . وبعد أن كان رب العائلة يقوم بكـل الوظـائف الاجتماعيـة فـى عائلتـه أصبح هناك من يقوم بجزء كبير من أعمالة . وهكذا يستمر التطـور فـى كل شئون الحياة الاجتماعيـة حتـى تظهـر الطبقـات المختلفـة . وفـى المجتمعـات الحديثـة إسـتمر هـذا التخصـص إلى أن وصـل إلى مراحـل دقيقة فظهرت عشرات التخصصات فى المهنة الواحدة .

ومع ذلك فإن التخصص ووصوله إلى المراحل التى وصل إليها لا يعنى استقلال كل فرد عن الآخر أو كل طبقة عن غيرها من الطبقـات. ولكن هذا التخصص يتضمن إلى جانب ذلك التضامن والتعاون. ويتمثـل هـذا التعـاون فـى الأهـداف والغايـات التـى يسـعى إليهـا كـل تنظيـم إجتماعى . أى أن نظرية "سبنسر " فى الإنتقال من التشابه إلى التباين تقوم على فكرتين :

الأولى : التباين Defferentiation

وهى تعنى الإنتقال من المتجانس إلى اللامتجانس . ومن التماثل المطلق إلى التباين المحدد .

الثانية : التكامل Integration

وهى ظاهرة تمييز جنبا إلى جنب مع ظاهـرة التبايـن بمعنـى أن

التخصص لا يؤدى إلى الإستقلال، والإنعزال ، والإكتفاء الذاتى . ولكنه يؤدى إلى التضامن والتماسك وإعتماد الأجزاء على بعضها البعض طبقا لمبدأ التكامل الاجتماعى لشئون الحياة الاجتماعية .

ثانيا : نظرية "سبنسر" فى طبيعة المجتمع :

يعتبر المجتمع جزءا من النظام الطبيعى للكون . وهو فى ذلك يتفق مع "داروين وهيجل " ونظريته على هذا الأساس تعتبر نوعا من التفسير الطبيعى الذى يطبقة على سائر الكون ويرى أن علم الاجتماع هو محاولة لمعرفة نشأة المجتمع وتركيبه وعناصره . وهيئاته . ومراحل نموه . وتطوره . وغير ذلك من المظاهر التى تخلقها العوامل الطبيعية والنفسية والحيوية . وهى عوامل تؤدى دورها متضافرة فى عملية تطورية موحدة . فالتطور الاجتماعى من وجهة نظره هو عملية تطورية عضوية يسميها " التطور فوق العضوى " Super Organic والمجتمع الإنسانى يمثل أرقى صور هذا التطور . فالمجتمع يشبه الجسم الحى . ويعقد "سبنسر" مماثلة من حيث التركيب الداخلى . فالمجتمع مزود بجهاز للتغذية مثل الكائن الحى . وهذا الجهاز يتمثل فى البيئات والطبقات المنتجة . كما أنه مزود بدورة دموية تتمثل فى نظم التوزيع ،وطرق المواصلات،ومزود بجهاز هضمى يتمثل فى نظم الإستهلاك وجهاز عصبى يتمثل فى الجهاز التنظيمى والإدارة الحكومية.

ولكن الفروق بين المجتمع والكائن الحى من حيث التركيب تتمثل فى أن عناصر الكائن الحى تكون كلا متماسكاً ومتحدا بصفة مباشرة إتحادا مادياً ملموساً، بينما نجد أن العوامل التى تؤدى إلى الوحدة فى المجتمع عوامل خارجة عن التركيب العضوى فى الفرد . وهذه العوامل هى اللغة والعواطف والإنفعالات . والأفكار . والمعتقدات والتقاليد وغيرها .

كذلك فإن الجهاز العصبى فى الجسم الحى يشغل مساحة صغيرة وهو العقل بينما هو فى الكائن الحى موزع بين الأفراد . فلكل إنسان الحق بالمساهمة فى توجيه المجتمع . والمجتمع مثل الكائن الحى أو الفردينشأ فى صورة بسيطة . ضيقة النطاق ثم يأخذ حجمه فى النمو . وعدد أفراده فى التكاثر وهذا النمو تميز فى الأعضاء والهيئات وتعقد فى التركيب وهو بذلك ينتقل من التجانس اللامحدود. وعندما يقوم المجتمع وتستقر الحياة الاجتماعية فيه تبدأ الظواهر والنظم الاجتماعية فى الإرتقاء والتطور . وهذه الظواهر فى تطورها تتأثر بنوعين من العوامل :-

داخلية : وهى تتمثل فى الناحية الفردية . والتكوين الطبيعى . والعاطفى والعقلى للأفراد الذين يكونون المجتمع .أى أن الأفراد

يشكلون الظواهر وفقا لهذه الخواص الداخلية .

خارجية : وتتمثل في نظرة في البيئة الجغرافية ، والطبيعية ، والمناخية لأنها تؤثر بصفة مباشرة على الأفراد ، وبالتالى على الظواهر التى هى نتاج لأوجه هؤلاء الأفراد . وإذا كان المجتمع مثل الكائن الحى يمر بالضرورة بمراحل النشوء والإرتقاء فإنه يمر أيضاً بمرحلة التدهور والإنحلال . وهناك دولا ومجتمعات تضعف بعد قوة ، وتتدهور بعد مجد وسلطان وتحل مجتمعات جديدة محل تلك التى يصيبها الإنحلال ، وهكذا فإن هناك خلقا متجددا فى الحياة الاجتماعية.

ثالثاً : أهم النظريات الاجتماعية :

عرض "سبنسر" بعض النظريات فى مجال السياسة والأخلاق والإقتصاد والدين ، ويهمنا هنا أن نشير إلى بعض هذه النظريات :

١- تصنيف المجتمعات :

يقسم "سبنسر" المجتمعات إلى نوعين : الأول : على أساس التكوين المورفولوجى ، والثانى : من الناحية الوظيفية . فمن الناحية الأولى يرى أن المجتمعات أما بسيطة أو مركبة ، ومن الناحية الثانية يرى أن المجتمعات أما صناعية وأما حربية .

فالمجتمعات تبدأ فى حالة بسيطة مثلما هو حال الكائنات

الدنيا وتكون فى هـذه الحالـة متجانسـة . وتعيـش فـى حالـة فوضـى بدائية . ثم تأخذ هذه المجتمعات فى النمو كما ينمـو الكـائن الحـى . فتنتقل لدرجة أعلى من التعقيد والتركيب . والتنوع فى النظم والظواهر والوظائف وبتوالى مثـل هـذه العمليـات عـبر الزمـن تنتقـل المجتمعـات البسيطة الساذجة إلى مرحلة التعقيد والتركيب .

أما النوع الثانى فيقول عنه "سبنسر" أن من بين المجتمعات من يعيش أهله عن رغبة القتال . كما كانت الحياة فى نظر الاقطاع . ومن بينهـا مـن يعيـش أهـل . لأجـل مكافحـة متـاعب الحيـاة ومواجهـة مشكلاتها . فغايتهم الأساسية هـى العمـل . فـالأولى هـى المجتمعـات الحربيـة . والثانيـة هـى المجتمعـات الصناعيـة . ففـى المجتمعـات الحربية يكون الجيش هو الأمة بأكملها ويكون فى حالة حركة دائمة . أما فى المجتمع الصناعى فيكون الجيش وراء الأمة . ويكون فى حالـة سمون بينما تكون الأمة فى حالة حركة دائمـة والسـلطة فـى المجتمـع الحربى تتركز فى يد الحكومة بينما فى المجتمع الصنـاعى تكـون فـى أيدى الهيئات والنقابات .

هذا وكما أن الكائن الحى عرضة للتغـير وفقـا لظـروف الطبيعـة والبيئة . فكذلك يتغير شكل المجتمع . فقد يتحول المجتمع الحربـى

إلى صناعى ،والصناعى إلى حربى ريثما تتوفر الظروف التى تؤدى إلى مثل هذا التحول . ويستشهد فى ذلك بالمجتمع البريطانى الذى كان فى البداية مجتمعا صناعيا رائدا ، ما بين عامى ١٨١٥، ١٨٥٠ ولكنه تحول بفعل تغيرات معينة فى القارة الأوروبية إلى مجتمع حربى إستعمارى . مع ذلك يكره "سبنسر" الحروب ويرى أن تطور الإنسانية ورقيها مرهون بالقضاء على الحروب .

٢- نظرية "سبنسر" فى الحكومة :

ينظر "سبنسر" إلى الحكومة على أنها ظاهرة عرضية استدعتها ضرورة التنظيم الذى بدونه لا يتم تكامل المجتمع . فالتنظيم هو الضرورة ، أما قيام الحكومة فلا ينطوى فى حد ذاته على شىء من الضرورة والتنظيم ضرورى لأنه يسهل التعاون بين أفراد المجتمع ويحفظ كيانه ، ويحرض على استقراره ، ويعمل على دوامه .

ويفرق "سبنسر" بين نوعين من التنظيم ، الأول : تنظيم تلقائى ينشأ بنشأة الحياة الاجتماعية ويرمى إلى تحقيق الصالح العام وتنظيم رغبات الأفراد فى حالة الاجتماع البسيط . والثانى : تنظيم مقصود وهو ما تلجأ الحكومات إلى وضعه عن قصد ، وتفرضه على الأفراد بالإلزام وقوة القانون ، وغرضه أيضاً يكون الصالح العام ويصطلح الأفراد

عليه رغبة فى قيام التعاون الاجتماعى وتنظيم الحريات وقيام الحكومة وما ينطوى عليه من نظم لايحقق فى نظره التكامل السياسى إلا إذا توفرت شروط كثيرة ، منها صلاحية البيئة لنمو المجتمع من الناحية السياسية والاجتماعية ، وضرورة تشابه الهيئات والطبقات . وينتقل بعد ذلك إلى تحديد وظائف الحكومة ، وهى تتلخص فى حماية الدولة من خطر الغزو الخارجى ، وتحقيق الأمن فى الداخل ، وضمان تنفيذ العقود والإلتزامات القائمة بين الأفراد . ويعارض تدخل الحكومة فى كثير من نواحى الحياة الاجتماعية .

٣- نظريته فى الاقتصاد :

وهذه النظرية مترتبة على نظريته السياسية ، فنراه فى نظريته الاقتصادية يدافع ويدعم المذهب الفردى والنظريات الاقتصادية الحرة . وقد إتجه إلى هذه الوجهه لما شهده من إخفاق من جانب الحكومات وهيئاتها الإدارية وعدم كفاءتها الاقتصادية . لذلك دعا للحد من تدخلها فى الشئون الاقتصادية ،وقد وافق " مالتس " Malthus فى القول بتحديد النسل وضرورته ، وقد إستند هنا إلى بعض مشاهداته عن تناسب الإنجاب مع النمو وكبر الحجم تناسبا عكسيا . فكلما كان الكائن الحى قويا كانت ذريته قليلة العدد لأنه لا يحتاج كثيرا إلى من

يدعمه والعكس صحيح ولما كانت الإنسانية قد بلغت درجة كبيرة من التقدم فإنها ليست بحاجة إلى المزيد من التناسل . وبالتالى فإن تقدم البشرية تكنولوجيا يؤدى إلى تناقص الإنجاب أو تناقص القدرة التناسلية مع تزايد القدرات العقلية .

(٤) نظريته فى الأخلاق :

كانت نزعته السياسية والاقتصادية ذات أثر على نظريته الأخلاقية ؛ لقد كان فى الجانب الأخلاقى ماديا أنانيا . فيبدأ بتعريف الأخلاق على أنها سلوك الإنسانية والفعل الخلقى فى نظره هو الذى يتفق مع ظروف الحياة ، ويكون أكثر مطابقة لطبيعة الإنسان . ولما كان الإنسان يتجه دائما لتحصيل اللذه وتجنب الألم . فإن الفعل الأخلاقى هو الذى يحقق اللذه ويبعد الألم . ومقياس اللذه هو المنفعة . وهى التى تساعدنا على الحكم على كل فعل بأنه أخلاقى أو غير أخلاقى.

رابعا : نقد أراء ونظريات "سبنسر" :

واجهت آراء "سبنسر" بنقد كبير ومن أهم ماوجه إليه مايلى :-

(١) هناك شك كبير فى القضية أو القانون الذى وضعه "سبنسر" حول سير التطور من البسيط إلى المركب . أو من السذاجة إلى التعقيد فى كل أنحاء الطبيعة فحتى لو انطبق هذا القانون على بعض الحالات

الخاصة إلا أنه لا يمكن أن ينطبق بصورة عامة .

(٢)عقد "سبنسر" مماثلة بين الكائن الحى والمجتمع . صحيح أن المجتمع يتكون من أفراد ، والأفراد خاضعون لقوانين علم الحياة ولكن ذلك لايستطيع القول بان المجتمع كائن حى كبير يخضع لنفس القوانيين .

(٣)جانبه الصواب فى التقسيم الذى قدمه للمجتمعات الإنسانية، فتقسيم المجتمعات إلى بسيطة ومركبة أمر مقبول.ولكن تقسيمها إلى مجتمعات ذات وظائف حربية وأخرى صناعية،تقسيم غير واقعى لأنه لايتمتع بالعمومية المطلوبة لأى قانون فهو لاينطبق على كل المجتمعات.

(٤)أعلى "سبنسر" من شأن الدولة الصناعية وقيمتها وإستقرارها . ولكنه لم يدرك أن نفس المجتمعات الصناعية هى التى اخترعت وسائل الحرب والدمار ، وهى التى بدأت سياسة الإستعمار .

(٥)وقع "سبنسر" فى كثير من الأخطاء نتيجة اعتناقه المذهب الفردى. وضرورة الحد من سلطات الدولة . واعتقد خطأ أن التطور سوف يؤدى بالحكومة إلى الإنحلال . وبينما اعتقد فى تطور المجتمع من البسيط إلى المركب ، أعتقد على العكس من ذلك بأن الحكومة تنتقل من المركب إلى البسيط كلما إستمر التطور والإرتقاء .

(٦)كل هذا فضلاً عن الأخطاء المنهجية التى وقع فيها . فبدأ الإعتماد على الملاحظة والتجربة . ولكنه أسرف فى فرض الفروض والإحتمالات التى أدت به فى النهاية إلى الفلسفة بدلا من العلم .

كذلك إستخدم المنهج التاريخى فقط فى الاحالات التى تدعم صحة آرائه . وهذا خطأ جسيم . وأيضاً كانت مقارناته غير علمية . الأمر الذى إنعكس فى قوانين غير دقيقة كانت ولاتزال عرضة للنقد والهجوم .

ب- بعض علماء علم الاجتماع فى بريطانيا

لعل هربرت سبنسر كان من أهم رواد علم الاجتماع فى بريطانيا، وعلى ذلك فلقد ظهر علماء آخرون ، وان كانوا أقل شهرة من سبنسر ، إلا أنه كان لكل منهم طابعاً مميزاً وإتجاها أسهم فى تعميق دراسات علم الاجتماع ، وسوف نشر هنا اشارات سريعة إلى بعض هؤلاء العلماء الإنجليز ، مع التعقيب على ذلك بأهم الإتجاهات التى تسيطر على علم الاجتماع هناك .

أولا : جون ستيورت مل J.S. Mill

تأثر "مل" بالفلسفة الوضعية التى وضع دعائمها أوجست كومت ، فقد إهتم مع غيره بمسائل السياسة الوضعية ، وعبادة

الإنسانية علــى حـين أهمـل النواحـى العمليـة والمنهجيـة فـى فلسـفته الاجتماعية . ومن أجل هذا فقد كان إسهامه وغيره مـن العلمـاء الذيـن إهتموا بهذه السياسة ضئيلا فى مواجهة المشـكلات التـى تفـاقمت فـى المجتمع البريطانى . ومن أهمهـا الصـراع الـذى نشـب بـين الطوائـف الدينية ، والتصـادم بـين العمـال وأصحـاب العمـل وبـين الإشـتراكيين والرأسماليين .

ويعتبر جون ستيورت مل من وجهة نظر بعض الدارسـين رجـل إقتصـاد ومصلحـا إجتماعيـا أكـثر مـن كونـه عـالم اجتمـاع . ذلـك أن الجانب الأكبر من كتاباته كـان فـى الفلسـفة الاجتماعيـة ، والإصـلاح الاجتماعى والتاريخ رغم أنها كانت تميل إلى الناحية السوسيولوجية .

ويرى "مل" أن الوظيفة الأساسية لعلم الاجتماع هى الكشف عن القوانين التى تؤثر فى الإنتقال من حالة اجتماعيـة إلى أخـرى . ويـرى أن أفضل المناهج فى ذلك هو المنهج التاريخى . وقد إعـترف باسـتقلال علم الاجتماع وتزعمه للعلوم الإنسانية كلها .

وفى كتاباته الأولى كان "مل" من المؤيدين" للمدرسة النفسية ". فيرى أن الممكن إرجاع قوانين الحياة الاجتماعية إلى قوانين علم النفـس الفردى ، وأن من الممكن تفسير قواعد الاجتمـاع وظواهـره فـى ضـوء

مبادىء علم النفس . والقدرات الكامنة فى الطبيعة الإنسانية التى يخضعون لها بإعتبارهم أفرادا . وأن اجتماع الناس لا يضفى عليهم صفات ذاتية كنتيجة لهذا الاجتماع .

ويذهب إلى أن ما ينشأ بين الناس من ظواهر أو يستحدث من نظم يخضع لقوانين لابأس من تسميتها قوانين اجتماعية . ولكن هذه الظواهر لايمكن إلا أن تكون أفعالاً وانفعالات ومؤثرات متبادلة بين الأفراد . فالأفراد هم أفراد مهما كانت حالة الاجتماع التى تضمهم . أو العلاقات التى تنشأ بينهم . فما يصدر عنهم إنما هو بإعتبارهم ذوى طبائع نفسية فردية .

ومن الواضح هنا أن تصور "مل" لطبيعة الظواهر والقوانين التى تخضع لها هذه الظواهر تنطوى على انكار صريح لعلم الاجتماع . ومع كل هذه الدعاوى فإن "مل" قد عاد وخفف من هذه الآراء المتطرفة تحت تأثير أوجست كومت .

ثانياً : هوبهاوس Hobhouse (١٨٦٤-١٩٢٩)

ومن بين علماء الاجتماع في بريطانيا نجد هوبهاوس الذى يعتبر خليفة لهربرت سبنسر . فقد بنى نظريته السوسيولوجية على أساس فلسفته العامة فى التطور . فإذا كان سبنسر قد اقتنع بأن التطور عبارة عن عملية تباين متقدم، وتوافق أفضل . فإن هوبهاوس أيضاً اعتبر أن غاية عملية التطور هى تحقيق الإنسجام التام . والتناسق الكلى فى الحياة الاجتماعية . كما أن كلاهما نظر إلى المجتمع بإعتبارة وحدة عضوية .

على أن هناك إختلافات بين سبنسر وهوبهاوس . فيعتقد سبنسر أن التطور يسير أوتوماتيكيا بالرغم من تدخل الإنسان على حين يدعى هربهاوس أن مهما كانت عملية التطور معتمدة أوتوماتيكيا على الصراع من أجل البقاء إلا أنها تعتمد أكثر وأكثر على التحكم الشعورى للعقل الإنسانى . وأن التقدم سيعتمد أولا على التوجيه الشعورى للعقل الإنسانى ودورة فى العملية الاجتماعية . وكذلك يرى سبنسر أن الطبيعة العضوية للمجتمع تعتمد على الإستخدام الواسع للمماثلة البيولوجية . بينمايمتنع هوبهاوس عن إستخدام المصلحات البيولوجية.

ولكنه يتحدث دائما عن الوحدة الضرورية للحياة الاجتماعية والإعتماد المتبادل بين أجزائها . هذا فضلا عن أن هوبهاوس يتناول مشكلات المجتمع من وجهة نظر الفلسفة التطورية . ولكنه مع ذلك يتميز بكونه عالم اجتماع واسع العلم . يميل للديموقراطية فى مجال فكره السياسى.

ونجد هوبهاوس يناقش علاقة علم الاجتماع بعلم السياسة . فيقول إن علم السياسة فرع متخصص من علم الاجتماع . حيث أن علم السياسة يدرس التنظيم السياسى داخل المجتمع . ويرى أن فهم موضوع علم الاجتماع هو من أجل التقدم الاجتماعى . فهو علم التقدم الإنسانى .فتفاعل الدوافع الإنسانية وتفاعل الأفراد هو العنصر الأساسى فى العملية الاجتماعية . وهو الموضوع الرئيسى للتطور الاجتماعى وهذا التفاعل هو الحقيقة الأساسية فى الحياة الاجتماعية . وكأن التأثير الذى يمارسه على الأفراد هو الحقيقة الأساسية فى التطور الاجتماعى .

ومن وجهة نظر هوبهاوس إن التقدم الاجتماعى هو الهدف الأساسى للدراسات الاجتماعية ويفرق بين التقدم والتطور . فيرى أن التطور أعم وأشمل . فقد تتضمن تقدما ، وقد يتضمن تطوراً . أما المقصود بالتقدم الاجتماعى فهو نمو الحياة الاجتماعية من حيث الصفات التى لها قيمة عند الإنسان . ولا يعتمد التقدم الاجتماعى على

العوامل البيولوجية .بل إنه شيء ثقافى ينتج عن عوامل نفسية واجتماعية

والتقدم الاجتماعى عند هوبهاوس هو نهاية المطاف فى عملية التطور الاجتماعى . وهو ينطوى على إزدياد تكيف الأفراد مع المجتمع وتناسق أشكال التنظيم الاجتماعى المختلفة . وتناسق المجتمع ككل مع بيئته ويشير إلى أنه من الممكن أن نعتبر التقدم الاجتماعى تطوراً لمبادىء الوحدة والنظام والتعاون والانسجام بين الكائنات الانسانية . فالمجتمع المثالى هو الذى يسير نحو هذا التقدم هو ذلك المجتمع الذى يتحقق فيه هذا الإنسجام والتناسق . كما أن المجتمع المثالى هو الذى يعيش ويزدهر بالنمو المتناسق بين أجزائه ، كل منها يتطور فى إتجاهه الخاص وتبعا لطبيعته الخاصة وهو يساعد على تطور الأجزاء الأخرى .

وهذا التوافق والتناسق لا يتم بطريقة آلية أوتوماتيكية . ولكنه يتحقق عن طريق أو بفعل الإرادة والذكاء ، والجهد الحي .

ولذلك فإن الضبط الاجتماعى الرشيد لظروف الحياة يمكن أن يكون دليلاً على التقدم الاجتماعى . ومن هنا يمكن أن نأخذ نمو العقل الاجتماعى وسيطرته وتحكمه فى ظروف الحياة على أنه مقياس للتقدم وهكذا فإن الخصائص المميزة للعصر الحديث أن الحضارة أصبحت لها اليد العليا ، وأصبحت ظروف الحياة المادية تحت سيطرة الإنسان ، وأن ذلك ساعد على وضع أسس النظام الاجتماعى الذى يكفل التطور والتقدم.

ثالثاً : أرنولد توينبى Arnoild Toynbee

حقق أرنولد توينبى شهره واسعة لإهتمامه بالتاريخ السوسيولوجى ، أو علم الاجتماع التاريخى ، أو المقارن وكان كتاب "دراسة التاريخ أهم كتبه وأشهرها ".

أثرت الحرب العالمية الأولى فى توينبى وجعتته يتجه للشئون العامة ، ومنذ ذلك الوقت ربط بين الكتابات التاريخية ، خاصة تاريخ الشرق الأدنى المعاصر ، وبين نشاطه فى الحياة العامة .وكتب كتابا عن القومية والحرب ، حيث تناول علاقة القومية بالحرب العالمية الأولى.كذلك كتب كتابا عن اليونان المعاصرة ، وتركيا المعاصرة ، وقام بزيارة عدد كبير من بلدان العالم القديم والحديث .

وقد درس توينبى حضارات العالم التى ظهرت من قبل ، وكرس جهوده فى هذه الدراسات لمشكلة نمو الحضارات وانهيارها ، والمبادىء التاريخية التى نلاحظها عند دراسة الحضارات والعمليات الداخلة فى تكوين هذه الحضارات وكتب بعد ذلك عن نضوج الحضارات وانحدارها وسوء تكاملها .

كذلك إهتم توينبى بكتابه تاريخ الحرب العالمية الثانية ،

اعتقادا منه أن على المؤرخ أن يهتم بالمسائل العامة ويضع تعاليمه وطاقته فى خدمة بلده والعالم بأسره وقد كان توينبى مسيحيا مخلصا . يرى أن الخلاص الكلى للإنسانية يكمن فى تمسك الحضارة الغربية بالتعاليم والقواعد المتضمنة فى المسيحية .

وتتمثل إسهامات توينبى فى علم الاجتماع فيما يطلق عليه حاليا دراسة الثقافة دراسة قائمة على أسلوب دراسة الحالة Case study . وقد قدم لنا أمثلة هامة لإمكانية دراسة الثقافة من وجهة نظر علم الاجتماع التاريخى .

هذا وتعتبر دراسات توينبى من وجهة نظر علم الاجتماع إسهاما بارزا فى مجال علم الاجتماع المقارن . وتختلف عن الدراسات الأولى لعلماء الانتروبولوجيا والاجتماع التاريخى . من حيث أنه اهتم بالحضارات التاريخية بدلا من أن يكرس كل جهده لدراسة المجتمعات البدائية .

رابعاً : بعض الإتجاهات العامة فى دراسات علم الاجتماع البريطانى :

بعد أن استعرضنا بعض اسهامات علماء الاجتماع البريطانيين ومن أهمهم هربرت سبنسر وهو بهاوس تجدر الإشارة إلى بعض الإتجاهات التى غلبت على دراسات هذا العلم فى بريطانيا ومن أهمها :-

١- المسح الاجتماعى :

وقد إشتهر هذا الأسلوب فى بريطانيا على يدى تشارلز بوث Charies Booth. . رونترى Rowntree . حيث إهتم هؤلاء باجراء دراسات مسحية لاستجلاء ظواهر الفقر فى لندن . وكذلك أحوال الطبقة العاملة . وقد غلبت على هذه المسرح الأهداف العلمية. سواء للكشف عن ظواهر معينة . أو الحصول على مادة علمية تمهيدا لإجراء خطة عن ظواهر معينة .

٢- الممارسة الاجتماعية :

ظهرت دراسات كثيرة فى علم الاجتماع البريطانى كان هدفها خدمة الممارسة العملية ،والإسهام فى صنع سياسة عملية . وقد ظهر فى كثير من أعمال مانهايم ،الذى كان كتابه فى علم اجتماع المعرفة يتضمن محاولة قديمة لعلم الاجتماع تتمثل فى الوصول إلى مذهب فى السياسة العملية وكذلك كتابه " الحرية ، والقوة والتخطيط الديمقراطى". فضلا عن إنشغاله وغيره من الكتاب بمسألة تحقيق التكامل .

٣- علم الاجتماع الصناعى :

وفى ضوء إزدهار الصناعة ، وإنتشار الثورة الصناعية إزدهر علم

الاجتماع الصناعى الذى يركز أساسـا علـى العلاقـات الإنسـانية فـى الصناعة . ونتائج عملية العمل الرشيد . ومشكلات الصناعة واسلوب اتخاذ القرار داخل المصنع . وهكذا إنتعش هذا الفرع الجديد من نـوع علم الاجتماع فى بريطانيا.

٤- الطبقات الاجتماعية :

كذلك ظهر إهتمـام كبـير فـى مجـال علـم الاجتمـاع البريطـانى بمناقشة طابع البناء الطبقى للمجتمع الصناعى الحديث . وقد تجلـى ذلك فى أعمال بوتومور " الطبقات فـى المجتمـع الحديـث " دراسـة مقارنة لمفهوم الطبقة والبناء الطبقى . إلى جانب أعمـال " مارشـال " عن المواطنه والطبقة الاجتماعية حيث يصف التغيرات التـى تحـدث فى بناء المجتمع البريطانى الحديث .

ولقد أدت هذه الإهتمامات والأعمـال المؤيـدة التـى أظهرتهـا إلى نشأة فروع متميزة فى مجال علم الاجتماع البريطانى ونشرت دراسات عديدة يصعب حصرها هنا تعبر عن هذه الإتجاهات أو التيارات التى تميز بها علم الاجتماع فى بريطانيا .

جـ - فى ألمانيا

تمهيد :

لم يكن معظم علماء الألمان فى بداية دراساتهم متخصصين فى علم الاجتماع ، ولكنهم تلقوا تعليما فى الفلسفة ، أو الاقتصاد ، أو القانون أو الأنثروبولوجيا ، وشغلوا كراسى الأستاذية فى هذه التخصصات وليس فى علم الاجتماع . ومع ذلك كانت لهم إسهامات هامة ومتعددة فى علم الاجتماع . الأمر الذى خلق أمامهم أشكالا كثيرة من المعارضة والعقبات .

وقد ثار جدل كبير فى الكتابات السوسيولوجية الألمانية حول إمكانية تطبيق طرق البحث فى العلوم الطبيعية ، على العلوم الاجتماعية ، واختلف العلماء حول مؤيد ، ومعارض . فالمعارضون رأوا أن مجال المادة وهو موضوع العلوم الطبيعية ، يختلف عن مجال النفس وهوموضوع العلوم الاجتماعية . أما المؤيدون فرأو أن العلوم الاجتماعية قد تستخدم طرق العلم الطبيعى فى البحث بطريقة نافعة . وذلك باستثناء التاريخ الذى يدرس الجوانب الفردية والفريدة فى مجال الظواهر الاجتماعية ، وهذه الدراسة لايمكن الإستدلال على أساسها .

ومع ذلك فقد هاجم المؤرخ الإنجليزى أرنولد توينبى هذا الزعم قائلا بأنه يمكن استخلاص بعض القوانين العامة التى يسير عليها التطور التاريخى .

ويمكن القول أن العلماء الألمان هم أول من وضعوا أسس علم الجغرافيا البشرية ، وهو العلم الذى يدرس العلاقة بين الإنسان والمجتمع والبيئة المادية . ولاتزال كتابات "راتزل" فى هذا المجال تمثل منزلة راقية بين الكتابات فى هذا العلم فى العالم العربى بأسرة . وقد إنشغل بالتوفيق بين مبادىء التطور البيولوجى ، وعملية التأثير الجغرافى على النوع الإنسانى .

كذلك إهتم العلماء الألمان بالإتجاه البيولوجى فى علم الاجتماع وحاولوا إجراء تطبيقات مختلفة على فروض داروين Darwin عن العمليات الاجتماعية . وقد عبروا كثيرا عن فكرة المماثلة بين الكائن البيولوجى ، والوحدات الاجتماعية . وأحيا بعضهم فكرة الكائن العضوى الاجتماعى ، واتخذوا منها أساساً لأفكارهم فى الإصلاح الاجتماعى . وفى هذا المجال دافع " جمبلو فتش " بحماس كبير عن التماثل بين " الداروينية الاجتماعية " ، أى الحرب وصراع الأجناس من ناحية ، وبين التطور العضوى من ناحية أخرى .

كذلك نسب أصل الدولة ونمو بنائها الاجتماعى إلى أثر الحرب

وصراع الجماعات الاجتماعية . وقد شاع بين العلماء الألمان هذا الإتجاه وهو تطبيق مبادىء دارون فى التحليل الاجتماعى . وبذلوا جهدا كبيرا لوضع نظرية عن التطور الاجتماعى فى حدود مبادىء الوراثة . والإنتخاب الطبيعى ، والتغاير والصراع من أجل البقاء . والبقاء للأصلح . وقد مثلت هذه الجهود تطورا كبيرا فى مجال علم الاجتماع فى ألمانيا وغيرها . حيث حاولوا تطبيق المبدأ التطورى فى كل من المجتمع والثقافة .

وإلى جانب الجهود السابقة كان لرواد المدرسة الألمانية الاجتماعية إسهامات متميزة فى مجال علم النفس . سواء علم النفس الشعبى أو علم النفس الاجتماعى . أو الرأى العام . أو علم الاجتماع النفسى الذى يدرس العوامل النفسية المؤثرة فى حياة الجماعة .

وقد دافع عدد كبير من العلماء الألمان عن علاقة علم الاجتماع بالتاريخ . فقالوا أن علم الاجتماع من حيث تكوينه هو تاريخ متسع وغنى . ويمكن القول أن علم الاجتماع والدراسات الاجتماعية فى ألمانيا قد تأثرت إلى حد كبير بالبيئة والأفكار والمؤثرات السائدة فى مجتمعهم. ومن هنا فإن الأساس البيئىء للنظريات الاجتماعية قد أسهم ما يعرف بإسم علم اجتماع المعرفة الذى حدد معالمة ماكس شيللر

Max Scheler . وأسهم فيه كـارل مانهـايم Karl Manheim بجـهـد كبير منذ أن صدر كتابه " الايديولوجيا واليوتوبيا " .

وسوف نتناول في هذا الفصل إسهامات كل من فرديناند تونـيز F.Tonnies . وجورج زيمل George . وماكس فيبر Max weber .

١- فرديناند تونيز F. Tonneis :

ولد تونيز في مقاطعة في شمال ألمانيا عام ١٨٥٥ . لأسرة تعمل بالزراعة منذ فترة طويلة . وقد درس تونيز فقة اللغة الذى أثر هذا النوع من التعليم فـي إتجاهـه لدراسـة الفلسـفة الاجتماعيـة . والعلـوم الاجتماعية وقد تأثر بعدد من العلماء والكتـاب . وخاصـة أحـد علمـاء الإقتصاد ويدعى فاجنر Wagner وكان هذا الأخير يؤمن بضـرورة قيـام الدولة بتنظيم متزايد للحياة الاجتماعية . لذلـك تـأثر تونـيز بفكـرة أو مذهب إشتراكية الدولة . وبعد ذلك إهتم تونيز بكتابات تومـاس هوبـز Thomas Hobbes وكان هوبز من أعظم المدافعـين عـن سـلطة الدولـة التى لا نهاية لها . وقد أدى ذلك إلى أن يكرس تونيز جهدا كبيرا لقـــراءة الفلسفة السياسية ، والقانون الطبيعى ، فضلا عن العلوم الاجتماعية .

وقـد ألم بقـدر كبـير مـن الكتابـات الألمانيـة . والإنجليزيـة والفرنسية ومن مجمل قراءاته تصور أن كل صور التفكير غـير العقلانـى

أو غير الرشيد لها معناها الخاص . وهى فى النهاية مشتقة من الإرادة الإنسانية . وأصبحت النظريات الاجتماعية من وجهة نظره تعبيرات عن الإرادة الاجتماعية . وإنعكاس للظروف الاجتماعية الواقعية .

كذلك إتضح له أن بعض الأفكار كالشيوعية . والإشتراكية لاينبغى إعتبارها مجرد صور ذهنية أو خيالية . بل فى حقيقة الأمر صور من الحياة الاجتماعية الواقعية . فالدراسات الاثنوجرافية الحديثة أثبتت وجود الشيوعية البدائية . وأدرك تونيز أن تاريخ الإنسانية قد مر بعدة مراحل بدأت بالشيوعية البسيطة . وإنتقلت إلى مراحل مختلفة من النزعة الفردية . ثم إلى الإشتراكية العالمية . وقد عرض تونيز كل هذه الأفكار فى مؤلفه الشهير " المجتمع المحلى والمجتمع العام"

ولقد كان تونيز محافظا . ومع ذلك فقد إشترك فى كل الحركات التقدمية الهامة التى ظهرت فى عصره . فقد إشترك فى فرعين من فروع الحركة العمالية المنظمة . وهما الجمعيات التعاونية الإستهلاكية . والنقابات العمالية المنظمة . معتقدا أنهما قد يمهدان الطريق لقيام مجتمع أفضل .

كذلك إشترك تونيز فى تأسيس الجمعية السوسيولوجية الألمانية . وظل رئيسا لها عدة سنوات . وكان عضوا شرفيا فى الجمعية

السوسيولوجية الأمريكية . وكان على صلة وثيقة بكل مشاهير عصره من الكتاب والفنانين ورجال السياسة .

أهم نظرياته وكتاباته :

تضم كتابات تونيز كثيرا من الموضوعات . والمجالات الواسعة في علم الاجتماع . والفلسفة الاجتماعية . والاقتصادية والسياسية . وتشكل نظرية تونيز عن المجتمع المحلي والمجتمع العام . والتي تعرف بإسم Gemeinschaft and Gesellschaft . تمثل مرتكزا لأفكار تونيز عن كثير من المفهومات الاجتماعية . كذلك فإنه شهرته العالمية في مجال علم الاجتماع مستمدة من هذه النظرية .

ولقد تميز كتابه عن المجتمع المحلي والمجتمع العام بقوة التفكير . وجمال الأسلوب . ويضم بين دفتيه الأسس النفسية الاجتماعية والمقولات السوسيولوجية الأساسية .

وقد طبق تونيز مفهوماته الأساسية عن المجتمع المحلي والمجتمع العام على دراسة ظواهر خاصة من الحياة الاجتماعية . كالأخلاق . والطرق الشعبية Morals and Folkways . فضلا عن تطبيقها في مجال الرأى العام . ولم تتوقف إسهامات تونيز عند هذا

الكتاب وحدة . ولكن نظريته السوسيولوجية تطورت ونضجت بعد ذلك ووصلت إلى آفاق أرحب . وهناك أجزاء من نظريته فى علم الاجتماع لم يعرفها معرفه جيده سوى تلاميذه ، حيث لم تظهر فى صورة كاملة ،بل ظهرت فى عدة مقالات . ولذلك نقول إن كتابه المجتمع المحلى والمجتمع العام أكثر نفعا ، ولاغنى عنه لفهم نظرية تونيز فى علم الاجتماع .

وحينما درس تونيز نظرية توماس هوبز فى القانون ونظرية الدولة تعاظم إهتمامه بمشكلات المجتمع ، وفلسفة القانون . كذلك تجدر الإشارة إلى أعمال تونيز فى مجال الدراسات الامبريقية (أو الواقعية) ، تلك الأعمال التى كرس لها جزءاً هاما من حياته . فقد أجرى عدة مسوح اجتماعية عن العاملين فى الملاحة ،والموانى البحرية ، والتى طلب إليه القيام بها بعد إضراب قام به العمال فى هامبورج . كذلك أجرى دراسة عن العلاقة بين بعض الظواهر الأخلاقية والظروف الاقتصادية والاجتماعية فى إحدى المدن . وكتب عدة مقالات عن الجريمة فى تلك المدينة ، وتعتمد هذه المقالات على معلومات جمعها من السجون الرئيسية . هذا إلى جانب دراسة عن الإنتحار فى المدينة ، والتغيرات الدورية فى معدلات الزواج ونسبة المواليد الذكور إلى الإناث

فى بعض الفئات الاجتماعية والاقتصادية . وهكذا كانت دراسات تونيز متعددة ومتشبعة غطت كثيرا من المجالات الاجتماعية.ومع ذلك فسوف نمنح بعض التركيز لنظريته عن المجتمع المحلى والمجتمع العام لما نالته من شهرة جعلتها علامة متميزة على طريق نمو علم الاجتماع الألمانى .

المجتمع المحلى والمجتمع العام :

يمثل مبدأ العلاقات الإنسانية ، أو الحقائق الاجتماعية المجردة الأساس لنظرية تونيز . ويقوم هذا المبدأ على التمييز بين مفهومين أساسيين هما المجتمع المحلى والمجتمع العام . وهذان المفهومان يشكلان موضوعا أساسيا للمناقشة بين الفلاسفة الإجتماعين منذ عهد أرسطو .

ويعتبر كل منهما صورة من جانب واحد لواقع الحياة الاجتماعية . ولقد قصد تونيز بهذين المفهومين الإشارة إلى التباين الشكلى أو التصورى الواضح بين نمطين أساسيين من أنماط الحياة الاجتماعية وهما نمطان متعارضان لصور اجتماعية واقعية ملموسة . وقد لاحظ أن من يكتب عنهما بتناول أحدهما فقط دون الآخر .

وإذا كنا قد أشرنا إلى تأثير هوبز على تونيز ، فيمكن القول أن

هوبز ميز بين الدولة الطبيعية . والدولة السياسية . وكان هـذا تمهيـدا لظهور مفهومـى المجتمـع المحلـى والمجتمـع العـام . كذلـك أسـهمت المعلومات التى أتيحت نتيجة الدراسات الانتروبولوجية الثقافية . وفقه اللغة . والقانون المقارن فى بلورة مفهـوم المجتمـع المحلـى والمجتمـع عند تونيز . فعلى سبيل المثال تأثر تونيز بكتاب " مورجان Morgan " عن المجتمع القديم إلى جانب تأثيره بفلاسفة الحقوق الطبيعية الألمـان. والإنجليز . والأمريكان .

ونجد تونيز يعـترف بفضـل السـير هـنرى مـين Sir H.Maine خاصة فى فكرته عن إنتقال المجتمعات الإنسانية من المنزلة أو المكانـة الاجتماعية إلى التعاقد .

ومن الواضح أن التمييز بين المجتمـع المحلـى والمجتمـع العـام كمفاهيم أساسية للجماعات الاجتماعية يتطلب التميـيز بـين الكيانـات الاجتماعيـة العضويـة . والكيانـــات الآليـة أو الميكانيكيـة . أو بـين العلاقـات التـى تنشـأ طبيعيـا مـن عواطـف المشـاركة الوجدانيـة . والعلاقات التى تتكون بطريقة شعورية مقصودة ومن أجل غرض محدد.

ويثير تونيز هنا عددا من القضايا على النحو التالى :

(أ)ينبغى أن ننظر إلى كل العلاقات الاجتماعيـة بإعتبارهـا مـن خلـق

الإرادة الإنسانية . وتظهر كوقائع اجتماعية من خلال طريق واحد هو إرادة الأفراد فى الإرتباط معا .

(ب)هذه الإرادة وما ينشأ عنها من علاقات داخلية بين الأفراد المترابطين مع بعضهم البعض . هى من طبائع متنوعة . فقد تكون الجماعة أو العلاقات أمورا مرغوبا فيها من أجل تحقيق غاية محددة تتمثل فى اللامبالاه التامة . أو النفور من الشركاء (كما هو الحال فى الشركة التجارية مثلا) . أو قد تكون العلاقة ذات قيمة فى حد ذاتها (كالصداقة) بسبب المشاركة الوجدانية القائمة بين الشركاء . وهنا ميز تونيز بين نوعين من الإرادة هما الارادة العاطفية .والإرادة الرشيدة (أو الإرادة الرئيسية . والإرادة التحكمية) والإرادة الرشيدة هى التى تميز بين الغاية والوسيلة .

(ج)والإرادة العاطفية ليست بالضرورة إرادة غير رشيدة . بل على العكس قد يستطيع المرء التمييز بين درجات من الرشاد فى الإرادة العاطفية . والمجتمعات المحلية المشتقة منها . ويكون المعيار أو المقياس هنا بادئا من المشاركة الوجدانية الغريزية بين الأفراد المترابطين ترابطا بيولوجيا فهذه هى التى تحدد الإرادة الفردية . هذا بالإضافة إلى إعتبارات أخرى كأن تعتمد الإرادة الفردية على

علاقة تنشأ عن التشبث العام بقيم معينة كعلاقة الدم والجوار والأسرة والمجتمع المحلى والطائفة المهنية .

وقد هوجمت تصورات تونيز على أساس أنها تصورات نظرية أو تصنيفية . ولكن تونيز لم يكن يقصد ذلك . بل أكد على أن هذه المفاهيم تعبر عن أنماط مثالية لاتوجد بهذه الصورة فى العالم الواقعى . ولذلك فهى لاتستخدم كنماذج تصنيفية . بل ينبغى إعتبارها كسمات موجودة بنسب متباينة فى الكيانات الواقعية . فإذا قلنا أن الأسرة مجتمع محلى . فإن مهمة عالم الاجتماع هنا أن يحدد مدى توافق الأسرة مع موقف واقعى مثل أسرة العامل فى مدينة كبيرة مثلا . وهل توافق الأسرة مع مجتمع محلى أكثر من توافقها مع موقف أو مجتمع آخر مثل الأسرة فى المزرعة . ويقول أننا إذا أخذنا هذه المفاهيم على هذا النحو فإنه يصبح من الممكن إستخدامها فى دراسة الظواهر التاريخية دون تشويه فى منطق النظرية .

والواقع أن مفهومى المجتمع المحلى والمجتمع العام غير متناقضين تماما . فالسلوك الإنسانى لايحركة العقل وحدة ولكن تحركة أيضاً الميول والعواطف . أى تحركه أساسا الإرادة الطبيعية العاطفية . كما تحركه الإرادة الرشيدة إلى حد ما . أى أن الروابط والتنظيمات لها

بالضرورة أساس فى المجتمع المحلى . أى أن المفهومين متدخلان من أخلاق وغير متناقضين .

النظرية والبحث عند تونيز :

حظى كتاب المجتمع المحلى والمجتمع العام شهرة واسعة فى المانيا ولكنه لم يحظ بمثل هذه الشهرة والتقدير فى أمريكا . ذلك أن علماء الاجتماع الأمريكيين لايهتمون كثيرا بما يسمى علم الاجتماع النظرى . ومع ذلك فقد إعتقد تونيز فى إمكان التوصل إلى مناهج للبحث فى العلوم الاجتماعية . ولم ينظر إلى النظرية بإعتبارها غاية فى حد ذاتها ،أو مشتقة أو منفصلة عن البحث الاجتماعى . فهو يميز بين ثلاثة فروع لعلم الاجتماع لكل منها جوانبه المعرفية وطرقه البحثية :-

(١)علم الاجتماع النظرى .

(٢)علم الاجتماع التطبيقى .

(٣)علم الاجتماع الامبيريقى أو السوسيوجرافيا .

وفكرة علم الاجتماع النظرى تتفق تقريبا مع فكرة علم الاجتماع العام الذى نعرفه فى الوقت الحاضر.وموضوع هذا العلم هو دراسة الكليات الاجتماعية المجردة الثابتة ،وهى تتكون من العلاقات

الاجتماعية، والجماعات أو التنظيمات الاجتماعية. ويتكون هذا العلم من نسق من المفاهيم وهى وسائل ضرورية لوصف وفهم الظواهر الاجتماعية الواقعية.

أما علم الاجتماع التطبيقى فهو يهتم بتطبيق مفاهيم علم الاجتماع النظرى فى تحليل وتفسير المجتمعات التاريخية الواقعية. والعمليات الاجتماعية للتطور. ويتضح من هذا أن المعنى الأصلى لعلم الاجتماع هو أنه فلسفة علمية للتاريخ، كما كان يدركه أوجست كومت. والإختلاف بين علم الاجتماع النظرى وعلم الاجتماع التطبيقى هو أمر مساو للإختلاف بين النظرية الاستاتيكية، والنظرية الديناميكية عن المجتمع. وأبعد من هذا فإن هذا الإختلاف يرجع إلى الإختلاف بين المنهج التجريدى والمنهج الاستلالى. ففى علم الاجتماع التطبيقى ينبغى جمع المعلومات الإمبيريقية وتنظيمها وتفسيرها تبعا لمبدأ التطور العام من المجتمع المحلى إلى المجتمع العام.

وأخيرا فإن الدراسة السوسيوجرافية للظروف والعمليات الاجتماعية الحالية، أو ما يسمى علم الاجتماع الإمبيريقى، فيستخدم الطرق الاستقرائية أو الإمبيريقية، لأن كل البيانات المطلوبة فى هذا المجال إما أنها موجودة، وإما أنه يمكن الحصول عليها.

فالدراسات الإمبيريقية تستخدم مفاهيم علم الاجتماع النظرى من أجل إختبار الحقائق وتنظيمها . ويتفق هذا المفهوم للسوسيوجرافيا مع النموذج الحديث للمسوح الاجتماعية . والدراسات الايكولوجية المنتشرة فى أمريكا والتى تقوم على الدراسة العلمية للحقائق السوسيولوجية كما تبدو فى المجتمعات المحلية . أو الجماعات الواقعية الملموسة .

وهكذا يتضح أن فكر فرديناند تونيز كان فكرا خصبا أثرى نظرية علم الاجتماع . وأرسى دعائم المدرسة الألمانية باعتباره أحد روادها المؤسسين .

٢- جورج زيمل : George Simmel

يعتبر جورج زيمل من وجهة نظر علماء الاجتماع الزعيم الفعلى للمدرسة الألمانية فى علم الاجتماع . فقد كان من بين العلماء الذين إنتقلوا بهذا العلم من التقليد الكلاسيكى إلى عصر النهضة فى أواخر القرن التاسع عشر . وذلك فى مجال النظرية والبحث السوسيولوجى على حد سواء . وفضلا عن ذلك فإنه ينظر إليه على أنه زعيم الإتجاه الصورى أو المدرسة الشكلية فى علم الاجتماع . وقد كان فيلسوفا بالدرجة الأولى . فقد إهتم بمشكلات المجتمع إلى جانب التاريخ .

والفنون الجميلة ، والأدب . وقد ترجمت كتاباته إلى كثير مـن اللغـات الغربية . الأمر الذى أكسبة شهرة كبيرة .

موضوع علم الاجتماع عند زيمل :

لايتفق زيمل مع القول بأن علم الاجتماع هو العلم الـذى يـدرس كل الحقائق الاجتماعية . أو كل ما هو إنسانى . فذلـك يوسـع نطاقـة ولايمكن البـاحثين مـن الإحاطـة بكـل جوانبـه . ولكنـه يـرى أن علـم الاجتماع يجب أن ينفصل عن العلوم الخاصـة التـى يـدرس كـل منهـا موضوعـاً اجتماعيـاً محـدداً . ويـرى أن العلـوم الاجتماعيـة التـى تقـوم حديثـا يجـب أن تعتمـد علـى التجريـد ، بمعنـى أن تجـرد حقائقهـا وموضوعاتها مما تنطوى عليه من مادة ، وذلـك مـن أجـل الوصـول إلى مبادئها الجوهرية والشكلية . ويطبق هذه النظرة على علـم الاجتمـاع ، فهو عنده علم نظرى مجرد موضوعة دراسة العلاقـات الاجتماعيـة فـى صورها الخالصة ، أى دراسة أشـكال التفـاعلات الاجتماعيـة المتبادلـة التى تحدث فى كل ميادين الحياة الاجتماعية ، ولايـدرس هـذا العلـم الحقائق المادية التى تنطوى عليها الظواهر . فهذه متروكه أو يجب أن تترك للعلوم الاجتماعية الخالصة التى تعـالج مختلـف ميـادين النشـاط الاجتماعى . أما مهمة علم الاجتماع فهى مهمة تجريدية مقصورة علـى

الوصول إلى أشكال العلاقات الاجتماعية .

وترتكز نظرية زيمل على التمييز بين طبيعة العلاقات الاجتماعية من ناحية الشكل أو الصورة . وما تنطوى عليه مضمون اجتماعى . لأن العلاقات التى تنشأ بين الأفراد فى المجتمع كالصراع والتنافس . والخضوع . وتقسيم العمل . والتقسيم الطبقى وغيرها موجودة فى مختلف ميادين الحياة الاجتماعية . ووظيفة علم الاجتماع هى تحليل هذه المظاهر المختلفة للعلاقات الاجتماعية حتى تصل إلى مقوماتها الأساسية . وخصائصها الذاتية . ثم تحاول تفسيرها فى صورها المجردة بعيدا عن تجسداتها أى مادتها فى المجتمع .

طبيعة المجتمع :

ينشأ المجتمع من وجهة نظر زيمل عن التفاعل النفسى بين الكائنات الانسانية كأفراد . وكأعضاء فى جماعات . والمجتمع فى الحقيقة ليس شيئا عاديا ولكنه عبارة عن عملية معقدة . فهو مجموعة من العلاقات المعقدة . أو الأحداث أو الوقائع . أو الأشياء الوظيفية التى يخلقها الأفراد . ويعيشوا فيها وتعبر عن تفاعل خبراتهم . وكثيرا ما كان زيمل يتجنب إستخدام كلمة المجتمع . ويستخدم بدلا منها

مصطلــح الهيئــة أو الرابطــة ليشــير إلى الطبيعــة الحقيقيــة للواقــع الاجتمـاعى. ومـع ذلـك فـإن التفـاعل النفسـى لايكـون عمليـة الـترابط Association . فليس الترابط مجرد تبادل النظرات بـين الأفـراد . أو بين فردين يمران فى الشارع ولكن الترابط يتكون من الظواهـر الكـبرى التى إذا مـا تكـررت تشـتد وتقـوى . ويكـون لهـا طبيعــة العمليــات الاجتماعيـة . فـالوجود معـا والـترابط الكـامل يفـترض أن يعمـل علــى إستمرار التأثير المتبـادل الكثيـف . وحتــى الجماعــات الكبــيرة أو التنظيمات . التى تتكون من العلاقات بين الأفراد . والتى تتطابق مـع فكرة المجتمع عند زيمل ؛ هــذه الجماعـات ليسـت سـوى تعبـير عـن التفاعلات المباشرة بين الأفراد . وهذه العلاقات ليست نفسية فحسـب ولكنها أيضاً علاقات أخلاقية .

وهذا القول عند زيمل يتضمن مبدأين أساسين :-

الأول : أنه فى أى نوع من أنواع التفاعل . عندمـا يفقد أحـد طرفـى العلاقة التفاعلية أهميته عند الطرف الآخر فـإن أى علاقـة يراهـا أحـد الطرفين هامة فى حين يراها الطرف الآخر مجرد وسيلة لتحقيـق غايـة لا ترتبط بالطرف الأول . أو إذا وجدت اللامبـالاه الكاملـة مـن جـانب

أحد الأطرف نحو الآخر. فإنه العلاقة الناشئة لا تعتبر علاقة اجتماعيـة على الإطلاق . بسبب عدم وجود رابطة فى مثل هذه الحالات .

الثـانى : يمكـن النظـر إلى المجتمـع علـى أنـه نسـق مـن العلاقـات الأخلاقية والقانونية التقليدية بين الأفـراد . وأن هـذه الرابطـة تتضمـن تبادل الحقوق والواجبات . وهذا المبـدأ يستخدم فـى تحليـل علاقـات القوة والسيادة والسيطرة . ولا مجال للإجبار فى العلاقـات الإجتماعيـة لأن التفاعل يتضمن بالضرورة قـدراً مـن الفعـل . والإختيـار . وإتخـاذ القرار. وهذا لايحدث من جانب الأفراد المجبرين .

ومعنى ذلك أن مفهوم التفـاعل الاجتمـاعى عنـد زيمـل يستبعد العلاقات التى قد تنشأ بين الإنسان والأشياء من مجال علم الاجتمـاع . أى أنها لكى تكون داخله فى مجال علم الاجتماع لابد أن تكون بين أشخاص.

وفضلاً عن ذلـك يـرى زيمـل أن العمليـات التـى قـد تـؤدى إلى الإنحلال هى عمليات هامة فـى حيـاة الجماعـة مثـل الـترابط تمامـاً . حيث أنه ليس هنـاك جماعـات متجانسـة تجانسـاً تامـاً . وإذا أمكـن وجود مثل هذه الجماعة فلن توجد فيها أية حيـاة . ولذلـك نجـد أنـه فى علاقات الزواج هناك قدر معين من الصراع. فهو عنصـر ضرورى .

كما أن المعارضة هى الوسيلة الوحيدة التى تساعد الأفراد الذين يقـــوم بينهم عداء على أن يتحملوا وجودهم معا فى رابطة واحدة .

ومع ذلك فإن الصراع وحدة لاينتج صوراً اجتماعية ، غير أن وجودها إلى جانب قوى الترابط يكونان معا الوحدة الواقعية الحية للجماعة .

ويتحدث جورج زيمل عن أن هناك قدرا مسموحا به من العداء بين أعضاء الجماعة . فالجماعات الكبيرة التى تتصف بدرجة عالية من التنظيم سوف تقاوم درجة أعلى من الإنقسام . وذلك بشكل أكبر مما تتحمله التجمعات الميكانيكية . فالدولة العصرية مثلا تستطيع أن تتحمل صراع الأحزاب السياسية . كما تستطيع إستخدام العداءات بين هذه الأحزاب لحفظ توازن الدولة وإستمرار تقدمها . على حين أن دولة المدينة اليونانية تحطمت بسبب الصراع الحزبى الداخلى . وهكذا تتفاوت حدة الصراع . كما يتفاوت معدل تحمل الجماعة لهذا الصراع وفقا لظروفها وبنائها .

بناء المجتمع ومشكلات النمو الاجتماعى :

تتطابق فكرة الصورة عند جورج زيمل مع فكرة البناء . فهو قد ناقش مثلما فعل الوظيفيون مشاكل السيادة والتبعية كظواهر أساسية . وميز بين ثلاثة أنماط رئيسية من السيادة والسلطة .

(٢) السيادة عن طريق شخص واحد .

(٢) السيادة عن طريق جماعة من عدة أشخاص .

(٣) التبعية لمبدأ موضوعى لاشخصى .

وترجع أهمية أفكاره هنا إلى تحليلة الدقيق للمواقف النوعية التى تنبع من كل نمط من هذه الأنماط الرئيسية .

ويتبع زيمل الأشكال التطورية فى الأسرة والدولة . وفى الشكل الاقتصادى أيضاً . فيحدث نفس التطور فى العلاقة بين صاحب العمل والعمال إلى الحد الذى يصبح فيه الطرفان تابعين لمبدأ التعاقد الموضوعى. ويحدث هذا الأمر بصفة خاصة إذا كا التعاقد يعتمد على اتفاق جماعى بين هيئة أصحاب الأعمال والنقابة العمالية .

وقد كان زيمل واعيا بالمزايا التى تنشأ عن تبعية الأفراد للعناصر الشخصية فى السلطة . ولكنه كان يفكر بشكل عام فى جعل علاقات السلطة علاقات لاشخصية لأن ذلك يجعل التبعية أكثر إحتمالاً و إهانة وقهراً . وقد أفاض كثيراً فى مسائل السلطة والتبعية والديمقراطية . والمعايير الواجب توافرها فيمن يتولى السلطة . فيرى أن الوظائف العليا فى الدولة العصرية تتطلب مؤهلات شخصية غير عادية

عند إختيار الشخص . ولاشك أن ندرة الأشخاص المؤهلين تأهيلاً عالياً تخلق صعوبات جديدة . ولكن يحقق هذا الأمر وهذه الصعوبة أن الأفراد الذين يختارون لهذه المناصب ، قد يتوافقون مع المهام الجديدة والضخمة من ناحية . ومن ناحية أخرى فإنه قد يتم التعجيل الموضوعى للوظيفة ذاتها . هذا الأمر الذى لايقوم على مؤهلات شخصية .

وقد أثار زيمل بعض التساؤلات فى هذا الإطار مثل ما الذى يؤدى إلى تكامل الجماعات . أو تفككها . وما الذى يجعلها تستمر خلال فترة طويلة من الزمن .

ولقد مثلت هذه الأفكار جوهر الفكرة الرئيسية عن المجتمع . فمناقشته عن إحتفاظ الجماعات بذاتها قد تعتبر معياراً لإسهاماته فى نظرية علم الاجتماع . فهو يتحدث عن إستمرار الهوية الخاصة بالجماعة رغم التغير الذى يحدث فى تكوينها أو تكوين أعضائها . فلاشك أن إستمرارها بالجماعة يتأثر أساساً بإستمرار الموقع المحلى ، أو الاقليم الذى توجد به . ومدى ترابط العواطف والمضامين الفكرية من الجماعات وتأثيرها بأرض الآباء أو الأجداد . وهنا يقول على الرغم من تشابه العلاقات إلا أن صفاتها السوسيولوجية تختلف تبعاً لإختلاف الفترة الزمنية التى تستمر فيها هذه العلاقات .

كذلك يرى أن الشرط الثانى لإستمرار الجماعة هو الإتصال الفسيولوجى بين الأجيال له أهمية عظمى من أجل إستمرار الجماعات الكبرى فى الوجود فإحلال جيل محل جيل أمر لايحدث فى الحال ولكنه يحدث خطوة خطوة أو بالتدريج . كما أن عضوية الجماعة تساعد على المحافظة على الثقافة ولإستمرارها . وإنتقالها . وهنا يعارض زيمل إعتماد الجماعة فى وجودها على حياة فرد واحد . أو حاكم . أو قائد . وهو يحذر من هذه الحالة من أن وضع الحاكم يجب أن يكون موضوعيا . بمعنى أنه ليس سوى تشخيص لروح غير شخصية أو فوق شخصية Super personal. أو لمبدأ مرتبط بالوضعية .

والتنظيم من وجهة نظر زيمل هو أهم شرط لإستمرار أى جماعة. فكل الهيئات تنشأ أساساً من التفاعل المباشر بين الأعضاء . ومن أدوارهم كأعضاء فى جماعة عن طريق التنظيم والوظائف التى تؤثر فى وحدة الجماعة . والجماعة المنظمة أقوى من الجماعة غير المنظمة . من حيث مقاومة الأخطار الداخلية والخارجية .

وهكذا نرى كيف أن جورج زيمل قد أحدث تأثيرا ملحوظا فى علم الاجتماع ظل حتى الوقت الحاضر . فقد تأثر به كثير من علماء الاجتماع الأمريكين مثل روس Ross. وسمول Small . وزنانيكى

Znaniecki وبيكر Becker وغيرهم .

ومع ذلك فإن هناك إعترافات كثيرة وإنتقادات أثيرت حول تأكيده على أن علم الاجتماع يدرس الصور الاجتماعية . ويرون أن دراسة العلاقات الاجتماعية دراسة مجردة وردها لعناصرها الأولية يخرجها عن طبيعتها ويجردها من معانيها الاجتماعية . فتبقى غير ذات دلالة مادية أو شيئية .

كذلك يرى النقاد أن تجريد العلاقات الاجتماعية وإرجاعها إلى عناصر أولية مجردة يقطع صلتها ويمزق وحدتها . لأن هذه العلاقات متداخلة ومتشابكه وسريعة التغير ، ودائمة التفاعل . ومن الملاحظ أن كل تغير يصيب ناحية من نواحيها لابد أن يتردد صداها فى باقى العلاقات . فلا يمكن دراسة العلاقات منعزلة أو مجردة . لأن مثل هذه الدراسة تصبح غير ذات جدوى . ومن ثم يجب دراسة المجتمع ككل . ويجب دراسة العلاقات دراسة موضوعية كما هى موجودة فى مختلف أوجه النشاط الاجتماعى .

وأخيراً أثار النقاد أن دراسة العلاقات الاجتماعية دراسة مجردة يتنافى مع فكرة القانون الاجتماعى ، إذ كيف نستطيع الوصول إلى قانون اجتماعى حول ظاهرة معينة مالم يكن ذلك مرتبطا بالأحداث

الاجتماعية ومقيدا لشروطها الزمنيــة والموضوعيـة إن مـن الصعب أن ندرس العلاقات الاجتماعية ونفهمهـا بطريقـة فلسـفية ميتافيزيقيـة لأن ذلك يفقدها خاصتيها الاجتماعية

وعلى الرغم من أهمية هذه الإنتقادات . إلا أن الإتجاه الصورى أو التجريدى الذى تزعمه زيمل . كان فى حد ذاته إسهاما كبــيرا فـى مجال نظرية علم الاجتماع

ثالثا : ماكس فيبر Max Weber :

ينتمى ماكس فيبر لأسرة ميسورة . فلقد عاش فى الفترة ما بـين (١٨٦٤-١٩٢٠) . وكـان والـده سياسـيا نشـطا . وكـان فيــبر يــدرس الإقتصاد والقانون فى مطلع حياته وتفوق فيهمـا . وقـد عـين فـى عـام (١٨٩٣) أستاذا للإقتصاد بالجامعة . وقد أصيب بإنهيار عصبى أبعـده عن الجامعة . ولم يعد إليها إلا قبيل وفاته بعامين . حيث كــان قــد حقق أقصى درجات النضج .

ولقد أثر مــاكس فيـبر فـى نمـو النظريـة السوسـيولوجية تأثـيرا واضحا . فعلم الاجتماع يتخذ عنده طابعا ذاتيا . ويعتـبر أحـد ثـلاث سيطر عليهم الإتجاه السيكولوجى . والآخران هما تومــاس Thomas

وبارتيو Pareto . خاصة فى حديثة الأخير عن الغرائز .

ولقد تعددت إهتمامات فيبر . ما بين الاقتصاد والمجتمع . والتاريخ الاقتصادى والإجتماعى . وعلم اجتماع المعرفة . والسياسة . والقانون . وكانت إهتماماته عملية . فلم يهتم بالموضوعات الأساسية فى علم الاجتماع . ومع ذلك كانت لديه قدرة تحليلية فائقة . فدرس موضوعات قد لاتبدو لصيقة بعلم الاجتماع . ولكنها أثرت النظرية السوسيولوجية بقدر كبير .

علم الاجتماع عند فيبر :

كأى عالم لايمكن فهم أفكار فيبر دون فهم المناخ الاجتماعى والعلمى والسياسى السائد فى عصره . وهنا فقد وجد فيبر أفكار ماركس وكانط شائعة . وإطلع كذلك على إسهامات تونيز وزيمل .

ولقد حاول فيبر أن يضيق الفجوة بين العلم الطبيعى . والعلم الروحى . وهنا فرق بين طبيعة العلوم الاجتماعية . والعلوم الطبيعية ما إذا كانت مهمة العلوم الطبيعية هى الوصول إلى الضبط الكامل . فإن مهمة العلوم الاجتماعية هى التقويم Evaluation . ولذلك يتعين على العلوم الاجتماعية أن تدرس القيم Values . وألا تفصل بينها وبين

المعايير والمثاليات التى تشتق منها موجهـات ضبط السلوك الواقعى ويتطلب الأمر أن يكون العلم الاجتماعى علما أمبيريقيا (واقعيا) يدرس الوقائع الملموسة .

ولقد كان لأفكار فيبر هذه تأثير كبير على فكـره وبحوثـه فلـم يهتم بتقديم تعميمات تنسحب على كل المجتمعات ولكنه قصـر إهتماماتـه وتعميماته على المجتمع الذى يعيش فى نطاقة . على الرغـم مـن أنـه فـى حالات أخرى قدم تحليلات أوجد لها تطبيقات فى ثقافات أخرى .

وأجرى فيبر دراسات مقارنة مكنته فى حياته من الإعتقـاد فـى امكان ظهور علم الاجتماع العام . وظهر ذلك جليا فى كتابه "الإقتصاد والمجتمع ". ولذلك يمكن القول بأن أفكارة الأولى لم تكن متعارضه مـع جوهر أفكاره فى السنوات الأخيرة . بل يمكن النظر إليهـا علـى أنهـا تمهيد لأفكاره الناضجة المتأخرة .

وفى محاولته التوفيق بين العلوم الطبيعية . والعلوم الروحيـة . ذهب إلى إمكانية تحقيـق أعلـى مسـتوى لفهـم الظواهـر الاجتماعيـة . بشرط أن يكون هذا الفهم سببيا . وملائما على مسـتوى المعنـى . وهنـا يثير تساؤلات ثلاثة :

- ماهو الفهم السببى الملائم ؟

- ماهو الفهم الملائم ذو المعنى ؟

- وكيف نربط بين الإثنين ؟

١ - *الفهم السببى :* *Causal understanding*

يقول فيبر فى مجال إجابته على التساؤل الأول إن تفسير الأحداث يكون سببيا بدرجة ملائمة إذا توصلنا من خلال الملاحظة إلى تعميم يؤكد تتابع الأحداث بنفس الطريقة . وهذا يجب أن يستند إلى سبب إحصائى بقدر الإمكان . وإذا تعذر الإحصاء فيجب اللجوء إلى المقارنة .

ولقد إستخدم فيبر المقارنات التاريخية وتحليلاتها بشكل واسع فحاول إختبار صدق القضية التى تقوم عليها الماركسية وهى كون الاقتصاد هو أساس تفسير كل الظواهر بما فيها الثقافية والدينية . حيث يذهب ماركس إلى أن الإصلاح البروتيستانتى كان ناتجا عن ظهور الرأسمالية . ولكن حينما قرر فيبر إختبار هذا الفرض حصل على نتائج مختلفة . فيقول إن الرأسمالية عبارة عن مشروعات هادفة إلى الربح . وتربط فيما بينها بعلاقات سوقية . والرأسمالية بهذا المعنى نمت وإزدهرت فى أماكن كثيرة عبر التاريخ . ولكن الرأسمالية الحديثة

شيء مختلف . فهى تتميز بالطابع العقلى الرشيد للعمل الحـر . ومـن هنا ينتقل إلى أن الرأسمالية الحديثة كانت نتاجا لظهور البروتسـتنتيه. وخاصـة الكالفينيـة (نسـبة إلى حنـا كلفـن) . ويفـترض أن المنـاطق الألمانية التى تسودها البروتستانتية أكثر ثراء من المناطق الكاثوليكيـة . ثم حاول التأكد من هذا الفرض فتوصل إلى وجود إرتباط سببى بين نمـو الرأسمالية الحديثة والبروتستانتية .

وفى بحثه حـول إثبـات العلاقـة السـببيه بـين روح الرأسماليـة الحديثة . وروح البروتستانتيه . أشار إلى الروح على أنها نسق السلوك الإنسـانى . ويذكـر أن البروتسـتانتية . وخاصـة المذهـب الكـالفينى لايشجع التملك بشكل مباشر . ولكـن يؤكـد علـى ضـرورة الخـلاص . وهذا الخلاص يعتمد على المصير الذى تحدده إرادة الله أى أن الإنسان لايستطيع أن يفعل شيئا لتحقيق هذا الخلاص . ولما كان الخـلاص هـو بؤرة الحياة الدينية للإنسان . فإنه سيسعى بالضرورة لمعرفة ما إذا كان مـن المختـارين أولا : لأن النجـاح فـى الأمـور الدنيويـة والتـى ترتبـط بالعمل. يعتبر دليلا قاطعا على أن الشخص من بين المختارين . ومهما كان العمـل الـذى يناسـب الشـخص فإنـه يتحتـم أن يكـون لـه نظامـا مجددا، وأن يؤديه بصفة منظمـة . وهكـذا فـإن فيـبر يعتـبر أن هنـاك

إتفاقا بين غايات السلوك الدينى ـ والسلوك العلمـانى ـ بحيـث يمكـن القول أن نشأة التوجيه الأخلاقى البروتسـتانتى كـان شـرطا ضروريـا ـ لظهور الرأسمالية الحديثة أى أن غايات الفعل فى الكالفنيـه تـوجـه المؤمنين إلى إتباع سلوك يتفق مع الروح الرأسمالية الحديثة .

وإستنتاج فيبر هنا يشبه طريقة التلازم فى الحدوث ـ وطريقـة الإتفـاق فـى المنـاهج الحديثـة لعلـم الاجتمـاع ـ وفـى محاولـة تـأكيد استنتاجه إستخدم طريقـة الإختـلاف ـ فيتسـاءل عمـا كـان يمكـن أن يكون عليه حال الرأسماليه الحديثة لو وجدت كل الظروف أو العوامـل التى وجدت بإستثناء " الدين " . وهنا أجرى عددا كبيرا من الدراسات المقارنه عن الصين والهند . ولم يؤكد الأهميـة السـببية الممكنـه لعوامـل أخرى ـ وهذا الإعتقاد أضعف من قوة إستنتاجه السابق .

ومن مجمل دراساته عن الصين والهند توصل إلى أن هناك ظروفا اقتصادية ملائمة لنمو الرأسمالية الحديثـة ، وظـروف أخـرى لاتشـجع على ذلك. ولذلك لابد من وجود قوة دافعيـة معينـة تتمثـل فـى القبـول السيكولوجى للقيم والأفكار التى تلائـم التغـير . ومهمـا تكـن مصداقيـة النتيجـة التـى توصـل إليهـا فيـبر عـن تأثـير البروتسـتانتية علـى نمـو

الرأسمالية الحديثة إلا أنه قدم لنا خطوات عملية للوصول إلى فهم سببى ملائم للتتبع التاريخى الذى لايعتمد على معالجات إحصائية . أى أنه مهد لظهور التجربة السوسيولوجية ، أو شيئا قريبا منها .

٢- الفهم على مستوى المعنى والفعل :

يقول ماكس فيبر فى هذا إن الكائنات البشرية غالبا ماتكون على وعى مباشر وإدراك ببناء الأفعال الانسانية . ففى دراسة الجماعات الإنسانية يمكن أن نفهم الأفعال والمقاصد الذاتية للفاعلين الذين هم أعضاء الجماعات . أما فى العلوم الطبيعية فإن ذلك غير ممكن ، فحركة الذرات لانستطيع أن نفهمها ، كل ما يمكن أن نفعله هو ملاحظة الإنتظام القائم بينها . ويعرف الفعل ذاتياً . وكل فعل يخلو من المعنى لايدخل فى إطار الدراسات السوسيولوجية المتعمقة. ومعنى ذلك أن علم الاجتماع هو العلم الذى يدرس الفعل الموجه إلى سلوك الآخرين . وأكد هنا أن الفعل الاجتماعى هو نوع من السلوك يتضمن معنى للفاعل نفسه . أى أنه أكد الدور الذى يلعبه المعنى فى الفعل الاجتماعى . أمامنا أن (٣ X ٣ = ٩) فنحن نفهم ذلك ، ونفهم ما يعنيه القائل ، والفهم على مستوى المعنى يتحقق اما بالملاحظة

المباشرة للمعنى الذاتى والذى ينطوى عليه فعل يؤتيــه شـخص آخـر .
وإما أن هذا الفهم يتحقق عن طريق فهم الدافع الــذى يقدمـه الشـخص لفعله أو سلوكه . وقد أسهم فيبر كثيرا فى حالات الفهم علــى مسـتوى المعنى . وان كان قد وقع فى بعض التناقضـات . إلا أنـه كـان يدافـع عنها ويفسرها .

٣- *العلاقة بين السبب والمعنى :*

كما قلنا فإن التساؤل الثالث يكمن فى محاولة فيـبر الربـط بـين السبب والمعنى وهنا نجد أن فيبر استشهد فى هذه العمليــة بحـالات نادره فقط من السلوك الواقعى أو الملموس ولكن يلجأ بدلا من ذلك إلى الأفعــال النموذجيــة أو النمطيــة المجــردة ومــع ذلــك فالتفســير السوسيولوجى عنده يجب أن يكون له معنى ذاتى . فى الوقـت الـذى يكون فيه أيضا ممكنا من الناحية الواقعية . ومع ذلك فإنه كـان يـدرك صعوبة توافر تفسيرات ذات معنى . فيقول إن هناك مواقف لايسـتطيع فيها الفاعل أن يكون على وعى كامل بكل ضـروب السـلوك . كمـا أن هناك ضروريا أخرى من السلوك يصبـح الفـرد فيهـا عـاجزا تمامـا عـن إدراك المعنى الذاتى . خاصة حينما يكون السلوك تقليديا . أو خاضعاً للعادات والعرف . أو حينما يكون وجدانيا مشحونا بالإنفعالات . وفى

هذه الحالات يقول أنه يمكن تجاهل بعض عمليات السلوك الإنسانى خاصة تلك التى يصعب فهمها لعدم توافر المعنى الذاتى . ومع ذلك لم يستبعدها من مجال علم الاجتماع وقال إن بالإمكان دراستها بمناهج أخرى مختلفة .

ومعنى ذلك أنه جعل إهتمام علم الاجتماع بنصب بالدرجة الأولى على الفعل (أو الأفعال)الذى يتضمن معنى ذاتيا. أو على الأقل معنى شائعا أو مفترضا .

٤- *النموذج المثالى عند فيبر :*

إرتبط إصطلاح النموذج المثالى باسم ماكس فيبر رأى فيه أداه منهجية تعين الباحث فى دراسة الفعل الاجتماعى . ويقول أن هذا المصطلح ليس من إبتداعه ولكنه استخدم من قبله فى الدراسة العملية . ويقول أن النموذج المثالى هو " بناء وتشييد عقلى يتشكل من خلال ظهور أو وضوح سمه أو أكثر . أو وجهات نظر يمكن ملاحظتها فى الواقع . والنموذج الذى يتشكل على هذا النمو يطلق عليه " مثالى " لأنه يتحقق كفكرة كذلك يقول إن من المستحيل أن نجد فى الحياة الواقعية ظواهر تنطبق تماما على النموذج المثالى الذى تم تشييده بطريقة

عقليـة خالصـة والنمـوذج المثـالى يختلـف عـن المتوسـط الإحصـائى أو الحسابى كما أنه ليس فرضا . ولكنه أداة لتحليـل الأحـداث والمواقـف التاريخية الملموسة ويتطلب هـذا التحليـل أن تكـون المفـاهيم محـددة بدقـة . وواضحـة إلى أبعـد الحـدود حتـى تستطيع مواجهـة النمـاذج المثالية. فهو نموذج محـدد نقـارن بـه المواقـف الواقعيـة فـى الحيـاة . والأفعال التـى ندرسـها . وهـذه الدراسـة للواقـع الملمـوس تمكننـا مـن الحصول على العلاقات السببية بـين عنـاصر النمـوذج المثـالى . ويمكـن القول أن فيبر لم يشيد نماذجة المثالية بطريقة استقرائية جامده . لكنه كان يجمع الخصـائص المميزة لهـذا النمـوذج باستخدام استقراء مـرن يرتكز على دراسة مستفيضة للبيانات . ثم يلجـأ بعـد ذلـك إلى إختبـار السمات التى تتضمنها النماذج المثالية .

ويمكن أن نشير لبعض التعريفات التى أوردها ماكس فـى إطـار استخدامه لفكـرة النمـاذج المثاليـة . فالعلاقـة الاجتماعيـة تمثـل عنـده مفهوماً يرتبط بالفعل إرتباطاً منطقيا . ويعرفها بأنهـا " السـلوك الـذى يصدر عن مجموعة من الفاعلين . إلى المدى الذى يكون فيـه كـل فعـل مـن الأفعـال آخـذا فـى إعتبـاره المعـانى التـى تنطـوى عليهـا أفعـال الآخرين". كذلك فالجماعة المنظمة " هى التى تمثـل علاقـة اجتماعيـة

من خلالها يقوم أفراد معينون - بشكل منتظم - بمهمة تدعيم النظام في الجماعة " . أما الجماعة السياسية فهى " الجماعة التى يقوم جهازها الإدارى بتدعيم النظام داخل منطقة اقليمية معينة . وذلك عن طريق التهديد بإستخدام العقاب البدنى " . وتصبح الجماعة السياسية دولة إذا ما تمكن جهازها الإدارى . من إحتكار الإستخدام الشرعى للعقاب البدنى فى تدعيم النظام . وعلى هذا النحو نجد ماكس فيبر يضيق نطاق كل مفهوم عن المفهوم السابق عليه . مثلما ينتقل من الجماعة المنظمة إلى الجماعة الإقليمية المنظمة . إلى الجماعة التى تستند إلى ضبط ملزم . إلى الجماعة السياسية . وهكذا فالمفهومات عنده تتدرج من الإتساع إلى الضيق ووصلت إلى الجماعة السياسية وجدنا أن الدولة هى النموذج المثالى لهذا النوع من الجماعات .

وعلى النحو السابق نجد فيبر فى تعريفه للنماذج المثالية . يقدم تعريفات ثلاثة للسلطة تعتمد كل منها على شكل مجرد من الشرعية . ولكل منها نموذجه المثالى . فهناك السلطة العقلانية الرشيدة . التى تستند إلى قواعد موضوعية . وغير شخصية . وهو النموذج الذى يوجد عموما فى المجتمع الغربى الحديث . وهناك السلطة التقليدية التى ترتكز على الإعتماد على قدسية التقاليد . وشرعية المكانة التى يحتلها

أولئك الـذى يتمتعـون بمكانـه اجتماعيـة ممثلـة للسـلطة القائمـة علـى التقاليد . كما هو الحال فى الملكيـات . أو الجماعـات الملكيـة القائمـة حتى الآن . وهناك أخيرا السلطة الروحية أو الملهمة التـى تعتمـد علـى الولاء المطلق لقدسـية معينـة اسـتثنائية مثـل البطولـة . أو نمـوذج مـن نماذج الشخصيات يحتذى لما لديـه مـن مثـل وقيـم . أو بسـبب نظـام إبتدعه وطوره زعيم معين . مثل غاندى وهتـلر وغـيرهم مـن الزعمـاء . ويقول إن من الممكن ظهور نماذج أخرى للسـلطة . ولكنـه أراد صياغـة بعض النماذج السوسيولوجية الهامة بشكل دقيق وتصورى .

وعلى هذا يمكـن القـول أن نمـاذج السـلطة التـى صاغهـا تمثـل بناءات عقلية مجردة . وهناك ملاحظة يجب ذكرها وهـى أن فيـبر قـد ركز فى صياغته للنماذج المثالية على الحالات الجمعية أو المجموعات الاجتماعية . لأن نقطة الانطـلاق عنـده تمثلـت فـى أن علـم الاجتمـاع يهتـم فـى المحـل الأول بدراسـة الأفعـال الاجتماعيـة . ولذلـك نجـده يعرف العلاقة الاجتماعية بأنهـا مجـرى الفعـل الاجتمـاعى . والفعـل لايوجد فى شكل السلوك الذى يصدر عن فرد أو أكـثر . والمجموعـات الاجتماعية نتاجا للتنظيم الذى تشكله أفعال الأفراد .

وأخيراً فإنه لايذكر مفهـوم البيروقراطيـة دون أن يشـــار إلـى

إسهامات فيبر فى دراستها . فهو ينظر للبيروقراطية بما تتميز به من صورية ، وتسلسل رئاسى وتقنين ، بإعتبارها شكلا من أشكال التنظيم الاجتماعى يرتبط بإقتصاد التطور والرشد الذين يسودان العالم الحديث. هذا ولم يقصر دراسته للبيروقراطية على الظروف السياسية والاقتصادية التى تسود المجتمعات الرأسمالية . ولكنه إهتم بدراسة ماسماه " بالإختراع الإنسانى العظيم " الذى ابتدعه الإنسان والذى يتمثل فى البيروقراطية . ولاتزال تحليلاته فى هذا المجال تلفت أنظار كثير من العلماء الاجتماعين . ولذلك يمكن القول إن الأعمال الرائده فى هذا المجال لاتزال توجه كثيرا من البحوث فى مجال علم الاجتماع حتى اليوم .

ولقدترك فيبر تأثيرا واضحا على كثيرا من علماء الاجتماع ، خاصة فى أمريكا . ونذكر منهم تالكوت بارسوز الذى ترجم بعض أعمال فيبر إلى الإنجليزية . وعلى وجه الخصوص كتابه " الأخلاق البروتستانتيه وروح الرأسمالية " . و " نظرية التنظيم الاجتماعى والاقتصادى " . وقد كان لترجمة أعماله إلى الإنجليزية . والدور الذى لعبه تلاميذه أكبر الأثر فى المكانه التى إحتلها فى علم الاجتماع حتى يومنا هذا.

بإتساع مجالات علم الاجتماع، إزداد التخصص فى مجاله فازدهرت تخصصات وفروع عدة ، ومال علماء الاجتماع إلى التجارب مع هذا التخصص فبدأت الدراسات فيه تتسم بنوعية أو مجال خاص.

فنجد أن علم الاجتماع التاريخى قد ازدهر فى الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك بفضل جهود ودراسات علماء الأنثروبولوجيا الثقافية، الذين ركزوا اهتمامهم على الثقافات والنظم الاجتماعية البدائية. فضلاً عن جهود المؤرخين الاجتماعيين الذين درسوا تطور النظم الاجتماعية فى كل من أوربا وأمريكا. ولقد كان كتاب بيتريم سوروكين P. Sorokin " الديناميات الاجتماعية والثقافية" من أعظم الإسهامات من جانب علماء الاجتماع الأمريكيين فى هذا المجال. كذلك كان هوارد بيكر H. Becker من أكثر العلماء نشاطاً فى دراسة ووضع الخطوط العريضة لمناهج البحث التى يجب اتباعها فى علم الاجتماع التاريخى.

كذلك خطت الأيكولوجيا البشرية خطوات واسعة على يدى

روبـــرت بـــارك R.Park. ومـــاكينزى Mejenzie . وجيـــس كويـــن J.Quinn واندرسون N.Anderson، وبيرجس R.Burgess . وقد أحـدث هؤلاء العلماء ثورة فى علم الاجتماع الحضرى . وقدموا دراسات أقـامت دعائم هذا العلم .

ومـن الجهـود التـى يجـب ذكرهـا فـى مجـال علـم الاجتمـاع الأمريكى. تلك التى بذلها علماء الاجتماع النفسى . والذين ابتعدوا عن الدراسات الفلسفية . والوصفية وإتجهوا بالتقريب بـين علـم النفـس . وعلم الاجتماع . والإهتمام بتطبيـق النظريـات العلميـة فـى مجـال علـم النفس على المجتمع .

وفضلا عما سـبق ظهـرت إهتمامـات فـى مجـال علـم الاجتمـاع الأمريكـى بدراسـة العمليـات الثقافيـة ونمـو النظـــم . خاصـة علمـاء الانثروبولوجيا الثقافية . إلى جانب إحياء المذهب التطورى الاجتمـاعى عند مورجان .

وأسهمت المدرسة الأمريكية مجالا أو فرعا هامـا مـن فـروع علـم الاجتمـاع هـو علـم اجتمـاع الجريمـة Criminology . وعلـم العقـاب Pinology. وأجريت فى إطارها دراسات هامة فى مجـــال الجـــريمـــة وجناح الأحداث . وأساليب علاجها والوقاية منها .

هـذه المجـالات وغيرهـا شـهدت تقدمـا وإزدهـاراً فـى المدرسـة الأمريكية فى علم الاجتماع . إضافة إلى تطور الإتجاهات الكميـة فـى الدراسات الاجتماعية تلك التى نظر إليها العلماء الأمريكان علـى أنهـا تطبيق للمنهج العلمى المحكم .

وزيادة على ما سبق فإنه تجدر الإشـارة إلى أن علمـاء الاجتمـاع الأمريكين كانوا يدرسون المجتمع دراسة بنائيـة ضيقـة النطـاق . لكـن هذا الإتجاه قد إنتهى . وظهر الإتجاه نحو الإهتمام بموضوعات ضيقـة النطاق . وبالمشكلات الصغرى . الأمر الذى أتاح الفرصـة لبنـاء منـاهج وأدوات جديـدة فـى البحـث والاسـتقصاء . وفـى الوقـت نفسـه جعـل المشكلات المطروحة على بساط البحـث مشـكلات غـير مترابطـة . وقـد ساعد على ذلك مـا شـهدة هـذا المجتمـع مـن نمـو سـريع فـى الحيـاه الحضرية . والإنتقال مـن الاقتصاد القائم علـى الزراعـة إلى الاقتصـاد القائم على الصناعة واسعة النطاق ، كبيرة الحجم . الأمر الـذى أوجـد عددا كبيرا من المشكلات الجديدة تبعا لظهـور نـوع جديـد مـن الحيـاة الاجتماعيـة . فانهـارت أنسـاق القيـم القديمـة تحـت وطـأه العنـاصر الحضرية الجديدة . خاصة وأن العلماء الأمريكين تنقصهم خـبرة الفهـم التاريخى والفلسفى . والوضوح النظرى والتصورى . هـذه كلهـا مثلـت

مشكلات أمام علم الاجتماع الأمريكى رغم إزدهار وتطور الدراسة فى عدد كبير من مجالاته .

وسوف نتناول هنا بعض رواد علم الاجتماع البارزين فى أمريكا وذلك على سبيل المثال لا الحصر.لبيان إسهاماتهم فى تطور هذا العلم.

أولا : بيتريم سوروكين Pitrium Sorokin

ينتسب بيتريم سوروكين إلى أصل روسى. وهو سليل أسرة من الفلاحين . وولد عام ١٨٨٩ . ودرس فى جامعة بطرسبرج . وبعد حصوله على الدكتوراه عام ١٩٢٢ عمل بالتدريس والكتابة والنشاط السياسى . وكانت له خبرات أثناء الثورة الروسية . أثرت على إتجاهاته ونظرياته الاجتماعية . وفى هذه الفترة من حياته تكرست كراهيتة للشيوعين . وقد حكم عليه بالإعدام عام ١٩٢٢ . وتدخل تلاميذه . فخففت العقوبة إلى النفى من البلاد فهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية . وشغل كرسى أستاذ علم الاجتماع فى الجامعات الأمريكية .

أهم مؤلفاته :

كتب بيتريم سوروكين عددا من المؤلفات فى علم الاجتماع . كان لها تأثير ضخم على علم الاجتماع الأمريكى ، وعلم الاجتماع على المستوى العلمى ، ومن أهم المؤلفات "سوسيولوجية الثورة" . "والديناميات الاجتماعية والثقافية" ، "والحراك الاجتماعى" . "والنظريات السوسيولوجية المعاصره" . "وعلم الاجتماع الريفى" . "ومبادىء علم الاجتماع الريفى والحضرى" ، "والسلوك الإنسانى" . "وروسيا والولايات المتحدة" .

ويمثل كتاب " الديناميات الاجتماعية ، والثقافية " ، وكتاب " المجتمع والثقافة والشخصية " أهم هذه الكتب على الإطلاق .

الديناميات الاجتماعية والثقافية :

تناول بيتريم سوروكين فى هذا الكتاب تاريخ الحضارة الإنسانية لفترة دامت (٢٥٠٠) عام ، وذلك فى محاولة لتوضيح أشكال وأنواع التغير الاجتماعى ، والثقافى . وقد استهدف من ذلك إعادة النظر فى نظرية التقدم التى سيطرت على الآراء الفلسفية عند كثير من العلماء الاجتماعين فى القرن التاسع عشر . وتوضح هذه النظرية مدى كفاءة

الإنسان فى السيطرة على الطبيعة من أجل توفير أكبر قدر مـن الراحـة والأمن . وتحرير الإنسان من التحيز . والجهل . والعواطف الهدامة . وقد حاول كثير من العلماء الذين يؤمنون بنظرية التقدم إثبات أن تاريخ الثقافات يشبه دورات البلاد . والنمو ،والإنتحار . والموت . وهى فى ذلك تشبه الدورات المتكررة أكثر من مشابهتها للخط التصاعدى التقدمى . وهذان هما المبدآن الأساسيان للتغير التاريخى . وهناك عدة انتقادات جذرية موجهة لنظرية التقدم، ولكن نظرية التقدم الحديثة إبتعدت عن الإهتمام الفلسفى بالتاريخ.

وقد توصل سوروكين إلى نتيجة مؤداها أنه لايوجد تقدم مطلق كما لاتوجد حركات دورية . وإن ما يوجد هو التقلبات فى أنماط الثقافة الرئيسية . وفى أنماط العلاقات الاجتماعية . وفى تركيز القوة فى الظروف الاقتصادية . وفى الصراع . أى أنه توجد تقلبات فى كل مكان . وقد توصل سوروكين إلى هذا التعميم من بيانات حصل عليها عن الحضارات المختلفة . فتناول فى المجلد الأول من الكتابات صور الفنون . وفى الثانى يتناول إتساق الحقيقة . والقانون . والأخلاقيات، أما فى الثالث فيهتم بالعلاقات الاجتماعية والجماعات والنظم من الأسرة إلى الدولة . ومن الكنيسة إلى القرارات الاقتصادية .

كما درس ألف حالة من حالات الحرب، وستمائة حالة من حالات الثورة . ودرس العلاقة بين الثقافة والشخصية والسلوك . وهو فى كل ذلك لم يدرس الظواهر التاريخية من أجل فهم طبيعتها التاريخية النوعية . ولكن من أجل ترتيبها . وفى دراسته للوثائق القانونية كان يتساءل : إذا كانت الظواهر الثقافية تنقسم إلى عدد من الفئات . ففى أى فئة تقع الظاهرة موضوع الدراسة ؟ هل هى طيبة . أم مقبولة . أم سيئة ؟ على أن عملية التصنيف لهذه الفئات لم تكن سهلة . فهى تختلف من مجال ثقافى لآخر ، فعند تصنيف موضوعات الرسم . والنحت . والهندسة . والموسيقى ، والأدب نجد أن هناك عددا من الفئات المتعارضة مثل الدينية وهى تدخل فى فئة(الظواهر الطيبة).والدنيوية وهى تدخل فى فئة (الظواهر السيئة).. وهكذا.

هذه بإختصار هى الطريقة التى إتبعها سوروكين فى محاولة الوصول إلى تعميمات عن التغير الاجتماعى والثقافى . فهو ينظر إلى كل شيء من تاريخ الإنسانية على أنه مؤشر لعدد محدود جدا من القيم .

المجتمع والثقافة والشخصية :

وهذا الكتاب يعتبر كتابا فريدا فى علم الاجتماع الأمريكى . وقد

كان سوروكين يقبل شأنه فى ذلك شأن من سبقوه بأن التفاعل الاجتماعى هو الوحدة التى ينبغى أن تكون أساس تحليل كل الظواهر الاجتماعية . اما التفاعل من وجهة نظره فهو ظاهرة اجتماعية ثقافية تحدث بين البشر أفرادا أو جماعات . ولها ثلاثة عناصر مترابطة :

(١) الشخصية بإعتبارها فاعلا أو موضوعا للتفاعل .

(٢) المجتمع بإعتباره المجموع الكلى للشخصيات المتفاعلة .

(٣) الثقافة وهى المجموع الكلى للمعانى والقيم والمعايير الناشئة عن تفاعل الشخصيات الإنسانية . وهى الإطار الكلى الذى يجعل معه المعانى موضوعية واجتماعية . ولقد إستطاع سوروكين من تعريفه للتفاعل أن يصوغ هذه القضية :" إن أية جماعة من الأفراد المتفاعلين هى أولا وحدة سببية وظيفية . تجعل من الجماعة نسقا إجتماعيا . ولايستطيع النسق الاجتماعى أن يوجد بدون نسق ثقافى . والنسق الثقافى هو إطار أو نسق من المعانى والأفكار . ويكون الاثنان معا نسقا ثقافيا اجتماعيا . ويصبح هذا النسق مفتاحا لنظرية سوروكين . فكأن النسق الاجتماعى يشبه الهيكل العظمى لبناء المجتمع . أما النسق الثقافى فيعطيه الشكل . والهيئة والحياة . ويكون الإثنان وحدة وظيفية متكاملة .

ولقد كان إهتمام سوروكين بالثقافة راجعا إلى رغبته فى الكشف عن تسلسل الانساق الاجتماعية الثقافية ، ودرجة تكاملها ، وأدرك النسق الاجتماعى الثقافى الكلى على أنه نسق فوقى Super system ، وهو يكون متكاملا تقريبا . وإعتقد سوروكين أم كل نسق فوقى " يتميز بموضوع أو فكرة سائدة ، وهى معيار للحقيقة أو الصدق فى ثقافة نوعية .

وإذا كان الأفراد ينسبون هذا الصدق لدليل حواسهم ، فإن سوروكين يطلق على هذا النسق أنه " نسق حى " . أما إذا اعتقد الناس بأنه يوجد واقع آخر وراء إنطباعات الحواس ، وأن هذا الواقع أكثر عمقا وصدقا مثل صدق العقيدة فإن هذا النسق يسمى فكريا Ideational، وعندما يجتمع الإثنان " النسق المدرك بالحواس والنسق المثالى " ، فإنه ينشأ نسق ثالث للحقيقة هو نسق الفعل أو الرشاد ويطلق عليه (المثالى Idealistic) ،وخاصة إذا كان النسقان منسجمان ومختلطان . أما إذا كانت العلاقة بين النسق الحسى والفكر مجرد علاقة تجاور فإنه ينشا نمط رابع يسميه (المختلط) .

ويتضح من ذلك أن أسلوب الثقافة يتحدد تبعا لنسق الحقيقة أو الصدق السائد فى المجتمع . ومع أن معالجة سوروكين للشخصية لم

تكن ناضجة تماما ، إلا أنه كان يهدف إلى توضيح أن كل نسق اجتماعى ثقافى ينتج أنماط شخصية فرعية .

ويرى سوروكين أن الجماعة الاجتماعية بإعتبارها جملة من الأفراد المتفاعلين تكون جماعة منظمة عندما تكون هناك درجة من الإنساق الداخلى بين المجموعة الأساسية من المعانى والقيم شكل المعايير القانونية التى تحدد بدقة جميع أفعال . وردود أفعال الأفراد المتفاعلين فى علاقاتهم إزاء بعضهم البعض . وإزاء من هم خارج الجماعة ، والعالم ككل ، وعندما تكون هذه المعايير فعالة . وملزمة لسلوك الأشخاص المتفاعلين .

وتفسيرا لهذا القول يمكن أن نحدده على النحو التالى :-

١) تتصف كل جماعة منظمة بمجموعة أساسية من المعانى والقيم ، وهنا يستخدم (معنى) كمرادف (للفكرة) تقريبا.

٢) يجب أن تكون المجموعة الأساسية من الأفكار والقيم منسقة مع نفسها.

٣) تتخذ الأفكار والقيم شكل المعايير التى يجب على أعضاء الجماعة الانصياع لها.

٤) يجب أن تكون هذه المعايير . والتى يطلق عليها سوروكين كلمه

المعايير القانونية. يجب أن تكون فعالة . ومن ثم يمكن فرضها فـى بعض الأحيان.

ومـن الملاحـظ هنـا أن سـوروكين قـد وحـد بـين معايـير سـلوك الجماعة وبين القانون . وهذا يفـرض أن نـأخذ مفهـوم القـانون بمعنـى أوسع من المعنى الذى يستخدم به . ويرد سوروكين علـى هـذه القضيـة بأن المعيار القانونى هو ذلك الذى يحدد حقوق الأطراف وما يقابلها من واجبات إزاء الأطراف الأخرى. وليس فقط مجرد قواعد قانونية شرعية.

وهكذا توضـح الأفكـار التـى عرضنـا لهـا هنـا . والتـى صاغهـا سوروكين. أنه كان عالما وباحثا فى علم الاجتماع الأمريكى . فى وقت كان فيه البحث، والمعرفة الفلسفية العريضة، لاتحتل مكانه عالية . بـل لم تكن تحظى بتقديـر وإهتمـام. ولقـد كـان سـوروكين يرفـض التيـارات السائدة والتى اتسـمت بالسـطحية وعـدم العمـق. وردد كثـيراً الأهـداف الحقيقية والمناسبة لعلم الاجتماع كعلم عقلى. وكثيراً ما بحث عن مواطن الخطأ والزلل وراح يعود بها مرة ثانية إلى طريق الصواب. وفـى سـنوات عمره الأخيرة التفت علماء الاجتماع الأمريكيـن إلى إنجازاتـه الفريـدة. ومنحوه كل الإعجاب والتقدير .

ثانيا : تالكوت بارسونز Talcott parsons

إهتم بارسونز بموضوع النظرية فى علم الاجتماع . وأثر كثيراً فى علم الاجتماع الأمريكى . ولعله من أهم رواده بعد سوروكين . وقد بدأ سوروكين حياته كعالم فى البيولوجيا ، ثم تحول إلى علم الاقتصاد. وقد إعتقد أن القوانين الاجتماعية يمكن الكشف عنها ، والتعبير عنها بنفس الطريقة المستخدمة فى العلوم الطبيعية .

وعندما سافر بارسونز إلى بريطانيا . وإتصل بعالم الانتروبولوجيا البريطانى مالينوفسكى . بدأ فى التحول إلى الإتجاه الوظيفى . ومنذ ذلك الحين راح يعارض أى صورة من صور المذهب التطورى .

وقد درس بعمق أفكار فيبر فى جامعة هايدلبرج فى المانيا. وترجم كتابه الهام " الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية " إلى الإنجليزية.وبعد ذلك ترجم كتاب التنظيم الاجتماعى والاقتصادى. وتأثر بنظرية فيبر فى الفعل الاجتماعى،كما درس نظرية المنفعة الحدية لمارشال.وأكد الرأى الذى تكون لديه من دراسة فيبر والذى مؤداة أن هناك أهمية لانساق القيم الاجتماعية عند دراسة الفعل الاجتماعى. ودعم هذا الرأى من قراءته لدوركيم.وفضلا عن ذلك تأثر بكل من (باريتو).(وفرويد).

مؤلفات بارسونز ومفهوماته :

كان مؤلفه الرئيسى الأول هو بناء الفعل الاجتماعى The structure of social action (١٩٣٧) . وتضمن نقداً عنيفا لنظريات مارشال . وباريتو . ودوركيم . وفيبر . ومن أهم سمات هذا الكتاب أنه يرى فى كل هؤلاء العلماء على الرغم مما بينهم من اختلافات . نقطه بدء واحدة . ومنها كونوا آرائهم ، وهذه النقطة أطلق عليها " الفعل الاجتماعي – التطوعى أو الإختيارى " .

وقد جاء هذا الكتاب بأسلوب غامض . ورمزى فى بعض الأحيان . وبعد ذلك أصدر كتاب " مقالات فى النظرية الاجتماعية الخالصة والتطبيقية " (١٩٤٩) . ثم كتاب " نحو نظرية عامة فى الفعل " (١٩٥١) بالإشتراك مع بيلز .

أ- الفعل الاجتماعى :

تعتمد نظرية بارسونز على أن الفعل الاجتماعى ينبغى رؤيته كنسق من السلوك . وهو نسق معقد يمكن تجزئته إلى أجزاء مختلفة لإمكان دراستها فى علاقتها المتبادلة ، واعتمادها المتبادل . ويقول إننا نرى فى كل نسق من السلوك ثلاثة عناصر هى "الفاعل" و "الرموز" .

"والقيم" التى توجهه . ولاشك أن دراسة هذا النسق من السلوك سيساعدنا على فهم كيف أن الفرد أو النسق الاجتماعى ككل . أو الثقافة ككل . تفعل وتؤدى وظيفة وتعمل .

كذلك يرى أن هناك عوامل ثلاثة يتضمنها الفعل الاجتماعى. هى الفاعل والموقف، وموجه الفعل نحو الموقف، ويرى أن الموجهات مختلفة، منها الدافعية، ومنها القيمية، وفى ضوء ذلك كله كون بارسونز ثلاثة أنساق تحليلية، هى النسق الاجتماعى، ونسق الشخصية، والنسق الثقافى.

ب- *النسق الاجتماعى :* ***Social system***

وقد نسب بارسونز للنسق عدة معان . فهو يعرفه على أنه عدد من الأفراد الفاعلين . والذين يتفاعل أحدهم مع الآخر . وقد يكون النسق الاجتماعى شبكة من العلاقات بين الأفراد . وقد يشير إلى الدوافع التى توجة عددا من الأفراد . وعلى أى حال فإن فهم النسق الاجتماعى يتطلب فهم الموجه الدافعى للأفراد . لأنهم يدفعون بواسطة الميل للإشباع الأمثل للحاجات. أما القيم والمعايير فهى مسائل مركزية فى نظرية بارسونز . ولذلك فهو يقول إنه ليس بالإمكان وجود موجه نحو الموقف دون موجه قيمى .

جـ - الثقافة : Culture

كانت آراء بارسونز فى الثقافة واضحة . فالثقافة هى نتاج أو ثمرة من ناحية . كما أنها محددة لأنساق التفاعل الاجتماعى من ناحية أخرى. ويتكون النسق الثقافى من :

١- أنساق الأفكار .

٢- أنساق الرموز التعبيرية .

٣- أنساق الموجهات القيمية .

د- نسق الشخصية : Personallity system

يشير نسق الشخصية عند بارسونز إلى المراكز الاجتماعية للفاعلين. وأدوارهم الاجتماعية فى الموقف الاجتماعى . حيث يشير المركز الاجتماعى إلى مكانه الفاعل فى نسق العلاقات الاجتماعية . أما الدور فيشير إلى سلوك الفاعل فى علاقاته مع الآخرين . ويعتبر هذا الأدوار الاجتماعية التى يؤديها الشخص فى ضوء أنماط التوقعات المحددة ثقافيا .

ومن مجموع الأدوار المترابطة يتكون النظام الاجتماعى . وفى ضوء هذه النظره فإن النظم الاجتماعية تصبح بؤرة إهتمام علم

الاجتماع. لأن الوظيفة الفعالة للنظم شرط للإستقرار الاجتماعى . ولذلك يجب أن تهتم النظرية الاجتماعية بعملية تكوين النظم الاجتماعية . لأنها عملية تشكل رابطة بين المجتمع والثقافة من ناحية . والشخصية والدوافع من ناحية أخرى . وهى تسهم فى جعل موجهات القيمة نمطية . وتدخل أنساق القيمة فى شخصية الإنسان . وقد إستعان بارسونز بنظرية التحليل النفسى ومفاهيمها فى وصف هذه العمليات .

هـ - *بدائل النمط* : *Pattern Alternatives*

لعل نظرية . أو فكرة بدائل النمط عند بارسونز تعتبر من أهم الإسهامات الأصلية التى قدمها . ولقد أثارت كثيرا من الجدل . فهى تشير إلى البدائل التى تبدو فى إختيارات الأفراد . وقد أشار إليها بشكل مستمر دارسو التغير الاجتماعى . والتنمية . وهى تتضمن خمسة أزواج من البدائل هى :-

١-العاطفية مقابل الحياد العاطفى .

٢-المصلحة الذاتية فى مقابل المصلحة الجماعية أو الجمعية .

٣-العمومية مقابل الخصوصية .

٤-الإنجاز مقابل العزو أو الانتماء .

٥-التخصيص مقابل الإنتشار .

من النمط الأول يعتبر عاطفيا أو وجدانيا إذا كان يتيح الإشباع المباشر لحاجة الفاعل . بينما يعتبر محايدا وجدانيا إذا كان يفرض النظام. فمن أجل مصلحة الآخرين يتم التخلى عن العاطفية أو الوجدانية .

وفى النمط الثانى : يقول أن المعايير قد تجبر الشخص الفاعل على الاهتمام والسعى وراء مصالحه الخاصة . أو تجبره على العمل من أجل صالح الجماعة .

وفى النمط الثالث : قد تشير مستويات القيمة إلى درجة كبيرة من العمومية . بينما يشير المتغير الثانى إلى المستويات القيمية التى لها دلالة لفاعل معين فى علاقات معينة مع أشخاص معينين .

وفى النمط الرابع : إما أن يكون التأكيد على تحقيق أهداف معينة (الأداء أو الإنجاز) أو على خصائص الشخص الآخر كأن ينتمى الفاعل إلى عائلة أو طبقة معينة تمنحة مكانه متميزة .

وأخيراً من الممكن أن تعرف مصلحة معينة على وجه التخصيص. بحيث لايكون هناك ثمة إلزام أبعد من الحدود . وقد تعرف بشكل عام بجيث تتجاوز الالتزامات تلك الحدود .

ومـن جملـة هـذه المفهومـات نجـد أن نظريـة بارسـونز تؤكــد الجانب المعيارى من الحياة الاجتماعية .فيرى أنه ينبغــى أن ننظـر إلى الفعل الإجتماعى كسلوك يتضمن موجهاً للقيمـة .ويتخـذ شـكل النمـط بفعل المعايير الثقافية . والنمط الاجتماعى عنده يعتمد أو يرتد إلى نسـق ثابت من أنماط السلوك المترابطة . ويتوقع من دراسة النسق الاجتماعى أن يكشف عن حالة من الاطراد الثابت تقريبا . ولهذا فإنه يتكلـم عـن بناء الفعل الاجتماعى . وأن وظيفتـه هـى دعـم وجـود أنمـاط السـلوك والقيم .

وظائف النسق الاجتماعى :

يشير بارسونز إلى أن الأنساق الاجتماعية كى تستمر فى الوجود يجب أن تؤدى أربع وظائف ضرورية :

١- الوصول إلى الهدف .

٢- التكيف .

٣- التكامل .

٤- دعم النمط وحسم التوتـر مـن خـلال التوقعـات المعياريـة ووحـدات المركز والدور . والعلاقات الاجتماعية لكل الجماعات الدائمة .

(١) تحقيق الهدف :

يرجع السبب فى وجود كل نسـق اجتمـاعى إلى أن الفـاعليـــن بداخله متفقون على الهدف الذى ترمى إليه الجماعة . ومعنى ذلك أنه بداخل بناء الأنساق الاجتماعية يوجد إطـار مـن الوسـائل والغايـات . ولذلك يوجد عنصر الرشاد فى كل نسق من العلاقـات المنظمـة لفـاعلين يشغلون أوضاع المركز الاجتماعى . ويرتبط بعضهم مع بعض من خــلال الصور المعيارية لتحقيق الغرض الجماعى . وهناك أهداف جمعية يجب السعى من أجل تحقيقها . وهناك وسائل خاصة لتحقيق هذه الأهداف . ومـن خـلال تنظيـم العلاقـات الاجتماعيـة عـبر الصـوره التخطيطيـة للوسائل والغايات يتجه النسق الاجتماعى نحو الأهداف التـى وضعهـا لنفسه . أو التى وضعتها له وحدة بنائية كبرى مثل المجتمع .

(٢) التكيف :

ينبغى أن يتكيف كل نسق اجتماعى مـع البيئـة الاجتماعيـة . والمادية التى يوجد فيها . ومعنى هذا أن كل بناء فرعـى داخـل البنـاء الكلى. يجعل من مهمة التكيف وظيفته الأولية . أى يخضـع الظـروف الخارجية لمشيئته ويسيطر عليها حتى يكون من السـهل عليـه تحقيـق هدفه . فكل مجتمع قومى يريد ان يشعر بالأمن فى المجتمع الدولـى .

ويتحقق هذا الهدف الأساسى عن طريق الحكومة . وهى بناء فرعى من المجتمع القومى . بأن الاقتصاد . وهو الآخر بناء فرعى من المجتمع القومى . جزءاً من وظيفة تكيف المجتمع القومى مع البيئة . فقد ظهرت التكنولوجيا أثناء ممارسة الإنسان للنشاط الاقتصادى . اى أنها ظهرت من خلال النظم الاقتصادية المختلفة . وتهدف التكنولوجيا فى الواقع إلى ضبط البيئة أو السيطرة عليها . غير أن بعض الوسائل التكنولوجية . مثل الطاقة الذرية . نشأت بفضل الجهود التى بذلتها الحكومة . أى أن بعض الأدوات التكنولوجية وجد بفضل الاقتصاد . وبعضها الآخر وجد بفضل الحكومة . وهكذا يوضح المثال أن الوظائف الضرورية فى المجتمعات المعقدة يؤديها عدد من الأبنية الفرعية .

ومن الواضح أن وظيفتى التكيف وتحقيق الهدف متصلتان بطريقة ما بالبيئة الخارجية . لأن ميكاينزمات التكيف ترتبط بقوى خارجة عن النسق الاجتماعى .

وكذلك قد يكون لتحقيق الهدف معنى عند وحدات البناء الاجتماعى الأخرى خارج الوحدة المرجعية المحددة . مثال ذلك أن إحدى الشركات قد تعمل على بناء مطار عسكرى . وهذا الهدف الذى ترمى إليه الشركة قد يكون تكيف مع أهداف المجتمع القومى . هذا

المجتمع الذى قد يرى فى بناء هذا المطار وسيلة يستخدمها لربط بيئته وتحقيق أغراضة الوظيفية. ومعنى هذا وجوب الربط بين الوظائف التى يؤديها أى نسق فرعى. لكى يحقق أهدافه بوظائف وأهداف الوحدات الاجتماعية الأخرى .

(٣) التكامل :

إذا كانت وظيفة تحقيق الهدف والتكيف تشيران إلى الروابط والعلاقات بين الجماعة وبيئتها ، فوظيفة التكامل لاتتناول سوى العلاقات التى تتم داخل النسق الاجتماعى بالذات فدراسة وظيفة التكامل تلقى الضوء الكافى على المنظور السوسيولوجى .

ولعل المقارنه بين الجماعات الانسانية ، والأنساق الاجتماعية عند الحشرات من العوامل المساعدة على إلقاء الضوء على هذا المنظور السوسيولوجى . مجتمع الحشرات يشترك مع المجتمع الإنسانى فى أداء وظيفة تحقيق الهدف ، ووظيفة التكيف . فكلاهما يقيم اقتصادا حيث يتم إنتاج وتوزيع واستهلاك عدد من السلع والخدمات ، كما يعمل على استمرار النوع . وإلى جانب ذلك فمجتمع الحشرات كنسق اجتماعى يجب أن يتكيف مع البيئة الخارجية ، بما فيها من طقس ، وبيئة جغرافية ، وكائنات أخرى . ولكن إستمرار مجتمع الحشرات

في الوجود قائم على أساس بيولوجي . لأن الحشرات ترتبـط ببعضهـا إرتباطا اجتماعيا بسبب الإستجابات . وضرورات التفاعل التى تفرضها أجسامها وغرائزها . وجهازها العصبى . وبالتالى فإن سلوكها وصورهـا الاجتماعية تعبر عن قوى بيولوجية . وعضوية داخلية . أى أن تكامل مجتمع الحشرات ودعم النمط فيه يتحقق من خلال العملية التكوينية.

ويختلف الإنسان عن الكائنات الحية الأخرى . من حيث أنـه يتصف بالمرونة والتكيف . والذكاء كذلك فإنه يخلق الثقافة ويوجد لها أسباب الإستمرار فى الوجود . ويترتب على ذلك أن الأبنية الجماعيـة لاتتماسك فى حياة الإنسـان بطريقـة أوتوماتيكيـة . ولكـن عـن طريـق التكامل المعيارى . والمعانى الرمزية المشتركة . الأمر الـذى يلقـى عبئـاً ثقيـلا علـى الأنسـاق الاجتماعيـة عنـد الإنسـان . ومـادامت الأنسـاق الاجتماعية الإنسانية لاتعتمد على التساند البيولوجي . فإنه يجـب أن يقوم الفاعلون بإعادة تكاملها . وإعادة مساندتها . وتجديدهـا .ومعنـى ذلك أن ميكانيزمات التكـامل تتطلـب إنتباهـا وجهـدا مسـتمرين . لأن النسق الاجتماعى إذا فشل فـى أداء وظائفـة فلـن يسـتمر أى فـرد فـى الوجود .

ويشير التكامل إلى حالة قائمة بين الوحـدات (أى الجماعـات

الفرعية) المكونة للنسق . وبذلك يصبح النسق متكاملا إذا وجد التأثير المتبادل الوظيفى بين ثلاثة عناصر :

(أ)الوسائل الثابتة (أى المركز والدور)

(ب)الأهداف الشخصية للفاعل (مثل السعادة والأمن والمركز الاجتماعى) .

(ج)أهداف النسق كإنتاج السلع والتنشئة الاجتماعية .

ومعنى ذلك أن التكامل هو تركيز العلاقات داخل النسق لتحقيق التضامن والتماسك ، والإستقرار ، والنظام ، والإستمرار النسبى لنسق العلاقات. ومعنى ذلك أن عملية التكامل مستمرة لاتتوقف عند نقطة معينة، ومن الضرورى إستمرار تجديد ميكانيزمات التكامل . فليس هناك فاعل يتلقى تنشئته اجتماعية كاملة ، كذلك لايوجد نسق اجتماعى متوازن تماما ، ومناسب للبناء الداخلى للعلاقات . وقد تكون الأهداف الشخصية مدمرة ومخربة لأهداف الجماعة ومقاصدها . الاجتماعية والإنسانية غير ثابته بل متقنيه ، كل هذه تفرض علينا العمل على استمرار تجديد ميكانيزمات التكامل داخل النسق .

(٤) دعم النمط وإدارة التوتر :

يتصل دعم النمط . وإدارة التوتر بالحالة الداخلية للنسق الاجتماعى فإذا كان التكامل يشير إلى العلاقات بين وحدات النسق (الفاعلون والجماعات الفرعية) . فإن دعم النمط وإدارة الصراع تشيران إلى حالة الفاعلين أنفسهم . إن الشخص أو الفاعل الاجتماعى. يشغل وحدة المركز أو الدور . وتتحدد صورته الأولية بالشكل المميز للتوقعات المعيارية . فقد يكون الشخص اجتماعيا بصورة أساسية أو هامشية . وقد يكون غير مؤمن . وقد يشكو من الأنومى . وفقدان المعايير . ويتضح من ذلك أن النسق إذا كان يضم عددا كبيرا من الفاعلين الذين يعانون من صراع الأدوار . ولاينسجمون مع المعايير . فلن يوجد التكامل والإنسجام بين الصور الاجتماعية والضرورات . والأغراض .

وحتى يكون الفاعل متكاملا مع البناء الاجتماعى لابد أن يكرس قدرا كبيرا من الإنتباه حتى تكون التنشئة الاجتماعية مناسبة وتبدأ التنشئة الاجتماعية فى مرحلة الطفولة . وداخل الأسرة بالذات . حيث يتم تشجيع الطفل على تعلم وتقبل الصيغ الفكرية والمعيارية المميزه لنسق الثقافة ، ثم يشارك بعد ذلك فى كل فى كل أنواع التدريب والتعليم فى السياقات النظامية المتخصصة . والهدف النهائى

من ذلك تحقيق التكامـل المعرفى للفـاعل مـع القيـم والأنبيـة والمعايـير الاجتماعية للنسق .

كذلك فإن للشخصية بعدا آخر انفعاليا . وبالتالى توجـد داخـل النسق توترات انفاعلية يجب ضبطها وادارتها حتى لايحدث اضطراب فى/أداء النسق لوظائفه العادية . وتتم إدارة التوترات والصراع فى بعض الأنساق فى مجال العلاقات التـى يوجهـا المتغـير النمطـى الأول وهـو العاطفة أو الوجدان مقابل الحياد .

ومن ناحية أخرى توجد حدود يقف عندهـا احبـاط أو كبـت أو ضبط التعبير الإنفعالى . فالأسرة كنسق اجتمـاعى تسـمح بمجـال واسـع للتعبير عن التوتر . وبذلـك تتيـح فرصـة للتعبـير عـن الإسـتجابة . أو التعبير الإنفعالى . وبذلك تخفف من التوتر . ويترتب علـى ذلـك أنهـا تساعد أعضائها على أداء وظائفهم بقدر أكبر من الفاعليـة فـى المواقـف الاجتماعية التى تتطلب الحسم الدقيق للتوترات .

نظرية التنظيم عند بارسونز :

يواجه التنظيم الكثير من المشاكل الوظيفية التـى تواجههـا كـل الأنسـاق الاجتماعيـة . ويؤكـد بارسـونز أن المشـكلتين الأولى والثانيـة تنشآن عندما تتناول الوحـدة (فـردا أو جماعـة . أو نسـقا) مشـاكلها

الخارجية أو المشكلتين الثالثة والرابعة . وان الإهتمام باحدى المشكلات من شأنه أن يزيد الضغط على الأخـرى . فمشـكلة التكـامل تـزداد مـع الإحتياج إلى التكيف . كذلك تتزايد مشكلات دعم النمط بالإحتيـاج إلى تحقيق الهـدف . والعكـس صحيـح . بمعنـى أن الإهتمـام بالمشـكلات الوظيفية الداخلية يزيد الضغط على المشكلات الخارجية .

ولكن التنظيم يختلف عن الأنساق الاجتماعيـة الأخـرى . مـن حيث إتجاهه فى المرتبة الأولى نحو تحقيق هدف نوعى محدد . وهـى خاصيـة تؤثـر فـى البنـاء الداخلـى للنسـق . كمـا تؤثـر فـى علاقاتـــه الخارجية . وهو يؤدى وظيفته الخاصة به داخل موقف أو بيئة مكونـه من الأنساق الفرعية الأخرى . أى أن الموقف يتكون من العلاقـات بـين التنظيـم وبـين الأنسـاق المتخصصه الأخـرى ، المتفرعـــه عـــن النســـق الاجتماعى العام الذى يوجد فيه التنظيم .

كذلك فإن إنتاج أى تنظيم أو تحقيقه لأهداف ينشـأ عنـه شـىء قد يستخدمه نسق آخر . فإنتـاج التنظيـم هـو فـى نفـس الوقـت طاقـه وموارد يستخدمها نسق آخر . فلإنتاج فـى التنظيـم الاقتصـادى يتمثـل فى عدد من السلع والخدمـات التـى تسـتهلكها تنظيمـات أخـرى فـى عملية الإنتاج كما أن الإنتاج فى الوحدات والهيئات الحكوميـة يتمثـل

فى مجموعة من القرارات . وفى التنظيم التربوى يتمثل فى كفاءة وتقدم التلاميذ . أى أنه من الضرورى فى كل من هذه الحالات وجود نتائج ناشئة عن العمليات التى تجرى داخل التنظيم . وهذه النتائج قد تغير من وظيفة الأنساق الأخرى داخل المجتمع .

وتنشأ التنظيمات عن ظاهرة تقسيم العمل فى المجتمع . لأنه لو كان الإنتاج والإستهلاك يتمان فى وحدة بنائية واحدة فلا توجد ضرورة لكى تتباين التنظيمات المتخصصة عن بعضها . أما فى المجتمعات البدائية حيث الإكتفاء الذاتى بالمعنى الاقتصادى للكلمة . فإنه لايوجد بها تنظيمات متباينة بالمعنى الذى ذكرناه .

وإن ما يعتبر هدفا متخصصا بالنسة للتنظيم . يعتبر فى الوقت نفسه وظيفة متخصصة بالنسبة للنسق العام أى أن المجتمع الذى يوجد فيه التنظيم . كما يعتبر التنظيم جزءا من هذا النسق العام . أو نسقا فرعيا منه . وهذه العلاقة هى الرابطة الأولية بين التنظيم والنسق العام.بل هى الأساسى الذى يقوم عليه تصنيف التنظيمات .

فالتنظيم كما يعرفه ألفريد مارشال هو فى جوهره عملية ربط عوامل الإنتاج بطريقة محددة لتسهيل تحقيق هدف التنظيم بصورة فعاله . كما يشير إلى عملية إعادة تكييف أنماط التنظيم نفسه . وهى

عملية كامنة فى عمليات التغير البنائى للتنظيم . وعلى هذا فالتنظيم بالمعنى الإقتصادى عامل هام فى كل الوظائف التنظيمية . ويلعب دورا هاما فى مراحل إقامة التنظيم . وفى المراحل التالية أيضا .

ويتضح من كل ذلك أن التنظيمات هى الميكانيزم الأساسى فى التحقيق الفعال لأهداف مجتمع متفاضل . تلك الأهداف التى لا يستطيع الفرد وحدة تحقيقها . والظاهرة الأساسية أن التنظيم يعبىء القوة لتحقيق أهدافه . ولو أن نسق القيم تجعل هذه الأهداف شرعية (لأن القوة أو القدرة العامة للتنظيم تجعل تحقيقها أمرا فعالا) .

ويطور بارسونز هذه الأفكار ليوازى بين القوة أو القدرة على تحريك الموارد فى المجال الاقتصادى والقدرة السياسية ومايتولد عنها من طاقات محركة للتنظيم والنسق العام . فتوليد القوة وممارستها هدف هام للغاية بالنسبة للأهداف العامة للمجتمع كالإنتصار فى الحرب . وكذلك فإنها (القوة) تستخدم فى الحياة اليومية لتحقيق أكبر قدر من الأهداف الفرعية . والقوة مثل الثروة مورد اجتماعى هام وعام توزع على عدد كبير من الأنساق الاجتماعية الفرعية من أجل الإستهلاك أو إستثمار رأس المال . فكل تنظيم مهما كانت وظيفته جزء من السياسة . ومولد للقوة أو القدرة . كما أنه يستقبل القوة التى تولد فى المستويات

العليا من النظام السياسى.ويتحدث بارسونز عن شروط توليد القوة وهى:

١)إقامة وتأسيس نسق قيمى يجعل هدف التنظيم مشروعا .

٢)تنظيم عمليات الإستغلال وإتخاذ القرارات فى التنظيم بإعتبارها قواعد عامة.

٣)طلب المساندة اليومية من الأشخاص الذين تعاونهم .

٤)طلب التسهيلات الضرورية وهى تسهيلات مالية بالدرجة الأولى .

ويشير بارسونز إلى أن الأحزاب االسياسية فى أمريكا أصبحت تعكس صورة أو شكل الشرط الأول . من حيث أن هذه الأحزاب تقيم رابطة ايجابية مباشرة مع الحكومة ، ومع النسق القانونى .

إن تالكوت بارسونز يشير إلى أن النهج الذى قدمه يتميز بتناسق صورى . فقد تناول نسق القيمة بإعتباره يحدد أهداف التنظيم ويجعلها شرعية . كما أن القيم الفرعية تنظم ميكانيزمات التكيف . وتحقيق الهدف ، والتكامل فى التنظيم . وكل نمط تعاقدى كالتوظيف والاستثمار ينظم كل نمط من الموارد الأولية ، وكل ناحية أو جانب من جوانب السلطة تنظم الأجزاء الشرعية الفعالة . وأخيرا كل ناحية من

نواحى إقامة العلاقات الثابتة المستقرة تحدد ولاء المشتركين نحو التنظيم عند مقارنته بالإلتزامات الأخرى .

هذه الأفكار وغيرها . توضح مدى إسهام بارسونز فى نظرية علم الاجتماع . ورغم أى انتقادات توجه إليه فهى لاتقلل من أهمية أعماله. وقد ظل بارسونز ينادى حتى وقت قريب بأنه وضع نظرية عامة فى التغير الاجتماعى . ولقد أفاد كثيرون من علماء الاجتماع من الخطوط الأساسية للتفكير النظرى عند بارسونز . كذلك يتجلى تأثيره على غيره من العلماء الألمان . وقد إتضح ذلك فى كثير من المؤلفات الألمانية الحديثة . كذلك ظهر هذا التأثير فى ترجمة بعض مؤلفاته إلى الفرنسية. وعلى الرغم من هذه الأهمية إلا انه تجدر الإشارة إلى أن فكره لم يكن تجديدا متميزا فى علم الاجتماع المعاصر . فهناك أوجه شبه بينه وبين مؤلفات غيره من المعاصرين ومن بينهم سوروكين .

ثالثاً :رايت ميلز : Wright Mills

شغل رايت ميلز كرسى أستاذ علم الاجتماع فى جامعة كولومبيا ولعل تأثيره فى علم الاجتماع فى الوقت الراهن أعظم بكثير من تأثيره أثناء حياته . بل أن هذا التأثير لا يزال فى تزايد مستمر . ويرجع ذلك إلى تحليله للأوضاع الاجتماعية بصفة عامة . والأوضاع الاجتماعية فى

أمريكا بصفة خاصة ، تحليلا يقترب من الصحة . كما أن الموضوعات التى كرس لها إنتباهه منذ الخمسينات تبدو الآن فى صورة أكثر حدة والواقع أن عناوين مؤلفاته المسائل الأساسية فى المجتمع المعاصر على حد قوله . ومن أهمها طبقة ذوى الياقات البيضاء . وصفوة القوة . وأسباب الحرب العالمية الثالثة والخيال السوسيولوجى . والماركسية .

وتشهد تحليلاته لهذه الموضوعات على مدى وعيه وإدراكه لأهميتها فى المجتمع . كما أن إسهامات ميلز فى الفكر السوسيولوجى. والنظرية السوسيولوجية تتناثر فى كثير من كتاباته . ولكن يمكن الإطلاع عليها باستفاضه فى كتاب " القوة والسياسة والمجتمع " . الذى حررة هورفيتش Horwitz .

وقد عرض نظرية فى كتاب اشترك فى تأليفه مع هانز جيرث Hans Gierth . وهو الشخصية والبناء الاجتماعى . واستخدم مفهوم الدور الاجتماعى كمفهوم مركزى للمجتمع ، ويراه كبناء يتكون من عدد كبير من الأدوار التنظيمية . كما يمكن تحليل البناء الاجتماعى الكلى إلى عدد من الأوضاع التنظيمية ، والسياسية . والدينية . والاقتصادية وغيرها. وقد استخدم هذا المفهوم ليوحد بين النظريتيين السيكولوجية. والسوسيولوجية بطريقة قريبة من طريقة بارسونز . ويشير مصطلح

الشخصية فى هذا المؤلف إلى الفرد ككيان كلى يمكن التميـيز فيه بين الكائن العضوى ، والبناء النفسى ، والشخصى ، أما الانسان الذى يلعب دورا معينا فى المجتمع . ويتم تفسير الدور من خلال الرأى القائل أن المجتمع كبناء مكون من عدة أدوار مرتبطة بنظم مختلفة . ويرى المؤلفان فى هذا الكتاب أنه يمكن تحليل البناء الاجتماعى الكلى إلى أنواع تنظيمية كالاقتصادية ، والسياسية والدينية كما قلنا من قبل. ويعترف بهذه الأنواع كارتباطات بين النظم تكون لها نتائج أو غايات متشابهة . وتعتبر درجة استقلال الأنواع التنظيمية موضوعا للبحث فى أى مجتمع من المجتمعات . ولكننا نجد دائما أن هناك بعض جوانب السلوك الاجتماعى تميز جميع الأنواع التنظيمية ، ونعنى بها التكنولوجيا والرموز والمكانه ، والتعليم . وفى مقابل ذلك نجد جوانب أخرى من الحياة الاجتماعية غير قابلة للتعريف فى ضوء مفهومى البناء ، أو النوع التنظيمى ، حيث أن هناك أنواعاً من التفاعل لايمكن القياس عليها .

(١) الإتفاق Correspondence

وهو مفهوم يعنى توحيد المجتمع عن طريق أساس مشترك يؤدى عمله بأسلوب متواز فى كل الأنواع التنظيمية .

(٢) الإنطباق Coincidenee

وهو عبارة عن حالة يتم التوصل إليها اذا أظهرت الأنواع المتباينة بعض العناصر البنائية المختلفة . التى تؤدى إلى وحدة غير مكتمله أو جزئية . وهذه تتمثل لنا فى ظهور الرأسمالية الحديثة بعد سقوط النظم الإقطاعية ونمو أطر تشريعية وإدارية جديدة

(٣) التنسيق Coordination

ويشير إلى تكامل المجتمع عن طريق شكل تنظيمى معين يطغى على غيره من الأشكال مثل الديكتاتورية .

(٤) التقارب Covergenee

وتتم هذه الحالة عندما يتلاقى نوع تنظيمى أو أكثر إلى الحد الذى تصبح فيه منصهرة مع بعضها . وكما يتضح فهى عملية عكس التباين . كذذلك يتضح أن تعرضها لمشكلة التكامل يقربان من الوظيفيين وعلماء الاجتماع النظرى فى وقت واحد . وقد إتسم هذا الكتاب بأنه ينطوى على تحليلات متداخله مع المادة التاريخية . ولكن هدفهما كان سوسيولوجياً . وهو تناول قضايا قابلة للتطبيق العملى ولم يكن إهتمامهما بالمادة التاريخية الفريدة بنفس طريقة علماء التاريخ .

رابعا : روبرت ميرتون Robert Merton

حاول روبرت ميرتون أن يجمع بين المدخل النظرى . والمدخل الأمبريقى (الواقعى) فى دراسة المشكلات الاجتماعية . ولقد كانت كتاباته تتم بأسلوب متميز وجاذبية متفردة . ولقد حقق كتابه "النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعى" شهرة واسعة خارج أمريكا لما إنطوى عليه من مميزات لاتتوفر لمؤلفين آخرين ولقد أدلارك ميرتون عدم ملاءمة الإتجاه الامبريقى المجرد . والتنظيم الميتافيزيقى . لذلك عرض نموذجا خاصا من النظرية أسماه " نظرية المدى المتوسط " Medium Range Theory وهى نظرية تتلافى سطحية النظرية غير القابلة للإختبار الواقعى وتكون فى نفس الوقت امبيريقية وهو يقصد الإشارة إلى أن علم الاجتماع لا يستحق أن يسمى علما ما لم يبدأ بفكرة أو نظرية . ولكن عند إجراء الدراسة الامبريقية . فإن هذه الفكرة أو النظرية قد تحتاج لتعديل . وبالتالى إذا بدانا بفكرة أو نظرية فإنه لاينبغى النظر إليها إلا على أساس أنها تجربة عرضة للتعديل فى ضوء الدراسات التالية

ويصنف ميرتون بين الوظيفيين على الرغم من أنه وجه انتقادات شديدة لبعض جوانب الفكر الوظيفى وقد عرف الوظيفية

بأنها " النتائج المشاهدة المسئولة عن تكييف أو توافق نسق معين" وليس هذا تعريفا كافيا . لأن المشاهد لأى نظام أو عرف فى المجتمع لا يوضح لنا دائما أسباب وجوده . كما أنها لا توضح لنا أصلة . ولا تدلنا عن تكيف أو توافق نسق معين مرتبط سببيا أو منطقيا بهذه النتائج .

وعلى كل حال فقد أسهم ميرتون إسهامات هامة فى مجال النظرية الوظيفية . مع تمييزه بين الوظائف الظاهرة . والوظائف الكامنة أو المستترة . تشير الوظائف الظاهرة إلى النتائج الموضوعية لأى نظام اجتماعى أو ممارسة يقصدها المشاركون . فى حين أن الوظيفة الكامنة تشير إلى النتائج غير المقصودة . ولاشك أن هذا التمييز أمر أساسى . وله قيمة بالغة . لأنه يلفت الإنتباه إلى الوظائف التى كانت موضوع تجاهل مستمر . وأورد ميرتون كثيرا من الأمثلة التوضيحية . فالوظيفة الواضحة كالإستهلاك الاقتصادى هو الإستخدام . ولكن من بين وظائفه الكامنة دعم الهيبة أو الكبرياء . ولقد كرس ميرتون فصلا بأكمله لوصف السياسة الحضرية فى أمريكا . هذه السياسة التى تشبع حاجات معقدة لجماعات مهملة قد تجاهلتها النظم الرسمية . ويصر ميرتون على أن من الخطأ الافتراضى بأن تلك الحاجات تشبع بطريقة

مختلفة فى ظل نظام أساسى مختلف . لذلك فإن من الضرورى دائما أن ندرك إمكانية وأهمية البدائل الوظيفية

وكذلك استخدم ميرتون مفهوم " الخلل الوظيفى " أو سوء الوظيفةDiesfunction لتعريف النتائج المشاهدة . والتى نلاحظ أنها تقلل من تكيف وتوافق النسق وتزيد التوتر والصراع فى المجتمع

ويعتقد ميرتون أن هذا المفهوم يوفر طريقة لتحليل الديناميات والتفسير . وقد يكون من النافع إضافة مفهومه الثالث وهو "اللاوظيفية". وهو مصطلح يشير إلى تلك الحالات المتعددة لإستمرار تلك الأعراف والتشريعات التى ليس لها ضرورة او وظيفة واضحة . ومع ذلك لا تدخل ضمن ما أطلق عليه الخلل الوظيفى

وهكذا فقد تناولنا على سبيل المثال أربعة من علماء الاجتماع الأمريكين . وقد كشف العرض كيف أن الدراسات فى هذا العلم قد تطورت فى أمريكا متأثرة بالدراسات التى أجريت فى غيرها من البلدان . ولقد حققت إسهامات هؤلاء العلماء إزدهارا لتيارات جديدة وهامة فى علم الاجتماع . فضلا عن الميادين الجديدة

الفصل الثامن

أهم الفلسفات والاتجاهات النظرية فى علم الاجتماع الحديث

محتويات الفصل الثامن

- مقدمة .

أولاً : الفلسفات التى مهدت لظهور علم الاجتماع الحديث :-

١- فلسفة التعاقد الاجتماعى .

٢- فلسفة القانون .

٣- فلسفة التاريخ .

٤- الفلسفة الاقتصادية .

ثانياً : الاتجاهـــــات :-

١- الإتجاه النفسى .

٢- الإتجاه الشكلى التحليلى .

٣- الإتجاه البنائى الوظيفى .



مقدمة :

اتسع نطاق الحركة العلمية الاجتماعية من بداية القرن الحالى إتساعا كبيرا .وقد كان للحربين العالميتين الأولى والثانية أثر كبير على إمتداد مجال الدراسات فى هذا العلم إلى موضوعات جديدة فى السياسة والاقتصاد والاجتماع . وهذه الموضوعات أصبحت موضع إهتمام العلماء والدارسين فى هذا العلم . وقد توصل هؤلاء إلى نظريات كثيرة ومتعددة، لكل منها وجهتها العلمية .

والاتجاهات والنظريات الاجتماعية رغم تعددها وتنوعها تلتقى مع بعضها فى نقاط ثلاث

الأولى : أنها تتناول جميعها الانسان فى علاقته بالواقع الاجتماعى الذى أسهم فى تكوينه نتيجة لأفعاله . تلك الأفعال التى تشكل إطارا عاما لظواهر المجتمع . وهذه الظواهر بدورها أصبحت تمارس تأثيرها على الفعل الإنسانى وتوجهه .

الثانية : إن تعدد النظريات والاتجاهات الحديثة فى علم الاجتماع لم يشكل خطرا على الفكر الاجتماعى . وإمكان قيام نظرية عامة. لأن هناك أصولا فكرية واحدة يمكن الإستناد إليها فى

تضييق الهوة بين عناصر الإختلاف . ومن ناحيــة أخـري فـإن النتائج والتعميمات التى تصدر فى ضوء هـذا الإختـلاف تخـدم الصياغة النظرية . وتجعلها أكثر صلاحية لتناول الواقع المتعدد الأبعاد للحياة الاجتماعية

الثالثة : إن العلمية فى علم الاجتماع تقوم على وحدة المنهج العلمـى. رغم قيام الموضوعية فيه على معايير ومقاييس مختلفة عنها فـى العلـوم الطبيعيـة فالموضوعـات فـى علـم الاجتمـاع تعتمـد علـى تكنيكات فنية متمايزة عما يستخدم فى العلوم الأخــرى . هـذا بالإضافة إلى المقدمات النظرية التى تكشف عن اتجـاه البـاحث فى تفسير الواقع الاجتماعى .

ويقوم الإلتقاء بين هذه الاتجاهات جميعاً عند محاولـة صياغـة نظرية عامة تتلائم مع طبيعة المجتمعات البشرية فى الوقت الراهـن . مع قدر من المرونة يستوعب احتمالات المستقبل فى هذه المجتمعات

علـى أنـه مـع وجـود الإختلافـات والتنـاقض بــين النظريــات والاتجاهات الحديثة فى علم الاجتمـاع . فـإن هنـاك مجـالات كبـيرة للإلتقاء والتخفيف من حدة هذا التناقض . فهى فــى جملتهـا تحـاول

تفسير الحياة والنظم والعلاقات الاجتماعية . وكل منها يستخدم فى سبيل ذلك مدخله الخاص . إلا أن هناك مهمة أساسية يمكن أن تقرب وجهات النظر بين هذه الاتجاهات . وهى ضرورة تحديد المفاهيم المستخدمة فى علم الاجتماع. بحيث يشير استخدام المفهوم الواحد إلى نفس المعنى رغم اختلاف الدارسين . وفى هذا النطاق يمكن القول أنه بالرغم من أن علم الاجتماع أصبح علما كامل النضج . إلا أنه كما أشرنا استطاع أن يحقق قدرا كبيرا من التقدم فى القرن الحالى . الأمر الذى جعل الإستفادة من دراساته فى الميادين المتخصصة أمرا ممكنا إذا ما قورن الوضع بما كان عليه هذا العلم من نصف قرن مضى على سبيل المثال

والدليل على الإلتقاء بين الاتجاهات النظرية المختلفة فى علم الاجتماع الحديث . ما ظهر مؤخراً من فروع متخصصة مثل علم الاجتماع المعرفى . والاجتماع الدينى . والاجتماع القانونى . واجتماع التنظيم . والاجتماع الصناعى والاجتماع القانونى . واجتماع التنظيمات . والاجتماع الصناعى . والاجتماعى الريفى . والاجتماع الحضرى . والاجتماع السياسى . وغير ذلك . فهذه ليست علوماً جديدة كل الجدة . ولكنها تشير إلى وجود إطار أساسى من المفاهيم .

وقبول معين لوجهة نظر عامة . لأنها فى جملتها فروع من علم الإجتماع العام . وظهورها يبشر بالخير فى إمكان إيجاد أسس معينة للإلتقاء بين الاتجاهات المتباعدة كل هذا فضلا عن أخذ معظم الاتجاهات السائدة فى علم الاجتماع وبالاتجاه الكمى . والأخذ بذلك ليس مرغوباً فى حد ذاته ولكنه أداة لضبط التفسير العلمى للظواهر المدروسة .

وقد نشطت فى السنوات الأخيرة اتجاهات تدعو إلى جمع أكبر قدر من الحقائق والملاحظات التى تساعد فى تفسير الظواهر الاجتماعية . وهناك من يعتمد على هذه الحقائق فى محاولة استخلاص صياغات نظرية عامة . أى أن الإتجاهين الأساسيين اللذين يتوقع لهما الإستمرار فى علم الاجتماع هما الاتجاه الذى يدعو إلى جمع الملاحظات الواقعية للمجتمعات. أو الحقائق فى محاولة التنظير. والموازنة واستنباط أفكار أو قوانين عامة. وتجدر الإشارة إلى أن الاتجاهات الرئسية التى ظهرت فى علم الاجتماع . هى الاتجاه الدوركيمى أو اتجاه المدرسة الفرنسية . والاتجاه التحليلى أو الشكلى. والاتجاه الوضعى . والاتجاه التجريبى . والاتجاه الوضعى الحديث. والاتجاه الأيكولوجى. والاتجاه البنائى الوظيفى والاتجاه التكاملى

وهنا سوف نتناول ثلاثة من بين هذه الاتجاهات هى الاتجاه النفسى . والاتجاه الشكلى أو التحليلى. وأخيرا الاتجاه البنائى الوظيفى .

ويقوم اختيارنا لهذه الاتجاهات لما لها من أثر فى الوضع الراهن للفكر الاجتماعى . وميل بعضها - خاصة الاتجاه البنائى الوظيفى - للتأكيد على فكرة الإلتقاء بين الاتجاهات المختلفة فى هذا الفكر .

وقبل أن نتناول هذه الإتجاهات سوف نتعرض لأهم الفلسفات التى مهدت لقيام علم الاجتماع الحديث على النحو التالى :

أولاً : الفلسفات التى مهدت لظهور علم الاجتماع الحديث :-

كان لمجموعة من الفلسفات الفضل الأكبر فى التمهيد لظهور علم الاجتماع يمكن توضيحها كالآتى :-[1]

---

(١) زيدان عبد عبد الباقى . التفكير الاجتماعى نشأته وتطوره . كليه البنات الإسلامية . جامعة الأزهر . ط٢ . ١٩٧٤ . ص ص ١٧١-١٧٢

١- فلسفة التعاقد الاجتماعى وعلم الاجتماع :-

حفل القرن السادس عشر . أو قرن التنوير أو واسطة عقد عصر النهضة بكثير من الإصلاحات الدينية والسياسية . حيث إنحسرت الدول المترامية الأطراف أمام المطالبة بالقوميات المختلفة . فكانت بعض القوميات تبقى للكنيسة سلطاتها . وبعضها تمنح تلك السلطات للملوك. ومن هنا بدأ الصراع الفكرى حول الملك والكنيسة وترتيبا على ذلك نجد مفكراً يتعصب للنظام الملكى ويعتبر الملك ظل الله فى الأرض. والبعض الآخر يتعصب للطبيعة . وبالتالى الكنيسة. وإن كان لا يعلن ذلك صراحة . وفى هذا القرن نبتت بذور "التعاقد الاجتماعى" ومن أهم مفكرى هذه الفلسفة التعاقدية :-

أ- هوبز Hobbes (١٥٧٧- ١٦٧٩)

عاش هوبز حتى قرب نهاية القرن السابع عشر . وتأثر بظروف الاضطراب وعدم الإستقرار السياسى فى عصره الذى جاء على أثر حرب أهلية فى إنجلترا . فجاءت أفكاره عن المجتمع أو الطبيعة البشرية متأثرة بهذه الظروف . فالحياة الاجتماعية هى حالة حرب يدخل فيها الكل ضد الكل . فالانسان تتملكة غريزة واحدة هى غريزة

المحافظة على حياته . وهذه الغريزة تدفعه إلى الكفاح طول حياته . فيظل مكافحا حتى يموت وغريزة البقاء هذه تجعل الانسان يبحث عن الوسائل التى تكفل له الأمان . وفى سبيل بحثه عن الأمان يلجأ إلى وسائل القوة . ولا يهتم إلا بتوفير الطمأنينة لنفسه . دون أن يعير غيره أى إهتمام إلا إذا وجد أن بقاءهم وطمأنينتهم ضروريتان لبقائة وطمأنينته . ولهذا فإن الحياة هى حالة حرب مستمرة بين الأفراد وبعضهم بعضاً . فالفرد يسعى إلى الحصول على كل ما يشعر أنه فى حاجة إليه دون أن يعبأ برغبات الآخرين أو باحتياجاتهم . وهذا يؤدى إلى تشابك الناس وإحتدامهم بعضهم ببعض .

وفى وجود هذه الحالة من الحرب تظهر مشكلة نظام فى المجتمع ولابد من وجود قوة تضمن للمجتمع قدراً كبيراً من النظام والإستمرار . ورأى هوبز أن هذه القوة يجب أن تكون الدولة التى يخضع لها الأفراد خضوعاً مطلقاً . وهو يتصورها على هيئة عملاق جبار أو وحش هائل فى يده جميع السلطات . وتخضع له كل المنظمات التى تتكون منها الدولة . فنظرية هوبز تقوم على التقابل بين الطبيعة البشرية القائمة على الغرائز والحرب والتى تضع أمام الأفراد معضلة تحقيق النظام . وبين العقل المهذب الذى يخلق كل هذه

المشكلة . والحل عند هوبز هو القوة القهرية التى تمارسها الدولة على الأفراد . ولكى يكسب هوبز القوة القهرية قدرا من الشرعية لجأ إلى نظرية "العقد الاجتماعى" فالمجتمع ينشأ نتيجة عقد يبرم بين الأفراد وبعضهم . وبموجب هذا العقد يتنازلون عن جميع حقوقهم ويتعهدون بالخضوع لشخص واحد . أو لعدة أشخاص يمثلون الحكام. والحاكم له حرية التصرف فى استخدام القوة . والقوة عنده تتمثل فى القهر فالأفراد الذين يخافون العقاب ينفذون التزاماتهم. ويتوقعون من الآخرين نفس الشىء ومن ثم يتحقق بينهم قدر من الترابط والاتساق فى المعايير تجعل الحياة قادرة على الإستمرار .

وتتلخص وجهة نظر هوبز فى عبارته التالية :

"إن العهود بدون السيف (القوة) ليست إلا كلمات لها قدرة على المحافظة على حياة الانسان . والكلمات أصعب من أن تستطيع ردع طموح الأفراد أو طموحهم أو غضبهم أو إنفعالتهم "[1]

فلكى يضع الانسان حداً لأنانيته من أجل الوصول إلى حالة

---

(١) أحمد زايد ، علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية . دار المعارف . القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٤ . ص ص ٣٤ -٣٦

يسودها السلام بين الناس . وجد أنه من الضرورى أن يتنازل كل فرد عن قسط من حريته على شرط أن يفعل الآخرون بالمثل . ومن هنا نشأ بين الناس عقد مبدئى على أساس خوف الناس بعضهم من بعض . وعلى أساس أن هذا العقد سيحقق لهم ميزات تفوق ما يتمتعون به فى الحالة السابقة على التعاقد . فالخوف إذن هو أساس التعاقد . والخضوع للعقد مرده خوف الناس بعضهم من بعض . والخوف المشترك . هو أيضاً أساس القيام بالواجبات والإلتزامات وإزاحة الحقوق إلى أصحابها . ولم يكتف بذلك العقد . وإنما أضاف إليه عقداً آخر يضمن الإستقرار للناس . وبمقتضى هذا العقد الثانى يتنازل الأفراد لأحدهم لكى يمثلهم أو ينوب عنهم فى تطبيق بنود العقد الأول. وبمقتضى هذا التعاقد . يصبح هذا الشخص فى حالته الطبيعية من قوة أو سلطة . وبذلك يصبح هذا الشخص هو الحاكم على هؤلاء الذين تنازلوا طواعية ولمصلحتهم عن كل حق لهم . ويرى هوبز أن هذا الحاكم وهو ما إصطلح الناس على تسميته بالملك . ليس طرفاً فى العقد . ومادامت وظيفته هى تحقيق التوازن بين الميول الذاتية والميول الغيرية . فإن هذا الملك يفعل ما يراه محققاً لذلك . وما يفعله هو العدل حتى ولو كان للناس رأياً آخر فى أفعاله ، فهو الحاكم المطلق

وليس للأفراد أن يستردوا مـا عهـدوا بـه إليـه وأى محاولـة لإسـترداد السلطة الممنوحة لذلك يعتـبر القـائم بهـا متمـرداً . وعلـى الجماعـة – وليس على الملك – أن تبتتره من عضويتها . ويبدو أن الإنحياز المطلـق للملكية ، قد جعل هوبز يعتقد أن الثائر على الملك الطاغيـة هـو الـذى سيسلب هذا الملك حقاً أساسياً له ، بينما لم ير هوبز أن الملك الطاغيـة هو الذى يسلب حقوق الشعوب ، وأن كل ثائر وطنى يحاول إسـترداد تلك الحقوق يعتبر بطلاً .

ب- جون لوك Locke (١٦٣٢ - ١٧٠٤)

كانت آراء "لوك" فى كتابه « الحكومـة المدنيـة » علـى طرفـى نقيض من آراء "هوبز" فهو يذهب إلى أن حالـة الطبيعـة لم تكـن أبـداً حالة حرب وصراع وأنانية . بل كانت حالة يعيش فيها الانسان حـراً ويتصرف على أساس عقلى . كان من شأنه أن يخفف من آثار الحرية المطلقة . وليس معنى ذلك أن حالة الطبيعة تخلو من المتاعب والأنانية والصراع . بسبب فساد بعض الأفراد ولخلوهـا مـن أسـباب الإسـتقرار الثلاثة التى حددها "لوك" على النحو التالى :-

١- قانون مستقر واضح .

٢-قاض عادل يحكم بين الأفراد .

٣- قوة تنفيذ تستطيع تنفيذ القانون .

ويذهب لوك إلى أن الأفـراد متسـاوون فـى الحقـوق والواجبـات بالطبيعة بإعتبارهم أفراداً فى مجتمع طبيعى . ونظر لأن الحياة تـزداد تشابكاً يوماً بعد يوم ، فكان من الضرورى الإتفاق على شخص ما لكى يتولى تنفيذ القانون الطبيعى دون تحيز . ومـن هنـا إتجـه التفكـير إلى إيجاد سلطة عليا وظيفتها إقامة العدل بين الناس وتنظيم حريتهم التى

يتمتعون بها منذ عهد الفطرة . وبذلك إصطلحوا على إبرام عقد بينهم وبين شخص ما . أو مجموعة من الأشخاص . بحيث يكون هذا الشخص أو تلك المجموعة طرفاً فى التعاقد حتى يكون من الميسور إلزامة أو إلزامهم ببنود هذا التعاقد والسهر على تطبيق نصوصة بكل دقة .

والحاكم أو الملك فى هذا التعاقد ليس إلا مجرد "حكم" بين الأفراد بمعنى أنه لا يتمتع بحقوق أكثر من أى مواطن آخر من مواطنيه. وبالتالى فإن من حق الأفراد إستخدام حقوقهم الطبيعية ضده. بحيث تباح الثورة ضده إذا ما خالف نصوص العقد . فالثورة على الملك الطاغية – على غير ما قال هوبز – حق مشروع للأفراد لأنه فى هذه الحالة يكون قد أخل بشروط التعاقد . وجعلهم فى حل هم الآخرين من الإرتباط به .

فمن هنا نرى أن "لوك" إعترف بحالة الفطرة كحقيقة تاريخية. وخالية من الحروب والصراعات التى زعمها هوبز كما أنه جعل الملك طرفاً فى العقد ومن ثم يمكن مؤاخذته فى حالة عدم تنفيذ نصوص التعاقد .

جـ- جان جاك روسو Rousseau (١٧١٢ - ١٧٧٨):

تأثر روسو بكل ما كتب حول فلسفة التعاقد الاجتماعى . وراح يسبغ عليها الكثير من الآراء التى يستخلصها من فكرة أو مشكلة سيطرت على تفكيره ومؤداها : أن الأفراد وجدوا أن ليس ثمة وسيلة لإنقاذهم من حالة الطبيعة إلا البحث عن شكل للوحدة أو للاجتماع من شأنه أن يحمى ويقى شخص كل عضو وممتلكاته . شكل للوحدة يكون فيه كل عضو، وقد إتحد مع الأعضاء الآخرين. غير خاضع مع ذلك إلا لنفسه، ويظل أيضاً متمتعاً بنفس الحرية التى كان يتمتع بها من قبل، وهذه الفكرة هى محور كتابه "العقد الاجتماعى".

فقد ذهب إلى أن الحالة الطبيعية أو الاجتماع الطبيعى الذى نشأ فى ظله الانسان الأول كان أسعد حالاً.وأن التطور والتقدم هو الذى أفسد طبائع الأفراد وسبب شقاءهم وأقام الفروق بينهم وأدى بهم إلى عدم التساوى مع أن الطبيعة خلقتهم أحراراً.ولقد إنتهى به البحث عن تبرير لذلك، وهو أن الانسان إكتشف فائدة الزراعة. والزراعة تتطلب الإستقرار والتوسع ومن ثم بدأ الصراع حول حيازة الأراضى ومصادر المياة والقنوات والحدود وما إلى ذلك.ومن هنا بدأ التفاوت بين الأفراد . وإشتد التنافس فيما بينهم.ومن هنا يمكن القول أن روسو أرجع كل

مظاهر الفساد إلى "ظاهرة الملكيــة الزراعيــة " تلـك التـى تتعـارض مـع النظام الطبيعى الذى يراه أفضل النظم وقد ترتـب علـى إعـلان هـذا الرأى أن غضبت عليه البيوت المالكة فى أوروبا ومع ذلك فقد كانت صيحته هذه إعلانا بالمولد الفعلى لأول مرحلـة مـن المراحـل الشـيوعية وهـى الإشـتراكية . فقـد أوضـح أن النـاس كـانوا فـى حالـة الطبيعــة متساوين ولكن المجتمع والحضارة هما اللذان أديا إلى مانرى بينهم مـن فروق . وأضاف إلى ذلك أن الحضارة فاسدة. وأن التقدم الحضارى هـو أساس ماتعانية البشرية من شرور وآثام . ثم ينصح بضرورة الرجوع إلى "حالة الطبيعة" التى تؤدى وحدها بالإنسان إلى " حالة السعادة " .

غير أن هـذا الحـل بـدا لـه مسـتحيلا. لتعلـق الانسـان بالحيـاة الاجتماعية الحضرية. وأنه ليس على إستعداد للعودة إلى حالة الطبيعة مرة أخرى على إعتبار أن الحيـاة الحضريـة قـد أصبحـت لـه بمثابـة "طبيعـة ثانية" لا يستطيع أن يستبدل بعا غيرهـا. ومـن ثـم طـالب بـإصلاح الحيـاة الاجتماعيـة إصلاحـا مـن شـأنه أن يـؤدى بالانسـان إلى التمتـع بـالميزات الطبيعية. التى كان يتمتع بها فى حالة الطبيعة والتى فقدها للأبد.

فالإنسان يولد حرا . ولكنه مكبل بالأغـلال فى كـــل مكـــان . ويتساءل عن كيفية إنتقالة من الحرية التى ولد فيها إلى حالة العبودية

التى يعيش فيها خاضعاً لسلطان يستند له ويتحكم فى مصيره . ومن ثم فإنه ينفى أن يكون القانون الطبيعى أساساً لهذا الإستعباد . وإذاً ماهو السبب فى ذلك ؟ هل هو قانون الأقوى ؟ ولكن أقوى انسان لن يكون أبداً من القوة بحيث يستمر سيداً ، مالم يحول قوته إلى حق وطاعته إلى واجب . وذهب إلى أن القوة لا تنشىء حقاً . وأن الناس ليسوا ملزمين بالطاعة إلا للقوة الشرعية . فطبيعة الانسان تجعله لا يتنازل عن حريته ، لأن معنى ذلك هو تنازل الانسان عن صفته الإنسانية . بل التنازل عن واجبات الانسان نحو نفسه . فهو إذا ضد الطبيعة الانسانية ، وبالتالى لا يكون لأى انسان أو لأى شعب أن يتنازل عن حريته لأى شخص .

وعلى الرغم من ذلك فإن الأفراد لم يجدوا وسيلة أفضل من التنازل عن جزء من حقوقهم الشخصية للمجموع . ووظيفة هذا التعاقد هى حماية مصالح المتعاقدين بواسطة القوة الجمعية فتتحقق بذلك المساواة بين الجميع وتصبح إرادة المجموع نافذه . بمعنى آخر تصبح الأمة كلها هى صاحبة السيادة والسلطان . ويتخذ كل فرد لقب مواطن نظير إشتراكة فى السلطة .[1]

(١) زيدان عبد الباقى ، مرجع سابق ، ص ص ١٧٣ – ١٧٦ .

فالسلطة التى تأتى عن طريق القوة – من وجهة نظر روسو – لا تمنح صاحبها حقاً من الحقوق . وإذا ما اضطر الانسان إلى أن يخضع لهذه القوم يوماً ، فليس عليه جناح إذا لم يطعها . وينتهى روسو إلى القول بأن الحق الاجتماعى لا يأتى من الطبيعة ، بل إنه قائم على الإرتباط بين أفراد المجتمع الواحد تجاه الآخر . فالمجتمع فى نظرة يرتكز على عقد أو ميثاق ، أى على الإرتباط المتبادل المتفق عليه بين أفراد هذا المجتمع . ويقترح روسو نظرية جديدة لتنشىء شرعية السلطة السياسية ، فالسيادة المطلقة إنما هى للشعب الذى لا يمكنه أن يتخلى أو ينزل عنها ، كما يعتقد أن الانسان كان خيرا وحرا وسعيداً ، ولكن المجتمع هو الذى جعله خبيثاً ، وعبداً وبائساً . ومع ذلك فروسو ينقض هذا الرأى من جديد ، ويذكر أنه من الإستحالة أن يرجع إلى الوراء ، بل يجب أن يخضع للمجتمع ، فجميع الناس فى هذا المجتمع يرتبط الواحد منهم بالآخر تمام الإرتباط بميثاق ، وهذا الميثاق هو الذى يسوى بين الناس فى الحقوق والواجبات . كما أنه يجب أن يكون هناك عقد بين الشعب وحاكميه الذين اختارهم بمحض إرادته ،ويدفع هذا العقد الشعب وحاكميه إلى ملاحظة القوانين التى إتفقوا عليها والتى تشكل روابط إتحادهما معاً .[1]

---

(١) غريب سيد أحمد ، تاريخ الفكر الاجتماعى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ،١٩٨٦ ، ص ص ٢٤٦ – ٢٤٧ .

٢- فلسفة القانون وعلم الاجتماع :-

فلقد أشار دوركايم إلى تعريف "مونتسكيو" Montesquieu للقوانين فى كتابه "روح القوانين" وهو أن القوانين هى العلاقات الضرورية التى تشتق من طبيعة الأشياء . فقد نظر إلى القانون على أنه ضروره تنشأ من طبيعة الاجتماع الانسانى . أى أن نشأته لا ترجع إلى أصل قدسى أو مثل دينية أو أخلاقية . وإنما تلك النشأة ترجع إلى المجتمع نفسه . ومن هنا فإن علم الاجتماع التشريعى أو القضائى الذى إعتبره دوركايم فيما بعد من الفروع الأساسية لعلم الاجتماع كان له أساساً واضحاً فى فلسفة مونتسكيو . ومن الموضوعات التى تناولها مونتسكيو بالدراسة :-[١]

١-إن المجتمع مظهر من مظاهر الطبيعة . وأن الغريزة الاجتماعية هى إحدى الغرائز الأربعة الساسية : وهى غريزة التدين . غريزة حب البقاء . الغريزة الجنسية . بالإضافة إلى غريزة حب الحياة فى المجتمع .

٢-ولما كان الاجتماع الانسانى أمراً طبيعياً . كان القانون بالمعنى الذى

---

(١) زيدان عبد الباقى . مرجع سابق . ص ص ١٨٢-١٨٣ .

عرفه به مونتسكيو ينطبق عليه كما ينطبق على الأمور الطبيعية الآخرى . وهذا المعنى صحيح . أيضاً فيما يتصل بالقوانين الأخلاقية ضمن نطاق الحرية الانسانية ، كما هو صحيح أيضا بالنسبة للقوانين الطبيعية فى نطاق المادة .

٣-كما أن هذه القوانين نسبية . تتصل بشروط مادية واقتصادية مثل الاقليم وخصب الوادى واتساعة . وكثافته السكانية . والحرف الشائعة بين السكان مثل الصيد . ورعى الماشية . وزراعة الأراض .وتتصل أيضاً بالنواحى الروحية مثل : الديانة . والحرف الفردية .والتقاليد والآداب العامة.وتتصل أيضاً بتأثير القوانين فى بعضها البعض .وبمصادر تلك القوانين وأهدافها. وأخيراً تتصل بالمبادىء النفسية الثلاثة القائمة عليها الحكومات وهى :-

أ - حيث تقوم الملكية على حب المجد والشرف .

ب- ويقوم الحكم الديمقراطى على الفضيلة المدنية .

جـ- ويقوم الإستبداد على الرعب .

٤-يربط مونتسكيو بين نمط الحكم بصفة عامة والإيديولوجية الاجتماعية السائدة ، تلك التى تتألف من جملة العقائد والميول

الفكرية والآراء العامة التى هى ناجمة عن طبائع الناس . وعن بيئاتهم وأقاليمهم ومن ثم فإذا اضطربت تلك الأيديولوجية كان ذلك إيذانا بانهيار هذا النوع من الحكم .

فالملكية تنقلب إلى الأوليجاركية إذا زال الشعور بالشرف وغاب حب المجد عن نفوس الصفوة الحاكمة . والحكم الجمهورى يستحيل إلى فوضى إذا إنخفض الشعور بالفضيلة بين المواطنين

لكى نتجنب ذلك . فإنه من الضرورى الأخذ بمبدأ فصل السلطات وهو المبدأ الذى استعاره من الدستور الإنجليزى. لأن بقاء السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية بعيداً عن بعضهما البعض يؤدى إلى توازنها. ومن ثم يستحيل على الأفراد فى أى سلطة منها أن يشكلوا مراكز قوى ضد باقى القوى الاجتماعية فى المجتمع.

ويذهب مونتسكيو إلى أن الطبيعة كانت قبل ظهور القانون الوضعى هى التى توفر للأفراد مستوى من العدالة المجردة . ويرى أن نشأة الحكومة واختيار نوعها يتوقفان على المحيط الذى يتم فيه ذلك. وأن الحكومات التى يمكن أن تنشأ ثلاثة أنواع : الحكومة الجمهورية. الملكية والإستبدادية . والحكومات الديمقراطية فى رأية أنها تعتمد على وعى الشعب السياسى . والملكية تعتمد على الشعور

بأن الطبقة العسكرية تتولى حمايتها . أما الحكومة الإستبدادية فإنها تعتمد على هدف الشعب . ثم يقول بعد ذلك أن كل نوع من أنواع هذه الحكومات يكون ملائماً لحجم خاص من أحجام الدول .[1]

ولاشك أن دراسات مونتسكيو هذه قد أفادت فى التمهيد لمولد علم الاجتماع فيما بعد . ذلك أنه تناول فيها موضوعات لاتزال من مقومات الدراسات الاجتماعية والقانونية الحديثة . ولعل الذى أدى إلى عدم اعتبارها من المقومات الأساسية فى الوقت الحاضر هو أن تناوله لها لم يكن خاضعاً لترتيب معين .

٣- فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع :-

تعد فلسفة التاريخ نوعا من المعرفة الاجتماعية كان لها شأن فى العهود الحديثة لاسيما منذ القرن الثامن عشر – وهى تبحث – على حد تعبير دوركايم فى تحديد الاتجاه العام لتطور الانسانية . وإيجاد قانون لحركة الحياة البشرية . وهذا القانون يكون عادة فى شكل خط يرسم هذه الحركة . وهذا الخط قد يكون دائريا كما هو الحال عند ابن خلدون . وقد يكون لولبياً كما هو الحال عند "فيكو". وقد يكون مليئاً

---

(١) زيدان عبد الباقى . مرجع سابق . ص ٢٣٣ .

بالإنحرافات أو التعاريج كما هو الحال عند فولتير ... إلخ ومهما تنوعت الخطوط فهى فى نهاية الأمر ترسم مراحل "التقدم" المتعاقبة لحياة الناس فى التاريخ وإنتقالهم فى عهود متباينة . كل منها يمثل لوناً معيناً من الحياة . ونوعاً خاصاً من النزعات العامة فى التفكير والتطبيق ومن ثم فإن التاريخ لا يسير حسب الأهواء والمصادفات وإنما طبقاً لقوانين مجردة كما قال بذلك ابن خلدون من قبل [1]

أ- عبد الرحمن بن خلدون :-

عرف بن خلدون التاريخ تعريفاً اجتماعياً بقوله يهدف التاريخ إلى إفهامنا الحالة الاجتماعية للانسان . أعنى الحضارة . ويهدف كذلك إلى تعليمنا الظواهر التى ترتبط بهذه الحضارة . وإلى معرفة الحياة البدائية . وتهذيب الأخلاق وروح الأسرة والقبيلة . وتباعد وجهات النظر فى أن سطو شعوب على شعوب أخرى يؤدى إلى نشأة إمبراطوريات وأسر حاكمة وفوارق الطبقات والمصالح التى يكرس لها الناس أعمالهم ومجهوداتهم مثل المهن المربحة والصناعات التى تعين على الكسب والعلوم والفنون . وأخيراً جميع التغيرات التى تحدثها

(١) زيدان عبد الباقى . مرجع سابق . ١٨٤ .

طبيعة الأشياء فى سلوك المجتمع [1]

ومنهج الدراسة الاجتماعية للتاريخ عند ابن خلدون منهج ديناميكى بالضرورة يسير مع حركة التاريخ ويستوعب تطور الحياة الاجتماعية وإنتقالها من حالة إلى أخرى ذلك لأن أحوال الأمم وعوائدهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر وإنما هو إختلاف على مدار الأيام والأزمنة وإنتقال المجتمع من حال إلى حال. ويرجع هذا الإختلاف والتباين فى أحوال المجتمعات ونظمها إلى عوامل عديدة اقتصادية وجغرافية وثقافية . ذلك أن المجتمع عند ابن خلدون شأنه شأن الفرد يمر بمراحل منذ ولادته حتى وفاته. أما المرحلة الأولى فهى مرحلة البداوة ويقتصر فيها الأفراد على الضرورى فى أحوالهم ويكونون عاجزين عن تحصيل ما فوق الضروريات . كما تتميز هذه المرحلة بخشونة العيش وبوجود العصبيات . أما المرحلة الثانية فهى حالة الملك . وفيها يتحول المجتمع عن البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف . ومن الإشتراك فى المجد إلى إنفراد الواحد به . وهذا يعنى تركيز السلطة. أما المرحلة الثالثة فهى مرحلة الترف

---

(١) محمد على محمد . علم الاجتماع والمنهج العلمى . دار المعرفة الجامعية . الاسكندرية. ط١ . ١٩٨٠، ص ١٣٧ .

والنعيم أو الحضارة وفيها ينسى الأفراد عهد البداوة والخشونة ويفتقدون حلاوة العزو والعصبية ويبلغ فيهم الترف غايته ويؤدى النعيم بالدولة إلى الإنقراض والزوال الذى تسبقة حالة رابعة من الضعف والإستكانة وفساد الخلق تسمى حالة الإضمحلال.وهذه الأطوار فيما يرى ابن خلدون طبيعية وتتفق مع طبائع الأشياء . فالأصل فى المجتمعات حالة البداوة كما يدلنا على هذا إستقراء حالة التطور فى المجتمعات الانسانية .[1]

ب- فيكو Vico

تتمثل الفكرة الرئيسية التى يتضمنها مفهوم التاريخ الاجتماعى عند فيكو فى نظرية التطور ذى المراحل الثلاث وتشمل تطور البشرية والحضارة من المرحلة الدينية إلى مرحلة البطولة إلى مرحلة الانسانية على النحو التالى :-

(أ)*المرحلة الأولى :* وتتميز بإنتشار وسيطرة التفكير الدينى واللاهوتى. بحيث يتغلغل هذا اللون من التفكير سائر مظاهر الحياة الاجتماعية كالأسرة والعادات والتقاليد واللغة والملكية والحكومة.

---

(١) محمد على محمد مرجع سابق ، ص ١٣٧

(ب)*المرحلة الثانية* : وهى عهد البطولة وهو عهد يسيطر فيه ذوو القدرات والإمكانيات العقلية الذين يرفعهم الناس إلى أعلى المراتب ويخضعون لحكمهم وسيادتهم . ويتسم النظام الاجتماعى والسياسى العام فى هذا العصر بسيادة حكم العقل على حكم الإيمان . وبظهور مبادىء الفلسفة والآداب والفنون .

(ج)*المرحلة الثالثة* : وهى مرحلة الانسانية،وهى عهد الحرية والحقوق المدنية والسياسية.ولهذا تصبح الحكومة فى هذا العهد حكومة ديمقراطية،والدين يهدف إلى رفع المستوى الأخلاقى العام فى المجتمع والقيمة الموجهة للسلوك هنا هى قيمة الواجب وإحترام الطبيعة الإنسانية .

ويعتقد فيكو أن هذه المراحل الثلاث تتعاقب بشكل دورى منتظم بحيث أن الحالة الأخيرة تمهد لظهور الحالة الأولى.وإن كانت هذه الحالة الأولى حين تعود مرة أخرى لا تكون عودة إلى نفس العهد الدينى الأول،وإنما إلى شكل دينى مخالف وأرقى فى نزعاته الدينية،وتعاقب هذه الحالات أو الدورات يمثل فى رأى فيكو قانوناً عاماً تخضع له حوادث التاريخ عند سائر الأمم وعلى الأخص الأمم الأوروبية [١] .

---

(١) المرجع السابق . ص ص ١٣٨ – ١٣٩ .

جـ- فولتير Voltaire (١٧٦٤ - ١٨٧٨)

تتلخص فلسفة فولتير فى التاريخ فى أن الانسانية مـرت بعهدين هما :-

(أ)*العهد الأول :-* وهو حالة افتراضية لحياة الانسان تشتق من طبيعته باعتبارة كائناً عاقلاً يمكن أن يعيش فيها خاضعاً لقوانين العقل . وهى قوانين فطرية تصدر عن الطابع البشرى الذى يقوم على إحترام حق الغير فى الحياة والعمل ووجوب تمتع كل فرد بنتاج عمله . ويطلق على هذا العهد إسم عهد الفطرة .

(ب)*العهد الثانى :-* حيث يعيش الانسان طبقاً لما يضعه لنفسة من نظم كاملة وقوانين عادلة . وذلك أن الانسان مزود بغريزة حب البقاء . وغريزة حب الحياة فى مجتمع . ومن ثم فإنه يضع القواعد والأعراف والتقاليد فى هذه القواعد . أى أنها مرحلة من صنع الانسان وتسمى مرحلة الحضارة .

بيد أنه إعتبر نظام الحكم المطلق ونظرية التفويض الإلهى المباشر . ونظام الإستبداد البرلمانى وما إلى ذلك من العوامل التى عاقت الانسان عن الإنتقال إلى المرحلة الثانية . ولذلك يقول أن الانسانية

تتقدم إلى الحالة المدنية بخطوات بطيئة .

ويضيف إلى المعوقات التى حالت دون وصول الانسانية إلى المرحلة الثانية أربعة أنواع من الإنحرافات هى :-

(أ)***الإنحراف الطبقى*** : ويعترف بأن الطبيعة الإنسانية واحدة فى كل زمان ومكان، ولكنه يرى أن بين الناس فروقاً فردية فى قدراتهم وإستعداداتهم ومن ثم كان النظام الطبقى ضرورة اجتماعية. وهو هنا يخالف الشيوعيين الذين يقولون بأن المجتمع طبقة واحدة .

(ب)***إنحراف الملكية*** : ذلك أن فولتير، وإن كان يؤيد حق الملكية الفردية، إلا أنه يرى أن هذا الحق وسيلة إلى الطغيان من جانب الأغنياء، مما يؤدى إلى حرمان الفقراء. ولهذا ينادى بإصلاح أو تهذيب هذا الحق، لأن الملكية تدفع الانسان إلى العمل وتزيد من هيبته وقدرته.

(ج)انحراف اضطهاد الأجناس . ويراه انسياقاً اجتماعياً لا يستقيم مع العقل . بمعنى أن اضطهاد أو احتكار جنس لجنس آخر لمجرد اللون أو لأى سبب آخر لا يتفق مع الاخاء الانسانى . الذى يجب أن يسود المجتمعات .

(د)إنحراف الإضطهاد الدينى . ويراه أيضاً من الأعمال غير الانسانية.

ولهذا يدعو إلى المحبة والآخاء الدينى . وعدم محاربـة أى انسـان بسبب معتقداته المذهبية .

د- كوندرسيه : Condercet (١٧٤٣ - ١٧٩٤)

وتتلخص نظرية كوندرسية فى فلسفة التاريخ فى إعتبارة للتطور البشرى أشبة بخط صاعد نحو الرقى والإكتمال . ومن هنا فإن كل مرحلة من مراحلها العشرة أرقى من سابقتها . وتمهد لأخرى أرقى منها . وتمثل المراحل التسعة الأولى تجربة الانسانية فى الماضى. على حين أن المرحلة العاشرة هى مرحلة "الآمال" وتتعلق بما ينبغى أن تكون عليه الانسانية :

(أ)*المرحلة الأولى :-* وفيها وصف الانسان بأن له ثلاثة طبائع : جسمية وعقلية وأخلاقية . وبمقتضى هذه الطبائع الثلاثة فإن الانسان لا يستطيع الحياة إلا فى جماعة صغيرة مثل الأسرة . وفى هذه المرحلة يبدأ الانسان فى صنع آلات الطهى والحرب وجمع وتخزين وتصنيع المواد الأولية إلى آخر الفنون والحرف التى تميز الانسان على الحيوان .

(ب)*المرحلة الثانية :-* وهى مرحلة إستئناس الحيوانات بعد أن عرف

الانسان فائدتها . ولقد ساعد إستئناس الحيوان على إيجاد نوع من الإستقرار فى حياة الناس . وعرف الانسان الرعى والزراعة الأولية لتوفير المواد الغذائية للمواشى .

(ج)*المرحلة الثالثة* :- وهى مرحلة الزراعة ، حيث شجعتهم زراعة النباتات المفيدة لمواشيهم فى المرحلة السابقة على الإرتقاء بفن الزراعة .فعمت بين الناس روح الإكتفاء والإمتلاء وإنصرفوا إلى التجديد والإبتكارات العقلية . ومن هنا ضعفت قوة الخرافات والسحر على عقول الناس . فالتقدم الفكرى والحضارى لا يؤدى إلى إفساد الأخلاق والآداب العامة .

(د)*المرحلة الرابعة* :- وهى المرحلة اليونانية . فقد أهمل كوندرسيه الشعوب القديمة مثل الشعب المصرى والهندى والصينى وغيرها . وإهتم باليونانيين واعتبرهم آباء الحضارة الأوروبية على اعتبر أنهم ابتكروا الفنون والعلوم والفلسفة .

(ه)*المرحلة الخامسة* :- وهى المرحلة الرومانية .والرومان عند كوندرسيه ليسوا أهل عبقرية خاصة فى ميدان التفكير النظرى. وإنما كانو تلاميذ لليونانيين فى الفلسفة والعلوم والفنون.وإمتازوا عن

اليونانيين فى ثلاثة أمور هى: أن عقليتهم كانت تميل إلىالواقع لا إلى النظر والتجريد والخيال، ونبوغهم فى التشريع والقوانين الرضعية، وضعف الأثر الدينى عند الرومان.ولكن هذه المظاهر الثلاثة لم تدم طويلاً لظهور المسيحية بمبادئها المخالفة لذلك.

(و)*المرحلة السادسة :-* وتبتدىء من سقوط روما إلى الحرب الصليبية وفيها طغت الكنيسة وانطفأت مشاعل المعرفة وانتشر الجهل وإنحطت المشاعر الإنسانية وسادت الأطماع والشهوات، وتفنن رجال الدين فى غير ذلك من الخيالات ليؤثروا بها وليلقوا الرعب فى نفوس الناس.

(ز)*المرحلة السابعة :-* وتعرف بعهد الإقطاع . وهى الفترة التى امتدت من الحروب الصليبية إلى أن إخترعت الطباعة فى منتصف القرن الخامس عشر . ولهذه المرحلة ثلاثة من المثالب . ومثلها من المناقب . وهى على النحو التالى :-

١- المثلبة الأولى : وهى إستبداد الحكام المدنيين .

٢- المثلبة الثانية : وهى إستبداد الحكام العسكريين .

٣- المثلبة الثالثة : وهى إستبداد الحكام الروحانيين .

أما المناقب فهى :-

١-ظهور التفكير الفلسفى وبعض المعارف الأدبية وخضوعها كلها للدين.

٢-تطور نظام الرق إلى نظام للإسترقاق . وهو ما يعرف بنظام التبعية وجعل الناس بدلاً من الإلتحاق بأسيادهم يلتحقون بالأرض .

٣- إكتشاف البارود وما أدى إليه من إنهاء لعهد الإقطاع .

(ح)***المرحلة الثامنة :-*** وتبدأ من عهد إختراع الطباعة سنة ١٤٥٥ على يدى جوتنبرج إلى عهد ديكارت خلال النصف الأول من القرن السابع عشر وتتميز هذه المرحلة بأربعة أمور هى :

١- الثورات المحلية ضد نفوذ الكنيسة ولتناقض مبادئها مع تعاليم الإنجيل .

٢- إختراع الطباعة وتيسيرها لنشر المؤلفات العلمية .

٣- حركة الإصلاح الدينى بمعرفة بعض رجال الدين أنفسهم .

٤- الحرية الفكرية ودعوتها لتحرير الناس من سلطة الكنيسة .

(ط)***المرحلة التاسعة :-*** من عهد ديكارت إلى عصر الثورة الفرنسية . ويدخل فيها القرن الثامن عشر . حيث أخذت حقوق الانسان وضعها

الطبيعى وإنتصر العقل الإيمان . والفلسفة فى سائر فروعها على الدين . وبذلك أصبح الانسان فى الوضع اللائق به .

(ي) *المرحلة العاشرة :-* وهى مرحلة التنبؤ بالمستقبل . وقد حصر كوندرسية أسباب تقدم الانسانية فى ثلاثة أمور هى :-

١- قيام المساواة بين الأمم .

٢- قيام المساواة فى داخل الأمة .

٣- إرتقاء الانسان فى ذاته . أى كجنس عام .

وتلك هى أهم عناصر فلسفة التاريخ عند كوندرسيه . ومن الواضح أنها تمتاز بالعمق والغزارة عن فلسفات سابقية التاريخية . ومن ثم كان لها أثرها الكبير فى التمهيد لمولد علم الاجتماع . وبالرغم من أن كوندرسية لم يستخدم المنهج العلمى الذى كان يعرفة حق المعرفة [1] .

---

(١) زيدان عبد الباقى . مرجع سابق . ص ص ١٨٦ - ١٩٣ .

٤- الفلسفة الاقتصادية وعلم الاجتماع :-

إزدهرت النظرية الاقتصادية فـى القرنـين ١٨ ، ١٩ تلـك التـى كـانت أساساً للفكـر الاقتصـادى الحديـث . ولـما كـانت الناحيـة الاقتصادية من أهم مظاهر النشاط الاجتماعى ، فقد قدم أصحـاب هـذه النظريات خدمات جليلـة لميـدان البحـث فـى علـم الاجتمـاع . ولعـل مدرسة الفزيوقراط هى أهم تلك المدراس لاسـيما أن اتباعهـا مـن أشـهر أصحاب النظريات الاقتصادية ، ومن أهمهم آدم سميـث ، مـالتوس ، ريكاردو فى فرنسا ، وإستيوارت مل فى إنجلترا .

وتعرف نظرية الفزيوقراط فى تاريخ المذاهب الاقتصادية بنظريـة الحرية الاقتصادية ، وكان على رأسها الاقتصادى الفرنسـى "كينـاى" Quesnay ومـن أهـم الدعـائم التـى إعتبرهـا الفزيوقراطيـون أساسـاً لفلسفتهم الاقتصادية .

١-النظام الاقتصادى جزء من النظام الطبيعى ، وما دام هو كذلك فهـو خاضع لقوانين ثابتة لا تقـل ثباتـاً عـن القوانـين التـى يخضـع لهـا النظام الطبيعى العام .

٢-النظام الطبيعى بصفة عامة هو أصلح النظم للإنسان وأكثرها تحقيقاً

لرغباته والعمل على إسعادة .

٣-من الميسور بالنسبة للإنسان العاقل أن يكتشف هذه النواميس الطبيعية فى نفسة . لأنها جزء من الطبيعة العاقلة التى أودعها الله فى النفس الإنسانية .

٤-ومادامت النظم الطبيعية . بصفة عامة . والإقتصادية بصفة خاصة . محققة لرغبات بنى الانسان .وهى من النعم التى أفاض الله بها على خلقه لتوفير أسباب السعادة للجنس البشرى . فإنه من الواجب على الأفراد . وكذلك على الحكومات ألا تتدخل فى شئونها وأن تتركها حرة من كل قيد .

٥-يترتب على الحقيقة السابقة ترك الحرية للأفراد ليصرفوا فى المسائل الاقتصادية طبقاً لما يحقق مصلحتهم . لاسيما وأن مصلحة الفرد لاتقف على طرفى نقيض مع مصلحة المجموع . فأصحاب هذه النظرية يعتبرون الفرد أقدر على تدبير مصالحة . ومن ثم فإنه يستطيع أن يحدد الأولويات والمعايير التى تخدم صالحة الخاص بصورة ممتازة فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية على أن ثمرات هذا الجهد الفردى تنعكس من جهة أخرى على صالح

المجموع ومادامت الحكومة تخلى سبيله ولا تتدخل فى شئونه . ولا تقف حائلاً فيما يلجأ إليه من وسائل . ومن أجل ذلك وضع الفزيوقراطيون مبدأهم الشهير "دعه يعمل . دعة يمر " أى أترك الأفراد يستغلون قدراتهم وإستعداداتهم كيفما يرغبون حتى يستفيد المجموع من جهود الأفراد .

٦–تؤدى المنافسة الحرة إلى تحقيق الكثير من الأرباح وقوانين العرض والطلب . وتعمل عملها فى إرتفاع أو إنخفاض أسعار مختلف السلع وفق هذه النظرية من تلقاء نفسها لصالح الأفراد . كما تحدد المجال الذى يسلكه كل من العمل ورأس المال . ومن ثم يجب عدم التدخل فى أثمان السلع المختلفة على إعتبار أن القوانين السالفة الذكر تعمل تلقائياً على حفظ التوازن الاقتصادى.

٧–مادامت الطبيعة هى منارة الفكر الاقتصادى فى النظرية الفزيوقراطية فإن الأرض بالتالى هى العامل الوحيد فى الإنتاج . وأن الزراعة هى العمل الوحيد المنتج . بمعنى أن الزراعة دون غيرها من وسائل الإنتاج . تنتج من الثروات أكثر مما تستهلك . فقد كان رأيهم أن الصناعة والتجارة من وسائل الإنتاج العقيمة . على حين أن الزراعة هى التى تخلف وراءها ناتجاً صافياً . وإنتبهوا إلى تقسيم المجتمع

إلى طبقتين اجتماعيين :-

أ - طبقة منتجة ، وهى طبقة الفلاحين وأصحاب الأطيان .

ب-طبقة غير منتجة ، وهى طبقة التجار والصناع وأصحاب الحرف والخدم وقد ساهمت النظرية الفزيوقراطية فى التمهيد لمولد علم الاجتماع من ناحيتين هما :

١-دراسة الظواهر الاقتصادية بوصفها خاضعة لقوانين . وما دامت الظواهر الاقتصادية على هذه الصورة ، لاسيما وأنها ليست إلا مظهراً من مظاهر الحياة الاجتماعية ، فإنه من الضرورى أن تكون مختلف الظواهر الاجتماعية خاضعة لفكرة القانون .

٢-دراسة الطبقات الاقتصادية فى المجتمع،وتتناول طائفة غير يسيرة من شئون الحياة الاجتماعية،بيد أنهم فى دراستهم إبتعدوا عن الواقع لا سيما عندما إعتبروا الصناعة و التجارة من الأنشطة الاقتصادية العقيمة،وهى وجهة نظر أثبتت الثورة الصناعية عدم صحتها غير أن "آدم سميث" قد تدارك الأمر فيما بعد وحاول تعديل الكثير من آراء مدرسة الفزيوقراط الفرنسية حيث إعتبر العلم فى ذاته هو العنصر الرئيسى بين عناصر الإنتاج،ومن ثم لا يختلف الأمر

سواء كان العمل فى الزراعة أو فى الصناعة أو فى التجارة. لأن هـذا الإختلاف لا يقلل من شأنه كـأداة إنتـاج. وبالنسـبة لموضـوع تفضيـل طبقـة الـزراع وأصحـاب الأطيـان علـى طبقـة التجـار والصنـاع. فـإن "سميث" إعتبرها طبقتان منتجتان تقـوم علـى أسـاس تقسـيم العمـل الاجتماعى . وتخصيص كل فئة ناحية من نواحى الإنتاج [1] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ١٩٤ - ١٩٨ .

ثانياً الاتجاهات الحديثة فى علم الاجتماع :-

١- الاتجاه النفسى : Psychological Approach

يقصد بالإتجاه النفسى فى علم الاجتماع . ذلك الخط الفكرى الذى يحاول أن يبحث الأسس النفسية للحياة الاجتماعية . أى أنه إتجاه يحاول تفسير الظواهر الاجتماعية ومواجهة مشكلاتها فى ضوء التحليل النفسى . وقوانين السيكولوجيا . ومن هنا فإن هذا الاتجاه يهتم بالعلاقات الإنسانية ومواقف الأفراد واتجاهاتهم وديناميـة الجماعات. وخصائص الوجدان الجماعى أو ما يعرف بالعقل الجمعى. أو الروح الكلية . وغير ذلك من المصطلحات المقتبسة من الميدان النفسى. ويضم هذا الاتجاه إلى جانب ذلك دراسة نفسية الجماهير . والشعوب وخصائصها النفسية .

وهذا الاتجاه له جذور قديمة عند كل من أرسطو فى محاولته تفسير التفاوت بين الأجناس على أساس التكوين الفطرى وانتقال الصفات الوراثية . وابن خلون فى إشارته إلى أهمية الإقتداء الذى عرف عند أنصار هذه المدرسة بالمحاكاة أو التقليد وفى هذا الإطار يشير ابن خلدون إلى محاولة المغلوب الإقتداء بالغالب . لما يعتقده فيه من سمات الكمال . واتباعه عادات . ومذاهب جعلته غالبا .

ولكن ممثل هذا الاتجاه من الفرنسيين هو "جابرييل تارد" وهو يشير إلى أن هناك عمليتين أساسيتين فى الحياة الاجتماعية العملية الأولى هى المحاكاة والتقليد والعملية الثانية هى الإختراع والتجديد . والمحاكاة عند تارد عملية اجتماعية من حيث الوظيفة ولكنها نفسية فى طبيعتها وجوهرها . وتؤدى هذه العملية إلى إعادة تكرار الظواهر الاجتماعية وانتشارها وبالإنتقال من شخص لآخر.ومن جماعة لأخرى. وهي لذلك يمكن أن تعتبر مفتاح الحياة الاجتماعية لما تنطوى عليه من عمليات معقدة،تنتج عن تفاعل الناس.والتغير الاجتماعى عند تارد يعبر عن تشابه فى الفكر والعمل بين الكائنات الحية.وهذا التشابه ناتج فى الأساس عن المحاكاة كما أن الرغبات Desires والعقائد Beliefes تعتبر قوة محركة للحياة الاجتماعية عن طريق نقلها بالمحاكاة من فرد لآخر ومن جماعة لأخرى .

وإلى جانب المحاكاة التى هى العملية الأكثر أهمية فى توحد الأفراد والجماعات توجد عمليات فرعية يعزى إليها ما قد يوجد بين الأفراد . والجماعات من تفاوت وتباين ومن أهمها :

١-عملية المعارضة . Oppesition

٢-عملية التقليد المضاد Counterimitation

٣-عملية التجديد أو الإختراع Invention

فكثيراً ما توجد فى المجتمع معارضة لبعض الميول والاتجاهات وهذه عملية ابتدائية تؤثر فى شكل المجتمع . وكلما كانت المعارضة ذات فعالية . كان أثرها واضحا فى تحقيق التوازن الاجتماعى .

أما التقليد المضاد فهو عملية تشير إلى اتجاه الدوافع الإنسانية إلى محاكاة أو مسايرة نموذج يخالف النموذج المقبول اجتماعياً . وأيضاً تشير إلى الأخذ بأسلوب يختلف مع الأسلوب المحتذى به إذا اتضح أن موقف الناس ينطوى على السخرية والكراهية لهذا الأسلوب القديم. وتتضح أهمية هذه العملية فى إمكان إحداث تغييرات معينة فى الأساليب أو ضروب السلوك التى تستهدفها الجماعة .

وقد أضفى جابرييل تارد على عملية الإختراع أو التجديد مضموناً إجتماعياً . فهو يشير بهذه العملية إلى جمع مواد اجتماعية قديمة . ووضعها فى شكل جديد . ويصبح هذا الشكل الجديد نمطاً أو نموذجاً يحتذى به . كذلك يشير بهذه العملية إلى التحوير والتبديل الذى يطرأ على نمط معين حين ينتقل بالمحاكاة من جيل لآخر . أو من شخص لآخر . ورغم الاتجاه الاجتماعى الواضح هنا.

إلا أن تارد لا يقلل من أهمية الدور الذى تلعبه شخصية المخترع أو العبقرى . فهناك نوع من الإختراعات الفردية يمتاز عن الإختراعات الجماعية لأن الإختراعات الجماعية عادة ما تكون بطيئة . وتحدث على شكل دورات تمثل تكيف المجتمع بمراحل تطوره . والحياة الاجتماعية تقوم على أساس دورة مستمرة أو حركة دائمة تتذبذب بين الإختراع . والتقليد . والمقاومة التى تؤدى إلى موجة من الإختراعات الجديدة . وهذه الحركة تمثل التفاضل النفسى المتبادل بين الأفراد الذين تجمعهم علاقات اجتماعية متبادلة وتمثل هذه العمليات إطاراً مرجعياً نفسياً .

وحيث يوجد التفاعل النفسى المتبادل بين الأفراد يوجد المجتمع . لأن المجتمع عبارة عن مجموعة من الأفراد يرتبطون بعلاقات يكون سياجها الوعى المشترك دون أن يجمعهم مكان واحد. وهنا تلعب الطباعة. والصحافة . والنشر أدواراً بارزة فى نقل الأفكار التى تلقى قبولاً مشتركاً . وتثير تفاعلاً مشتركاً .

بالترديد والتكرار يمكن أن تترسب الأنماط الجديدة فى الحياة الاجتماعية . وتصبح جزءاً من التراث . ومن هذا الطريق يستطيع فهم وتفسير انتشار العادات والتقاليد والمنتجات الفنية والجمالية

والقواعد الأخلاقية . والدينية والسياسية . وغير ذلك مما ينتقل من بؤرة داخلية ضيقة إلى محيط خارجى واسع وقد اهتم تارد إلى حد كبير بفكرة العلية أو السببية حيث يرى أن العلية تتمثل فيما يبدو فى محيط المجتمعات الإنسانية . حيث يخترع أحد الأفراد ، ويقلده الآخرون . فالتقليد ليس عملية آلية ولكنه نشاط له طبيعة خاصة . ينتقل من ذهن لآخر أو هو نوع من العدوى السيكولوجية تنتشر فى إتجاه محدد . وهو عملية ذهاب وعودة بين الضمائر تهدف إلى وضعها جميعاً فى مستوى واحد ما لم تحدث اختراعات جديدة تفوق بين هذه المستويات مرة أخرى.

وقد أدى هذا الاتجاه إلى دعوة تارد لقيام علم للمجتمع يستند على دراسة النفس الإنسانية . وهذا العلم ذو طابع سيكولوجى يجمع بين دراسة الانسان الفرد . وبين دراسة الانسان الاجتماعى . فالمجتمع عبارة عن مجموعة من الأفراد تربطهم عوامل التشابه والمحاكاة . ويقلدون بعضهم البعض سواء فى حاضرهم أو ماضيهم . فكلما ظهر فرد أو مجموعة افراد بإبتكار جديد نقله بقية أفراد المجتمع عنهم وقلدوهم فيه ومن المبتكرين تتكون طبقة السيادة . ويتركز فيهم النشاط الاجتماعى . أما بقية الجماهير فهى تستسلم

وتنساق لكل هذه المبتكرات. والتقليد عن الماضى يشبه النهر فى انسيابه فهى تأتى للخلف فى صورة عادات وقواعد وسنن ونماذج فكرية عن طريق السلف.

وقد كان تشبيه تارد لحياة الأفراد فى المجتمع على هذا النحو الإستسلامى أو الإنسياقى مثار نقد عنيف . فى أن الشخص المجدد يدرك دائماً حاجات الأفراد وتطلعاتهم . وهم لا يأخذون بابتكاره إلا حينما يدركون ما ينطوى عليه من مميزات تتفق مع من يرغبون فيه أو إنه يترجم احساستهم وآمالهم . أو يتفق ومصالحهم. هذا فضلاً عن أن المبتكر حينما يبتكر إنما يعبر عن المرحلة التى وصل إليها المجتمع فى تطوره . ومن ثم فهو مدين للمجتمع فيما ابتكر أو أدخل من عناصر جديدة ونفس هذا الإعتراض ينطبق على تقليد الأفكار الماضية . أو الأخذ بالسنن والقواعد القديمة والموروثة .

وفضلاً عن جبراييل تارد فإن جوستاف ليبون يعتبر من كبار مؤيدى هذا الاتجاه فقد أكد أيضاً سيطرة العنصر النفسى على علاقات الأفراد وسلوك الجماهير .

ويتحدث عما يسميه بالروح الجمعية وهى تلك التى تسيطر على أعمال الناس وشعورهم عندما يتجمعون فى صورة حشد بغض

النظر عن اختلافهم فى الجنس أو المهنة أو المركز الاجتماعى . وهذه الحالة النفسية الجديدة تختلف عن نفسية الأفراد الذين تتكون منهم الجماهير، وفيها ينحسر الوعى الفردى ويتحول إلى لاوعى . أو لا شعور من جانب الفرد .

فالفرد فى الحشد لا يشعر بمسئولية خلقية فى تصرفاته أو سلوكه أو علاقاته . بل يترك العنان لنفسه تعبيراً عن الرغبات المكبوته لديه . ويستتر فى ذلك وراء المظهر الجماعى الذى يشجعه، ويدفعه على العمل، وفق ميوله وغرائزة فى عاطفة منطلقة ومبالغة واضحة . وبالرغم من الآلية التى تسيطر على الحشد فإنه يبدو فى تماسكه ووحدته كالجسم الواحد أو الكائن المستقل . ولكن من الواضح أنه يسلب الفرد وعيه فى هذه العملية . ويصوره متأثراً بعملية الإستمرار التى تحدث عن طريق العدوى الفكرية . والتى تسرى بطريقة آلية . وكذلك يتأثر الفرد فى نظره بالإيحاء الذى يساعد على انتقال الفكر والعمل من أعلى إلى أسفل . فالأفكار تنتقل من الزعماء والمبتكرين إلى العامة أو الدهماء بطريق الإيحاء . وفى كل ذلك يبالغ " ليبون " فى تصوره لسلبية الارادة الإنسانية الفردية داخل الحشد وهو أمر غير مقبول على علاته . فإذا صدقت آراء

ليبون على التجمعات الثورية غير المستقرة أو الحماسية المتعصبة . إلا أن القاعدة فى العلاقات . والنظم الاجتماعية أنها أرسخ من ذلك وتنزع إلى الإستقرار والثبات . وهناك من يذهب فى تأييد هذا الاتجاه إلى الإعتماد فى التفسير على الظواهر المرضية . فالحشد تعبير عن كل ما هو مكبوت فى اللاشعور الإنسانى ويرى أن نفسية الحشد تؤدى إلى تلاشى الفروق الفردية وتحقق نوعاً من التجانس الجماعى بين الأفراد المكونين للحشد. ومن هؤلاء المفكر « دين مارتن» .

والواقع أن العالم النمساوى فرويد هو مؤسس هذا الاتجاه . والداعى إليه انطلاقاً من فكرته عن أن العلاقات الاجتماعية تمثل الصراع الدائم بين الميول الشهوانية التى تدفع للحب والعودة والألفة والوفاق . وبين الميول العدوانية الدافعة إلى البغض . والكراهية والفرقة والإنعزال . وقد عدل فرويد بعض آرائه فى مؤلفاته الأخيرة . فقال بأن الحياة الاجتماعية تقوم فى أساسها على محاولة ضبط الميول العدوانية بين الأفراد والجماعات . وذلك عن طريق « حب الإنسانية» الذى يشمل الجانب الروحى والغريزى الشهوانى معاً . ويتصارع فى الانسان حب الجانب الشهوانى الغريزى مع حب

الجانب الإنسانى الروحى وينتهى الصراع دائماً بغلبة الدوافع الغيرية الإنسانية . والحد من فاعلية الميول العدوانية الغريزية . ومن هنا تنشأ النظم المقيدة للدوافع الإنسانية فى المجتمع . والعلاقات الاجتماعية هى تلك القيود والضوابط الاجتماعية الناتجة عن تنظيم أو كبت الدوافع العدوانية وفقاً لمثل معينة تعكس ما يسمى بالوجدان الذى هو أساس الضمير الخلقى .

فالتعامل الاجتماعى يقوم على مبدأ خلقى يرتكز على تسامى الغرائز والدوافع الفردية . وتحويلها إلى قوى محايدة أو اختزانها فى اللاشعور . ومن هنا يتوافق الفرد اجتماعياً مع نظام مجتمعه . ويخضع لمظاهر السلطة فيه ويقبول لما يفرضه أصحاب السلطان عليه.

وقد أيد هذا الاتجاه كثير من العلماء منهم « ماكس فيبر » وسترمارك . ومن علماء المدرسة الأمريكية « جيدنجر » . تشارلز كولى. ومول . وماكدوجال .... وغير هؤلاء ولكننا نختار من بينهم تشارلز كولى . لأهمية معالجته للعلاقات الاجتماعية .

فيقسم كولى هذه العلاقات إلى نوعين : العلاقات الأولية المباشرة Primary والعلاقات الثانوية أو غير المباشرة Non-Primary - Secondary والنوع الأول هو الذى يتحقق فى الأسرة .

ومجتمع الجيرة، وجماعات الأصدقاء ، والزملاء ، والقرناء وهذا النوع من العلاقات يعتبر بؤرة العلاقات الاجتماعية ، ونتيجة لهذه العلاقات المباشرة يحدث اندماج كلى بين الأعضاء ، واتحاد بين مشاعر الأفراد بحيث يدرك الفرد أنه جزء من المجموع ، وأدق كلمة تعبر عن هذه الجماعات هى كلمة «نحن» لأنها تتضمن التعاون والتجاذب ، والترابط والتعارف المتبادل ، وبموجبها يعيش الفرد شعور الآخرين ، أو فى الوجدان الجماعى بعد أن تتحقق ذاتيته من خلال نظام القيم والمعايير الجمعية المشتركة .

أما النوع الثانى من العلاقات ، فهو ذلك الذى يسود بين الأفراد الذين تنتظمهم مؤسسة أو هيئة أو طبقة ، أو مجتمع ، ويكون التأثير بين أفراد هذه التجمعات غير تلقائى وغير مباشر ، بل ان التأثير فيها يتم انتشاؤه أو تكوينه بحكم القواعد الموضوعية ، والنظم القائمة فى الجماعات التى يلتحق بها الأفراد ، وبحكم العمل على تنظيم علاقات هؤلاء الأعضاء وفق النظم المحددة لحقوقهم وواجباتهم، وليست تسمية هذه العلاقات بالثانوية علامة على التقليل من شأنها ، ولكنها على العكس من ذلك أكثر خطراً وأعظم شأناً فى المجتمعات المعاصرة من العلاقات الأولية .

ويعتبر تقسيم كولى للعلاقات الاجتماعية مقبولاً إلى حد كبير بل أخذت به كثير من الدراسات التى تقوم على مداخل متشابهة للمدخل النفسى ، أو على مداخل مغايرة له . ولكن من أهم ما يؤخذ على الاتجاه النفسى مغالاته فى تأكيد دور اللاشعور وإعطائه أثرً إيجابياً قيادياً فى تكييف العلاقات الاجتماعية .

٢- الاتجاه الشكلى التحليلى : Formal Approach

إن جل اهتمام أنصار الاتجاه الشكلى فى علم الاجتماع يتركز فى دراسة العلاقات الاجتماعية . فهذا العلم فى نظرهم هو علم العلاقات الاجتماعية ، وقد نشأ هذا الاتجاه أول ما نشأ على يد علماء المدرسة الألمانية . لذلك يدعى هؤلاء العلماء للعلاقات الاجتماعية ، لا يدرسونها على أنها مستمدة من طبيعة الحقائق الاجتماعية . ومادة العلاقات فى المجتمع ، ولكنهم بتأثير من نزعتهم الفلسفية المجردة يدرسون هذه العلاقات من الناحية الصورية أى يهتمون بطبيعة العلاقات فى ذاتها . بصرف النظر عن مادتها ، وظواهرها المختلفة . والقوالب التى يمكن أن تتشكل فيها . هذا هو الإطار العام للمدرسة الشكلية . ولكن فى حدود هذه الإطار توجد اتجاهات فرعية خاصة لأنصار هذه المدرسة .

ومن أبرز أقطاب هذا الاتجاه فى ألمانيا « فردیناند تونیز ، وجورج زيمل » ، و « فيركاندت » و « فون فيز » .

ويقسم تونيز التجمعات البشرية إلى قسمين : الأول : الجماعة Geminschaft ، والتجمع Geseilschaft فالجماعة تقوم على الإرادة العميقة الملاحقة للكائن ، وتنتمى إليها الجماعة الطبيعية القائمة على التعاطف والقرابة ، أو على الشعور التلقائى للأفراد ، ويسيطر عليها العرف.

أما المجتمع فإنه ينمو تدريجياً بفضل الإرادة الحرة ، أى الإرادة القائمة على الإختيار ، وفيه تظهر جماعات تمهد للإرادة الفردية الحرة ، وتتخذ لها غايات خارجة عنها ، ويتحول العرف فى هذا المجتمع إلى أسلوب للحياة ، وعلى ذلك فإن المدرسة الشكلية تركز على الجانب الصورى التجريدى من العلاقات الاجتماعية ، فاذا كانت العلاقات الاجتماعية تتجسد فى صورتها الملموسة على شكل منافسة أو تعاون فى المجال الاقتصادى فإنها مع ذلك لاتختلف فى طبيعتها حينما تبرز فى صورة تفكك أو ترابط أو تضامن فى البناء الاجتماعى ، ويرى أنصار هذا الاتجاه أن مهمة النظرية الاجتماعية أو علم الاجتماع أن يعزل ، ويجرد العلاقات من تجسداتها المادية الظاهرة .

والاتجاه التحليلى ينبثق من النظرة التعميمية ثم التحليلية للموضوعات الاجتماعية على نحو ما تفعل المدرسة الصورية الشكلية.

وفى نطاق هذا الاتجاه لا يوافق العالم الألمانى «فيركاندت» على إستخدام المنهج التاريخى حتى بالنسبة للتراث الثقافى فلا يجوز أن يبحث عالم الاجتماعى فى تاريخ الثقافة وتطورها ولكن عليه أن يعتمد على المنهج التحليلى للوقوف على المقومات الحضارية، والعناصر الثقافية التى لها فاعلية من شأنها أن تؤثر فى ثبات واستقرار المفاهيم، أو تعمل على تطويرها وتغييرها. كذلك كان العالم الألمانى « ماكس فيبر » من أبرز أنصار هذا الاتجاه، فقد كان من أوائل الداعين إلى ضرورة بحث التأثيرات المتبادلة بين النظم الاجتماعية، الدينية والإقتصادية والسياسية بوجة خاص. كما كان يعتقد بأن موضوع علم الاجتماع يجب أن يقتصر على دراسة العلاقات فى صورتها المجردة، ووسيلة ذلك هى دراسة وفهم وتفسير السلوك الإنسانى، فالعلاقات هى نتاج تصرف الأفراد بعضهم حيال البعض الاخر، وكل تصرف أو سلوك يقوم به الفرد عن عمد ووعى، وتعقل لرد الفعل المتوقع ممن يستجيبون له. إنما تعتبر سلوكاً أو تصرفاً اجتماعياً.

فالعلاقات التى تنشأ استجابة لنشاط أو سلوك أو رد فعل

اجتماعى . هى الدعامة الأساسية للدراسات الاجتماعية والباحث الاجتماعى فى نظر ماكس فيبر يجب أن يدرس العلوم الاجتماعية الجزئية أو الفرعية التى تشكل إطاراً لنوع العلاقات الذى يدرسه . فكل نوع من العلاقات يتشكل فى مظاهر عدة ويتطلب فهمها تجريدها عن صورها المجسدة فى الواقع .

ويذهب ماكس فيبر إلى أن علم الاجتماع لا يتوقف عند دراسة الأنماط والصور فقط ولكنه يتجاوز ذلك إلى دراسة الفعل الاجتماعى ذاته . وفى محاولة لفهم هذا الفعل . ولا يهتم الباحث بالفعل فى حد ذاته . ولكن يهتم بالمعانى والأفكار المرتبطة به . والمعنى يمكن أن يظهر فى صورتين : المعنى القائم بالفعل . والذى يكون متضمناً فى الحالة موضع الدراسة . والصورة الأخرى تتمثل فى المعنى المدراك من الناحية النظرية والذى يمكن عزوه إلى فاعل فرضى . وعلى هذا فإن ماكس فيبر يصور المجتمع على أنه مركب من العلاقات الانسانية المتبادلة . ويتميز بوجود سلوك ذى معنى للأفراد الذين يقومون بأدوار فى المجتمع . والفعل الاجتماعى النموذجى هو أحد العناصر التى تبحث عنها فى علم الاجتماع للوقوف على روح الجماعة وكذلك حدد فيبر أسلوب فهم الظواهر الاجتماعية . وهذا الفهم يقوم عنده على مستويين :

الأول : فهمها على أساس التعرف على أسبابها وهذا هو

الفهم السببي Causal Understanding

فالحوادث ترتبط ارتباطاً سببياً مناسباً . وهذا التتابع السببى يحدث بطريقة منتظمة يمكن الكشف عنها بالطريقة الإحصائية العلمية والإنطلاق من ذلك إلى التعميم . ومالم تتمكن من استخدام الطريقة الإحصائية يمكن الإلتجاء إلى طريقة الموازنة . والمقارنة بين العوامل والظروف التاريخية أو المعاصرة المتشابهة .

والثاني هو الفهم على أساس المعاني والفعل الإنساني .

Meaning and Human action Understanding

فهناك ميزة تتفرد بها العلوم الاجتماعية عن العلوم الطبيعية من حيث أن فهمنا للظواهر الاجتماعية يقوم على أن البشر يتمكنون من التعرف المباشر على طبيعة وبناء الأفعال الإنسانية . فنحن فى دراسة الجماعات الإنسانية نتمكن من فهم أفعال وتصرفات الأفراد . وأبعد من ذلك نتمكن من فهم مقاصدهم . وأغراضهم ودوافعهم . بينما فى العلوم الطبيعية نتمكن من فهم المظاهر الخارجية فقط

للظواهر الطبيعية وتأكيده هنا على المعانى يتم بوضوح على تأكيده على النواحى الشخصية (الغير موضوعية) Subjective للفعل الإنسانى .

فالفعل هو ذلك السلوك الإنسانى ، ظاهراً كان أم مستتراً وعلم الاجتماع هو ذلك العلم الذى يدرس الفعل الذى يتكيف بسلوك الآخرين . ومن هذه الناحية يمكن القول بأن ماكس فيبر قد أسهم إسهاماً كبيراً فى تطوير النظرية الاجتماعية من خلال اهتمامه بتحليل العقل والسلوك الإنسانى . وابراز دور القيم فى الحياة الاجتماعية . فضلاً عن توسيع مفهوم العملية ومعالجته لكثير من القضايا المحورية فى السلطة ، والسيطرة والبيروقراطية .

٣- الاتجاه البنائى الوظيفى :

يشير أنصار هذا الاتجاه إلى العلاقة بين مفهومى البناء والوظيفة. فالبناء هو العلاقات النمطية الثابتة نسبياً للوحدات الاجتماعية . بينما الوظيفة هى أى نشاط اجتماعى يقدم للبناء الاجتماعى وأجزائه الثابتة . أى أن البناء نسق من الأنماط المستمرة نسبياً . والوظيفة هى العملية الدينامية فى ذلك البناء .

وقد ظهر هذا الاتجاه فى الفكر الاجتماعى بعد استعارة بعض المفهومات البيولوجية . فعلم الاجتماع يعالج البناء فى ضوء المذهب العضوى . ويهتم بالعلاقات المتسلسلة والثابتة نسبياً بين الخلايا المختلفة للجسم . وكذلك يفسر علماء البيولوجيا نشاط أعضاء الجسم فى عملية الحياة فى ضوء ما يسمى بالوظيفة .

ومن هنا فإن العالم البريطانى هربرت سبنسر من أوائل الذين وضعوا نظرية البناء الاجتماعى فى علم الاجتماع وأحصى أوجه الشبه بين الكائن الاجتماعى . والكائن البيولوجى فحدود الحياة تنطبق على كل منهما . ومن هذه المقولات انطلق المذهب العضوى فى علم الاجتماع.

فاستخدام الاتجاهات البنائية يكون بهدف تفسير الدور والوظيفة الاجتماعية التى تقوم بها ظاهرة أو نظام معين فى البناء أو النسق الكلى . فكل نظام فى النسق الاجتماعى يرتبط مع بقية النظم الأخرى وقد أسهم إميل دوركيم فى تأسيس هذا الاتجاه . فمع أنه لم يتوسع كثيراً فى عقد مشابهات بين العمليات البيولوجية والعمليات الاجتماعية . إلا أنه حدد خواص معينة للوقائع الاجتماعية كالشعائر. والجريمة . والعقاب . واختلاف الدور ومن هذا التحديد توصل إلى بيان أسس تغير البناء الاجتماعى . ويذهب

دوركيم إلى الأخذ بالمفهوم الوظيفى حينما يقرر أن البحث عن سـبب الواقعة الاجتماعية يكمن فى الوقائع الاجتماعية الأخرى . تلك التى ترتبط بها إرتباطاً وظيفياً . فاللامعيارية أو الوهن أو التفسخ فى البناء الوظيفى . يؤدى إلى ارتفاع معدلات الانتحار . فالإنتحار كظـاهرة . وواقعـة اجتماعيـة يعتـبر فـى نظـره نتيجـه لازمـة لإنهيـار المعايــير الاجتماعية وهو ملازم لحالـة التميـع التـى تصيـب القيـم الأخلاقيـة نتيجة للأزمات التى تحدث هزات عنيفة فى البناء الاجتماعى .

والتحليل الوظيفى يعتبر نتيجة مباشرة لأعمال الأنثروبولوجيين البريطـانيين خاصـة راد كليـف بـروان . ومالينوفسـكى . ولكـن الدراسات فى هذا الاتجاه قد تطورت على يد « فلفريدوباريتو » عالم الاجتماع الإيطـالى فقـد درس الاقتصاديـات الرياضيـة قبـل أن يهتـم بالدراسة فى علـم الاجتمـاع . ومـن هنـا فقـد حـاول أن يتوصـل إلى نظرية عامة فى الأنساق الاجتماعية على أساس نمـوذج إلى . فـيرى أن المجتمـع نسـق متـوازن ويتكـون مـن أجـزاء يقـوم بينهـا اعتمـاد متبادل. بحيث أن أى تغير فى جزء من هذه الأجزاء لابـد أن يؤثـر على الأجزاء الأخرى . هذا فضلاً عن تغير النسق الكلى . ولهذا فقد أوضح حدود الإعتبـارات النسـبية العامـة . والعنـاصر المكونـة لهـذه

الإعتبارات . مثل تصنيف الأفعال المنطقية وغير المنطقية . والتمييز بين الهدف الشخصى . والهدف الموضوعى فى إطار التحليل الوظيفى .

ومن بين أنصار هذا الاتجاه أيضاً روبرت ميرتون الذى ميز بين الوظيفة الظاهرة والوظيفة الكامنة . وكذلك كنجزلى دافيز . وتالكوت بارسونز . ويرى رواد هذا الاتجاه أنه يستمد دعائمه من مجموعتين من الأسس : الأولى مجموعة الإحتياجات البيولوجية . والثانية : مجموعة الضرورات الاجتماعية متضمنة الأنساق الاقتصادية والقانونية . والسياسية والتربوية .

وهذا ويجدر بنا أن نركز على إسهامات تالكوت بارسونز بإعتباره من أبرز علماء هذا الاتجاه ، **فقد حدد السمات الرئيسية للنزعة الوظيفية البنائية على النحو التالى :**

١-أنها تؤكد على العلاقات الطبيعية بين الإنساق الاجتماعية وغيرها من الأنساق . خاصة البيولوجية والحضارية . والتى تشكل أنساق الوحدات البنائية الموفولوجية .

٢-تحدد المراحل الإنتقالية التاريخية للوحدات الرئيسية للأنساق الاجتماعية.

٣-تحاول دراسة الحد الأعلى لفاعلية النسق بمعناه التجريدى عن طريق ثبات واستمرار النواحى التأثيرية للأنساق الاجتماعية .

٤-تحاول التعرف على الضرورات الوظيفية للأنساق الاجتماعية .

هذا فضلاً عن أنها - كما سبق أن أشرنا - تتجه إلى اعتبار أى نسق اجتماعى كلا وظيفياً متكاملاً . فالنسق أشبة ما يكون بالكائن العضوى . ولا يمكن فهم أى من عناصره إلا فى ضوء صلاته وارتباطه. وعلاقاته بالعناصر الأخرى من ناحية . وبالكل نفسه من ناحية أخرى. ويرتبط بمعالجة الاتجاه البنائى الوظيفى نظرية بارسونز عن الفعل الاجتماعى . وعلاقاته بالتفاعل مع البيئة والأنساق . **فيتضمن الفعل الاجتماعى عنده مايلى :**

(أ) يتضمن الفعل الاجتماعى فاعلين أو أكثر . يضعهم الفاعل فى اعتباره عندما يقوم بفعله .

(ب)كل طرف من أطراف الفعل له قوة تاثيرية على سلوك الفاعل بطريقة أو أخرى .

(ج)الأطراف التى تسهم فى الفعل الاجتماعى تشترك فى أنساق معينة. وهذا الإشتراك يساعدها على التوقع وفقاً لما زودت به من قيم ومعتقدات ومعايير ورموز .

(د) بفضل المشاركة ، والتوقعات ، والتأثيرات المتبادلة ، تصبح تلك المواقف الاجتماعية متماثلة ، ومتشابهة ، تسير أفعال الفاعلين وفق نسق المواقف، وتكون على نفس النحو فى مناسبات متفرقة ، وينشأ البناء الاجتماعى عن طريق التوحيد المعيارى Standerdisation وبفضل التواتر Ricur-pence ومن هنا فإن مقولة أن العقل الاجتماعى له بناء معين تعنى أن هناك تفاعلاً منظماً يتجه لتحقيق أهداف معينة فى إطار نسق معين .

ومعنى ذلك أنه لاينبغى ، كما لا يمكن الفصل بين البناء الاجتماعى ، والنسق أو النظام الاجتماعى ، وقد انطلق بارسونز فى معالجته لهذه النظرية من تحليل طبيعة الفعل الاجتماعى نفسه ، فهذه الطبيعة إما أن تكون إدراكية ، أو أخلاقية ، أو تقييمية .

فالقائم بالفعل لابد بالضرورة أن له « هدفاً» يسعى لتحقيقه ، ويتحدد هذا الهدف فى ضوء بعض الأفكار والمعلومات ذات الصلة المباشرة ، أو غير المباشرة بهذا الهدف ، وهذا الموقف من شأنه أن يوجد بعض المشاعر التى لها صلة بإحتياجات القائم بالفعل . وأيضاً فإن القائم بالفعل يحدد هدفه فى إطار تقديرات ومعايير وبعض المحددات الإدراكية والأخلاقية ، والتقديرية ، وتصبح هذه المحددات دوافع للفعل ، وتأخذ طبيعتها الاجتماعية عن طريق عملية التفاعل .

أما التفاعل فيحدث عندما يرغب الفـاعل فـى أن يـأخذ فـى اعتباره سلوك الآخرين وحينئذ تحدث توقعـات متبادلـة . ويحـاول كل طرف التنبؤ بما سيفعله الطرف الآخر أو الغير . لدرجة أنـه قـد يعدل من سلوكه ليتوافق مع توقعات الآخرين والعكس . حيث يعدل الغير من سلوكه ليتوافق مع توقعات الفرد نفسه . ومـن هنـا يتحـدد دور كل فرد وفقاً للقواعـد . والمعايـير والإلتزامـات والواجبـات التـى ينطوى عليها الموقف .

وفى إعتقاد بارسونز أن عملية التفاعل بين القائم بالسـلوك . والأفـراد الآخريـن فـى جماعتـه . تعكـس صـورة مصغـرة للأنسـاق الاجتماعية . فالتفاعل يشتمل على كل العنـاصر الموجـودة بالأنسـاق والنظم الاجتماعية . وهى العناصر التـى تتمثـل فـى القيـم والمعايـير والمعتقدات الثقافية والأخلاقية وغيرها .

أما الرابطة التى يقيمها بارسونز بين طبيعة الفعل الاجتماعى. والنظام الاجتماعى فتتمثـل فـى المواقـف المعضلـة Dilemmas التـى تواجه الفرد عندما يسلك سلوكاً اجتماعياً . وهنـا يقـول أن الأنسـاق الاجتماعية هى التى تقدم متطلبات . ومحددات . ونوعية الفعل فى مثـل هـذه المواقـف المعضلـة أو الحرجـة . أمـا الحلـول والمحـددات

فيسميها بارسونز « المتغيرات النمطية » أو بدائل النمط ، وفي المواقف الحرجة يواجة الانسان الإختيار بين الإشباع العاطفي (السريع) أو الحياد العاطفي (ارجاء الإشباع السريع) ، أو بين الوجهة الجماعية ، أو مراعاة المصالح الخاصة والمصالح العامة .

أى أن المتغيرات أو البدائل تشير إلى الأشكال المختلفة التى يتخذها الفعل الاجتماعى الذى لابد أن يحدث بدوره فى إطار أنساق ومعايير . والأنساق الإجتماعية توزع على مستويات ثلاثة : مستوى الوظائف الإجتماعية المترابطة ترابطاً فعلياً ،ومستوى القيم والمعايير والمعتقدات المشتركة ، وأخيراً مستوى الدوافع والعواطف ، والأفكار التى تؤلف الشخصية الذاتية وهذه المستويات الثلاثة مترابطة ومتداخلة ، ومتفاعلة بل ومتكاملة ومصداقاً لذلك نجد بارسونز نظر إلى النسق باعتباره مجموعة من الوظائف فتؤلف النظم ، وليست كل الوظائف قابلة للتحول إلى نظم ، بل إن ذلك يعتمد على البعد الزمنى ، واستمرار الوظيفة وشيوعها وانتشارها ، وكذلك على طبيعة النشاط المتضمن للوظيفة .

ومن كل ما سبق يتضح تأكيد بارسونز على أن الفعل الاجتماعى ليس عشوائياً ، ولا تحكمه الصدفة ، أو الإنفعال ، بل

إنها على العكس من ذلك تسير وفق أنماط منظمـة ومقنعـة . بصـورة يمكن معها أن نتنبأ بمقتضياتها . وإذا كان الأفراد يشتركون فى قيم نهائيـة معينـة ،تحـدد أهدافهـم، كمـا تحـدد وسـائل تحقيـق هـذه الأهداف، ففى هذه الحالـة يصبـح سـلوك الأفـراد ذا معنـى . وهـذا المعنى بدوره يمنـح السـلوك مفهـوم النظـام الـذى يكفـل الإسـتمرار، والقضاء على الضعف والتفكك فى البناء الاجتماعى.

الفصل التاسع

العولمة

فكر اجتماعى قديم وصياغة حديثة



محتويات الفصل التاسع

تمهيد

أولا : تعريف العولمة

ثانيا : النموذج المعرفى العولمة

ثالثاً : النشأة التاريخية العولمة

رابعاً : القديم والجديد فى العولمة : حالة مصر

خامسا :العولمة والهوية .

سادساً : التعامل مع العولمة فى صورتها الحديثة.

خاتمـــــة

تمهيد :-

زادت وتيرة استخدام مصطلح " العولمة " فى السنوات القليلة الماضيـة، بحيث لا يخلو حديث لرئيس دولـة ، أو حكومـة ، أو رجـل أعمـال، أو فـى وسـائل الاعـلام المختلفة ، أو قاعـات المحـاضرات فـى كليـات العلـوم الاجتماعية من ذكرها ، وبيان محاسـنها وعيوبـها ، ومكاسـبها وخسـائرها ، وكيفية التعامل معها.

وتعد العولمة إحـدى نتـائج مواكبـة الفكـر الاجتمـاعى الحديـث لواقـع الحياة المتغيرة ، وتياراتها الفكرية المتعددة ، وقد شمل هذا التيار بلدان العـالم النامى والحديث على حد سواء .

كما تعد الأبعاد الاقتصادية للعولمة هى أبرز ملامحها ، ويبدو أن العـالم اليوم أصبح معولما اقتصاديا أكثر منه ثقافيا وسياسيا ، ومن ثـم هيمـن المفـهوم الاقتصادى للعولمة لدى الكثيرين ، أما الأبعـاد الثقافيـة والاجتماعيـة للعولـة فهى أقل وضوحاً ، أو أكثر غموضا من الأبعاد الاقتصادية .

وقـد كـان للعولـة تأثـيرات بالغـة الأثـر علـى كافـة جوانـب الحيـاة المجتمعية، الاقتصاديـة والسياسـية والثقافيـة والاجتماعيـة ، وانقسـمت الآراء حول هذه الآثار ، فمنها ما يـرى العولـة ذات الوجـه الانسـانى الـذى يؤتـى ثماره الحياة المجتمعة ويؤدى إلى التقدم الانسانى فى مختلف أرجاء المعمـور ، ومنها ما يرفض العولمة ويرى أنها قادت المجتمع المعـاصر إلى أزمـة وأدت إلى زيادة حدة التفاوت بين دول الشمال والجنوب ، وتعميـق الاغـتراب الثقـافى و ترسيخ التفاوتات الاجتماعية .

لكـن التعـامل مـع العولـة يقتضـى منـا أن لا نقبلـها كـل القبـول . أو نرفضها كل الرفض ، و إنما يقتضى ضرورة اتخـاذ إجـراءات و إسـتراتيجيات للتعامل معها . حتى يتم تعظيم الفوائد المحتملة من عملية العولـة . والتقليـل من سلبياتها ومخاطرها .

إن التقـدم الفكـرى والحضـارى عـبر مسـيرة التـاريخ أنتـج نظريـات ومذاهب، اتجـهت كلـها لواقـع الحيـاة الاجتماعيـة الشـاملة متضمنـة الأبعـاد الاقتصادية والثقافية والسياسية ولقد رأينا عدم إغفال هـذا التيـار الجـارف فـى رصدنا لمسيرة الفكر الاجتماعى ، وانعكاساته على واقـع الحيـاة الاجتماعيـة . وإذا كانت منتجات هذا الفكر الاجتماعى قد تجلت فـى المراحـل السـابقة مـن خلال بلورة أساليب للعمل والإنتاج والحكم والسياسة وغيرها ، فـان مـا أفـرزه الفكر الاجتماعى من تطورات فـى مجـال الاعـلام والاتصـال ، جعلـت ظـاهرة العولمة تبدو أمامنا كمذهب جديد ، وتيار جديد ، وفكر جديد لا يستطيع أحد أن يتجنبه.

ويتنـاول هـذا الفصـل ظـاهرة العولـة ، مـن حيـث التعريـف والبنـاء" المعرفى، والنشأة التاريخية ، فضـلا عـن تجلياتـها المختلفـة ، و آثارهـا علـى قضايا الهوية والخصوصية التاريخية والثقافية وغيرها .

أولاً :- تعريف العولمة :-

لا يمكن الوصول إلى تعريف واحد قاطع للعولمة ، شأن مختلف المفهومات فى العلوم الاجتماعية . فمن المتعذر حصر العولمة فى تعريف واحد مهما كان حظ هذا التعريف من الدقة والشمول ، حيث تشهد الساحة العديد والعديد من التعريفات للعولمة.

فتعريف العولمة هو أمر شائك . وتوجد صعوبات كبرى فى الاتفاق على مثل هذا التعريف أو القبول بتعريف واحد ومحدد لهذه الظاهرة التاريخية التى مازالت فى حالة سيولة ، كما أن كل المعطيات والتجليات الأولى تشير إلى أنه لا ينبغى الاعتقاد أو الاقتناع بتعريف واحد لظاهرة تاريخية جديدة وغير مستقرة وضخمة ومتعددة المسارات ومليئة بكل الاحتمالات كالعولمة . لذلك فمن الطبيعى أن يتفاوت فهم الأفراد للعولمة ومضامينها المختلفة . فالاقتصادى الذى يركز على المستجدات الاقتصادية العالمية وطبيعة المرحلة الراهنة من التراكم الرأسمالى على الصعيد العالمى ، يفهم العولمة بخلاف عالم السياسية الذى يبحث عن تأثير التطورات العلمية والتكنولوجية المعاصرة على الدولة ودورها فى عالم يزداد انكماشا يوماً بعد يوم ، كما أن عالم الاجتماع الذى يرصد بروز القضايا العالمية المعاصرة ، كقضايا الانفجار السكانى والبيئة والفقر ،المخدرات وازدحام المدن والإرهاب بالإضافة إلى بروز المجتمع المدنى على الصعيد العالمى بفهم العولمة بخلاف المهتم بالشأن الثقافى ، والذى يهمه ما يحدث من انفتاح للثقافات والحضارات وترابطها مع بعضها البعض.و احتمالات هيمنة الثقافة الاستهلاكية وتهديدها للقيم و القناعات المحلية ،

لذلك فلقد أصبح من الواضح أن العولمة تأخذ أكثر من شكل وتأتى فى أكثر من صيغة واحدة ، ومن ثم فمن الضرورى فهم الجوانب والمعانى المختلفة للعولمة[1].

يذهب " روزناو" إلى أنه يبدو مبكراً وضع تعريف كامل وجاهز يلاءم التنوع الضخم لهذه الظواهر المتعددة ، فعلى سبيل المثال ، يقيم مفهوم العولمة علاقة بين مستويات متعددة للتحليل هى الاقتصاد والسياسة والثقافة والأيديولوجيا ، وتشمل إعادة تنظيم الإنتاج وتداخل الصناعات عبر الحدود وانتشار أسواق التمويل ، وتماثل السلع المستهلكة لمختلف الدول، نتائج الصراع بين المجموعات المهاجرة والمجموعات المقيمة ، فمنهجه يتمثل فى ضرورة تحديد المشكلات المرتبطة بهذا المفهوم منذ البداية [2].

ولتعريف العولمة لابد أن نضع فى اعتبارنا ثلاثة عمليات تكشف عن جوهرها العملية الأولى تتعلق بانتشار المعلومات ، بحث تصبح مشاعة لدى جميع الناس ، والعملية الثانية تتعلق بتذويب الحدود بين الدول، والعملية الثالثة هى زيادة معدلات التشابه بين الجماعات والمجتمعات والمؤسسات، وكل هذه العلميات قد تؤدى إلى نتائج سلبية بالنسبة لبعض المجتمعات ، وإلى نتائج إيجابية بالنسبة لبعضها الآخر ، ويمكن القول بأن جوهر عملية العولمة يتمثل فى سهولة حركة الناس والمعلومات والسلع بين الدول على النطاق الكونى ، ويذهب "روزناو" إلى أن المواد والنشاطات التى تنتشر عبر الحدود يمكن تقسيمها إلى ست فئات هى البضائع والخدمات ، والأفراد ، والأفكار

(١) عبد الخالق عبد الله ، العولمة : جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها، عالم الفكر ، المجلد الثامن والعشرون ، العدد الثانى ، أكتوبر – ديسمبر ، ١٩٩٩، ص ٥٠.

(٢) السيد يسين ، فى مفهوم العولمة ، المستقبل العربى ، العدد ٢٨٨ ، فبراير ، ١٩٩٨ ، ص ٦.

والمعلومات ، النقود ، والمؤسسات وأشكال من السلوك والتطبيقات ، وتتم عملية الانتشار من خلال أربعة طرق متداخلة ومترابطة تتمثل في[1]:-

١- خلال التفاعل الحوارى الثنائى الاتجاه عن طريق تقنيات الاتصال .

٢- الاتصال المونولوجى أحادى الاتجاه من خلال الطبقة المتوسطة .

٣- من خلال المنافسة والمحاكاة .

٤- من خلال تماثل المؤسسات.

ويعرف "رونالد روبرتسون " العولمة بأنها اتجاه تاريخى نحو انكماش العالم وزيادة وعى الأفراد والمجتمعات بهذا الانكماش ويذهب إلى أن العولمة لا تعنى الانكماش الموضوعى للعالم ، وإنما الأهم من الانكماش الذى حدث على صعيدى الزمان والمكان هو وعى العالم لهذا الانكماش فوعى العالم بالانكماش هو بنفس أهمية الانكماش الفعلى للعالم، بل أن الوعى بالانكماش هو أهم سمة من السمات المميزة للعولمة خلال التسعينات ، فالعولمة بهذا المعنى تشير إلى وعى وإحساس الأفراد فى كل مكان بأن العالم ينكمش ويتقلص ويقترب من بعضه بعضا.وإدراك العالم لمثل هذه الحركة يعنى أن العولمة قد أصبحت حقيقة حياتية معاشه فى الواقع وفى الوعى ، فالذى لا شك فيه أن سكان العالم هم اليوم أكثر وعيا بعالميتهم ، وهم أكثر إدراكاً لإنسانيتهم من أى وقت آخر ، فالعولمة تتضمن تخيل أن البشرية قد أصبحت أكثر ترابطاً بفعل وسائل الاتصال المتقدمة ، وتتصرف وكأنها وحدة واحدة ، وتتأثر بمجموعة من المؤثرات والقضايا العالمية المشتركة ، وتتعامل عبر مؤسسات عالمية . وتحمل وعيا بالمصير والانتماء الإنسانى المشترك ، ولا شك أن مثل هذا الوعى يسمح

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧.

بإعادة تأسيس العالم على أسس جديدة تنطلق من المجال العالمى ، وليس من المجال المحلى وتستند إلى فكرة أن العالم هو وحدة تحليلية واحدة[1].

وحدد أحد الباحثين بعض الاعتبارات التى تفيد فى فهم الظاهرة وتحليلها من جوانبها المختلفة وتأثيراتها المتباينة تتمثل فيما يلى[2].

(١) السجال الذى يدور حول مفهوم العولمة ، وحول مختلف ممارساتها، وبرغم ذلك لم نصل بعد إلى فهم دقيق لما تعنيه كعلمية ثلاثية الأبعاد: اقتصادية وسياسية واجتماعية .

(٢) العولمة بالمفهوم المتداول الآن ، وبعد سقوط نظام القطبين ، واندثار العالم الثالث لم تعد منسوبة منذ عقدين تقريبا إلى كلمة globe أو كوكب الأرض ولكن تعرب بكلمة كوكبة Globalization ، وتصبح العولمة كعلمية هى ترجمة لكلمة Globality وهى العملية التى تملك آليات التطبيق ، أى تحويل العالم إلى شكل موحد يلغى الحدود بين الدول والأمم.

(٣) عولمة اليوم تتجاوز الحدود ، ولا تقر بالوطن باعتباره الفسحة الوحيدة المتاحة التى يستطيع فيها الناس ممارسة حقوقهم السياسية كاملة هنا ، أو منقوصة هناك .

(٤) تعنى العولمة فى حياة الشعوب الأكثر فقراً ، التعبير الصارخ عن الهوة السحيقة المتزايدة عمقاً والتى تفصل بين قدرات الشعوب على تحقيق

---

(١) عبد الخالق عبد الله ، مرجع سابق ، ص ص ٥٠-٥١.

(٢) أحمد محمد حجازى ، العولمة و تهميش الثقافة الوطنية : رؤية نقدية من العالم الثالث ، عالم الفكر ، مرجع سابق ، ص ١٢٨.

مطامحها ، و بين القرارات الكبرى التى تحدد مصيرها وتؤخذ دائما بمعزل عنها خارج الحدود.

(٥) العولمة الكوكبية هى نتاج متغيرات متلاحقة تكرست بانتهاء الحرب الباردة ، فهي تمثل مرحلة جديدة يسميها البعض مرحلة " ما بعد الإمبريالية" ويسميها البعض الآخر مرحلة " ما بعد التنمية " ويتفق الجميع تقريباً على كونها الوليد الشرعى للشركات متعددة الجنسية، تلك الشركات التى استطاعت السيطرة على معظم أجزاء الكوكب اقتصاديا واجتماعيا وسياسياً وثقافيا دون أن تنتمى إلى وطن محدد أو دولة معينة .

(٦) غياب الصفة الوطنية عن هذه الشركات لا يجعلها ملك البشرية جمعاء، فهى ملك الأغنياء فى دول الشمال تحديداً، حيث تغزو بنشاطاتها المتنوعة عشرات البلدان ، وتنتج فى عشرات البلدان الأخرى مصنعات وفق نظام الإنتاج عن بعد Tele Production .

(٧) فى ظل العولمة يختفى دور المصمم أو المبدع ليحل محله مروج السلعة وبائعها ، تلك السلع التى تنتجها الشركات متعددة القوميات وفق نظام الإنتاج عن بعد ، والتى تلعب فيها وسائل الاعلام الدور المحورى فى تشكيل طموحات المستهلكين للثقافة العولمة .

ويحدد المفكر السورى صادق العظم " العولمة بأنها " وصول نمط الإنتاج الرأسمالى عند منتصف القرن السابق تقريباً إلى نقطة الانتقال من عالمية دائرة التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والتداول إلى عالمية دائرة الإنتاج و إعادة

الإنتاج ذاتها ، أى أن ظاهرة العولمة التى نشهدها هى بداية عولمة الإنتاج.والرأسمال الإنتاجى ، وقوى الإنتاج الرأسمالية ، وبالتالى علاقات الإنتاج الرأسمالية أيضا ونشرها فى كل مكان مناسب وملائم خارج المركز الأصلى ودوله ، فالعولمة بهذا المعنى هى رسملة العالم على مستوى العمق ، بعد أن كانت رسملته على مستوى سطح النمط ومظاهرة ، وينتهى الباحث إلى صياغة تعريف عام للعولمة بكونها " حقبة التحول الرأسمالى العميق للإنسانية جمعاء فى ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها[1] وتحت سيطرتها . وفى ظل سيادة نظام عالمى للتبادل غير المتكافئ.

و للعولمة عدة أبعاد تتمثل فيما يلى[2].

١- العولمة الاقتصادية :-

العولمة هى أساساً مفهوم اقتصادى قبل أن تكون مفهوماً علميا أو سياسياً أو ثقافياً أو اجتماعياً ، كما أن أكثر ما يتبادر إلى الذهن عند الحديث عن العولمة هو العولمة الاقتصادية.

ويعود هذا الارتباط العميق والعضوى بين العولمة من ناحية . والعولمة الاقتصادية من ناحية أخرى إلى أن المظاهر و التجليات الاقتصادية للعولمة هى الأكثر وضوحاً فى هذه المرحلة من مراحل بروز وتطور العولمة كلحظة تاريخية جديدة، وتوحى العولمة الاقتصادية بأن العالم الذى تشكل فى تسعينات القرن الماضى قد أصبح عالماً بلا حدود اقتصادية ، فالنظم الاقتصادية المختلفة

---

(١) السيد يسين ، فى مفهوم العولمة ، مرجع سابق . ص ٨.

(٢) عبد الخالق عبد الله، مرجع سابق ، ص ٦٧

أصبحت متقاربة ومتداخلة ومؤثرة فى بعضها البعض . ولم تعد هناك حدود وفواصل-فيما بينها . فالنظام الاقتصادى العالمى هو اليوم نظام واحد تحكمه أسس عالمية مشتركة . وتديره مؤسسات وشركات عالمية ذات تأثير على كل الاقتصاديات المحلية ، أما الأسواق التجارية والمالية العالمية ، فإنها لم تعد موحدة أكثر من أى وقت آخر فحسب بل هى خارجه عن تحكم كل دول العالم بما فى ذلك أكبرها وأكثرها غنى [1].

فالاقتصاد العالمى الحديث يتميز بعملية متماثلة من عدة عمليات أدت فى مجملها إلى التحول من الاقتصاد الدولى إلى الاقتصاد العالمى وتتمثل فيما يلى[2] :-

أ - التحول المنظم والمستمر للإنتاج الصناعى من الولايات المتحدة وأوربا إلى الدول الصناعية الجديدة NICS فى ناحية الباسفيك وفى جنوب وشرق آسيا وأمريكا اللاتينية .

ب- الدور المتزايد لرأس المال كقوة رائدة فى الاقتصاد العالمى ،فرأس المال التمويلى قد أصبح قوة مستقلة فى العالم الحديث.

جـ الدور الكبير للمعلومات كعامل للإنتاج وكأساس للإدارة

ويعد انتقال مركز الثقل الاقتصادى العالمى من الوطنى إلى العالمى . ومن الدولة إلى الشركات والمؤسسات والتكتلات الاقتصادية هو جوهر العولمة

---

(١) عبد الخالق عبد الله ، مرجع سابق ، ص ٦٧.

(2) Shachar, Arie, Economic globalization and Urban dymamics I , In Moulaert, Frank & Scott, Allen J. (eds) , Cities, Enterprises and Society on the eve of 21 Century, pinter, London, 1997,P.19.

الاقتصادية . فالاقتصاد العالمى ونموه وسلامته وليست الاقتصاديات المحلية– هو محور الاهتمام العالمى.كما أن الأولوية الاقتصادية فى ظل العولمة هى لحركة رأس المال والاستثمارات والموارد والسياسات والقرارات على الصعيد العالمى وليس على الصعيد المحلى . والعولمة الاقتصادية تستجيب لقرارات المؤسسات العالمية ولاحتياجات التكتلات التجارية ومتطلبات الشركات متعددة الجنسية أكثر من استجابتها لمتطلبات الاقتصاديات الوطنية التى أخذت تذوب فى الاقتصاد العالمى . كذلك تصبح كيفية إدارة الاقتصاد العالمى أكثر أهمية من كيفية إدارة الاقتصادات المحلية[1].

وتجسد العولمة الاقتصادية فى حقيقتها مجموعة المستجدات والتطورات الاقتصادية التى برزت على الساحة بشكل واضح خلال تسعينات القرن الماضى . ويأتى فى مقدمة هذه التطورات الدور المتزايد للشركات العابرة للحدود . والتى ليس لها مقر أو وطن . فلقد برزت فى الآونة الأخيرة مجموعة من الشركات الصناعية والمصرفية و الخدمية العملاقة والقائمة على دمج شركات أوروبية وأمريكية ويابانية . و التى تقوم حاليا بنسج تحالفات عابرة للقارات والمحيطات والمتنوعة أشد التنوع فى نشاطاتها وتتسم هذه الشركات بأنه لم يعد لها هوية أو جنسية محددة ولم تعد تنتمى لدولة ولا تعترف بموطئ قدم واحدة . ولا تؤمن بالولاء لأية قومية أو منطقة جغرافية كما أنه ليس لهذه الشركات مقر واحد . ولا تتأثر بسياسات دولة من الدول متجاوزة بذلك الحواجز والقيود التقليدية على النشاط التجارى والمالى

---

(١) عبد الخالق عبد الله . مرجع سابق ص ٦٨

والصناعى . فمقرها الإدارى فى دولة . ومقرها التسويقى فى دولة ثانية . ومقرها الهندسى والفنى فى دولة ثالثة، ومقرها الإنتاجى فى دولة رابعة . ومقرها الإقليمى فى دولة خامسة، ومقرها الدعائى والإعلانى فى دولة سادسة، ومقرها التنفيذى فى دولة سابعة . وتنتقل هذه الشركات بحرية كاملة بين كل الدول الصغيرة والكبيرة والغنية والفقيرة . وتفترض أن العالم بالنسبة لها هو عالم بلا حدود سياسية أو اقتصادية أو جغرافية . كما أن هذه الشركات تعمل من منطلق أن حدودها هى حدود العالم بل الكون بأسره . لذلك فهى لا تجد صعوبة فى نقل سلعها وخدماتها وأصولها و إدارتها ومراكز بحوثها إلى أى مكان مستخدمة آخر التقنيات التى تقلص الزمان والمكان[1].

كما أن منظمة التجارة العالمية هى اليوم أهم مؤسسة من مؤسسات العولمة الاقتصادية ويشكل إنشاؤها منعطفا فى التاريخ الاقتصادى العالمى . ورغم أن منظمة التجارة تنسق عملها وسياستها مع بقية المؤسسات الاقتصادية العالمية، إلا أنها هى الجهة الوحيدة التى تتولى إدارة العالم تجاريا . وذلك من خلال تطبيق مبادئها التى يأتى فى مقدمتها مبدأ الدولة الأولى بالرعاية . ومبدأ الشفافية التامة تجاه المعلومات والممارسات التجارية . والذى هو أهم مبدأ من مبادئ منظمة التجارة العالمية ، هذه المبادئ عامة واسترشادية ، أما قرارات المنظمة فهى قرارات نهائية وملزمة لجميع الدول بما فى ذلك الدول العظمى كالولايات المتحدة الأمريكية[2].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٩ – ٧٠.

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٧١ –٧٢ .

٢-العولمة الثقافية :-

إذا كانت العولمة الاقتصادية واضحة كل الوضوح . فان العولمة الثقافية، وعلى العكس من ذلك ، ليست بنفس وضوح العولمة الاقتصادية . كما أنه إذا كانت العولمة الاقتصادية تبدو للبعض مكتملة على أرض الواقع . والعالم قد أوشك أن يكون معولما عولمة اقتصادية كاملة . فان العولمة الثقافية ليست بنفس القدر من الاكتمال . والعالم بعيد كل البعد عن أن يكون معولما عولمة ثقافية كذلك فانه إذا كانت العولمة الاقتصادية هى محصلة لتاريخ طويل من التطورات الاقتصادية والتجارية والمالية والتى تسارعت خلال عقدى السبعينات والثمانينات ، فان العولمة الثقافية هى فى المقابل ظاهرة جديدة . وتمر بمراحلها التأسيسية الأولى ، ولم تبرز كحقيقة حياتية الإخلال عقد التسعينات . بالإضافة إلى ذلك فانه إذا كان هناك إجماع حول معنى مفهوم العولمة الاقتصادية ، فان الأمر ليس كذلك بالنسبة لمفهوم العولمة الثقافية . من ناحية أخرى ، فان العولمة الثقافية لم تتمكن بعد أن تجارى فى تجلياتها وتطبيقاتها على أرض الواقع التجليات الحياتية والسلوكية والتطبيقات و المؤسساتية للعولمة الاقتصادية ، والعالم ليس موحداً ثقافيا . كما هو موحد تجاريا وماليا ، كما أنه لا وجود لنظام ثقافى عالمى كما يوجد نظام اقتصادى عالمى[1].

---

(١) المرجع السابق . ص ٧٤.

وتتضمن العولمة الثقافية بلوغ البشرية مرحلة الحرية الكاملة لانتقال الأفكار، والمعلومات ، والبيانات ، والاتجاهات ، والقيم، والأذواق على الصعيد العالمى ، وبأقل قدر من القيود والعراقيل والضوابط ، لقد فقدت الدول فى ظل العولمة الثقافية القدرة على التحكم فى تدفق الأفكار والقيم والقناعات فيما بين المجتمعات والأجيال ، وفقدت الدول السيطرة على التداول الحر للأخبار والمعلومات والذى يتم عبر وسائل ووسائط وتقنيات جديدة لم تبرز إلا فى تسعينات القرن الماضى حيث أصبح ملايين من البشر موحدين تليفزيونيا ومن خلال البريد الإلكترونى و شبكات الإنترنت[1].

على صعيد أخر فان العولمة الثقافية تعنى انتقال تركيز اهتمام ووعى الإنسان من المجال المحلى إلى المجال العالمى ، ومن المحيط الداخلى إلى المحيط الخارجى . ففى ظل العولمة الثقافية يزداد الوعى بعالمية العالم وبوحدة البشرية . وستبرز بوضوح الهوية والمواطنة العالمية[2].

٣-العولمة السياسية :-

كانت السياسة دائما وعلى العكس من كل من الاقتصاد والثقافة محصورة ضمن النطاق المحلى ومعزولة عن التطورات والتأثيرات الخارجية. فالسياسة بطبيعتها محلية ، بل إن السياسة هى من أبرز اختصاصات الدولة القومية التى تحرص كل الحرص على عدم التفريط بها واحتكارها ضمن نطاقها الجغرافى الضيق ومجالها الوطنى الأضيق . ويعد احتكار السياسة ضمن

---

(١) عبد الخالق عبد الله . مرجع سابق . ص ٧٦.

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٧.

المجال المحلى .وبعيداً عن التدخلات الخارجية مرتبط أشد الارتباط بمفهوم السيادة . و بممارسة الدولة لصلاحياتها وسلطاتها على شعبها و أرضها وثرواتها الطبيعية . فالدولة القومية هى نقيض العولمة . كما أن السياسة ونتيجة لطبيعتها المحلية ستكون من أكثر الأبعاد الحياتية مقاومة للعولمة التى تتضمن انكماش العالم وإلغاء الحدود الجغرافية . وربط الاقتصاديات والثقافات والمجتمعات والأفراد بروابط تتخطى الدول وتتجاوز سيطرتها التقليدية على مجالها الوطنى والمحلى[1].

فالعولمة السياسية هى مشروع مستقبلى . وهى فى جوهرها مرحلة تطورية لاحقة للعولمة الاقتصادية والثقافية ، فقيام عالم بلا حدود سياسية لن يكون تلقائيا أو بنفس سرعة أو سهولة قيام عالم بلا حدود اقتصادية أو ثقافية. كما أن الانتقال الحر للأفراد والسلع والخدمات والأفكار والمعلومات عبر المجتمعات والقارات والذى تم خلال تسعينات القرن الماضى ربما أدى إلى انحسار نسبى للسيادة المطلقة ، وربما خلق الانطباع بأن الدولة لم تعد ضرورية، وأنها قد فقدت دورها وأهميتها ، بيد أنه لم ولنا يسقط كل مظاهر السيادة ولن يضع نهاية للدولة ، كما أنه لن يؤدى إلى قيام الحكومة العالمية الموعودة والتى ستحل محل الدولة القومية ، والتى ستدير العالم وكأنه وحدة اقتصادية وثقافية واجتماعية وسياسية واحدة[2].

ولقد أصبحت نهاية السيادة والدولة . وبروز الحكومة العالمية ممكنة أكثر من أى وقت آخر فى ظل العولمة بيد، أن كل ذلك لن يحدث قريبا. أو

---

(١) عبد الخالق عبد الله ، مرجع سابق ، ص ص ٨٠ – ٨١.

(٢) المرجع السابق ، ص ٨١.

حتى خلال المستقبل القريب . فالعولمة السياسية لا تعنى القضاء على الدولة . أو بروز الحكم العالمى. وإنما تتضمن دخول البشرية إلى مرحلة سياسية جديدة يتم خلالها الانتقال الحر للقرارات والتشريعات والسياسات و القناعات والخيارات عبر المجتمعات والقارات . وبأقل قدر من القيود والضوابط متجاوزة بذلك الدول والحدود الجغرافية . ولا شك أن هذا الانتقال الحر للسياسيات والقرارات والتشريعات سينقل السياسة من المجال المحلى إلى المجال العالمى. وسيخرج النشاط السياسى عن إطار الدولة وحدودها . ولن يتحدد المجال السياسى الجديد الذى يتشكل فى ظل العولمة بحدود وقيود الدولة. وستصبح السياسة – وللمرة الأولى فى التاريخ – ممكنة على الصعيد العالمى بدلاً من الصعيد المحلى ، كما كانت تدار فى السابق ، بالإضافة إلى ذلك فإن العولمة السياسية تتضمن حدوث زيادة غير مسبوقة فى الروابط السياسية بين دول العالم . وذلك على نسق زيادة الروابط الاقتصادية بين اقتصاديات العالم ، وزيادة الروابط الثقافية بين الثقافات فى العالم [1].

كذلك ينبغى أن نتذكر أن مناقشة قضية العولمة كثيراً ما تختلط بمناقشة نمط الحياة الأمريكى . فنظراً لأن الولايات الأمريكية تمثل حالياً أكثر الدول توغلاً فى التطورات التكنولوجية ، وبالتالى أكثرها اتباعاً لمظاهر العولمة . فكثيراً ما تتحول مناقشة قضية العولمة إلى مناقشة السيطرة الأمريكية وأسلوب الحياة الأمريكى. وكثيراً ما تذهب معارضة العولمة إلى معارضة الهيمنة

---

(١) المرجع السابق . ص ص ٨١ -٨٢ .

الأمريكية . وتتميز العولمة كمرحلة من مراحل التطور . بخصائص عدة أو مؤشرات جديدة تتمثل فى ظهور أسواق جديدة . مثل أسواق العملات والتى تعمل على مدار الساعة على مستوى العالم ، وظهور أدوات جديدة للتعامل والاتصال مثل الإنترنت والتليفون المحمول وشبكات الاعلام وظهور لاعبين جدد على الساحة مثل المنظمات الدولية . منظمة التجارة العالمية ومنظمات المجتمع المدنى . وأخيراً ظهور قواعد خدمة للتعامل مثل الاتفاقات الدولية لتنظيم مختلف الأنشطة. ومع ذلك فان توسيع الأسواق وإزالة أو إلغاء الحدود والحواجز الجغرافية والسياسة لم يتحقق دائما بالدرجة نفسها . فعلى حين أن انتقال المعلومات لا يكاد يواجه أى عقبات ، فان حركات الأموال بين مختلف الدول بدأت تتم فى سهولة ويسر . وبالمثل فان الحواجز أما انتقال السلع بدأت تتلاشى وتتراجع مع إنشاء منظمة التجارة العالمية . وعلى العكس من ذلك تماماً انتقالات البشر التى بدأت تعرف مزيداً من القيود والصعوبات(١).

ثانيا : النموذج المعرفى للعولمة:-

تعد الايبستمولوجيا فرع من فروع العلم الاجتماعى حيث ذاع استخدام مناهجها فى العقود الماضية ، وبخاصة فى مجال تحليل الخطاب بكل أنواعه. ويمكن تعريفها بأنها دراسة نقدية موضوعها المعرفة العلمية من حيث المبادئ التى ترتكز عليها. والفرضيات التى تنطلق منها. والنتائج التى تنتهى

---

(١) حازم الببلاوى . النظام الاقتصادى الدولى المعاصر من نهاية الحرب العالمية الثانية إلى نهاية الحرب الباردة ، عالم المعرفة ، العدد ٢٥٧ . مايو . ٢٠٠٠ ص ص ٢٣٥ -٢٣٦

إليـها . أمـا هـدف هـذه الدراسـة فـهو البحـث فـى الأصـول المنطقيـة لهـــذه الفرضيات والمبادئ والنتائج من جهة، وبيان قيمتها من جهة أخرى.

معنى ذلك معنى ذلك أنه لو أريد القيام بدراسة معرفية للعولمة فلن يتـم الخوض فى تشريح الظاهرة ذاتها ، ولا فى تحليـل مختلـف تجلياتـها ، ولا فى تعقب آثارها ، ولكن سيتم التركيز على المعرفة العلمية الخاصة بالعولمة من ناحية التعريفات والمفاهيم و الأطروحات والمجالات .

وابتداء يمكن القول أنـه لا بـد مـن تصنيـف المنظريـن الذيـن يتنـاولون العولمة بالدراسة والتحليل ، فالعولمة بالنسبة للبعض تمثل تقدماً طبيعياً تجاه " عالم بلا حدود " وهى بالنسبة للبعض الآخر مفهوم يتـم الـتركيز عليـه تركـيزاً مبالغاً فيه ، كما تتم المبالغة أيضا فى تحديد آثاره فـى التطبيـق . وإذا أضفنـا إلى ذلك المخاوف التى تثيرها العولمة باعتبارهـا أحـد أسـباب تخفيـض العمالـة وتقليص برامج الرعاية الاجتماعية ، لأدركنا أنه لا بد من التمييز المبدئـى بـين الخطابات المتصارعة حول العولمة[1].

ويمكن القول بشكل عام أن الصراع يدور أساساً بين أنصار العولمة الذين يصفون العالم بأنه سائر حتماً فى طريقـها ، وبـين هـؤلاء الذيـن يرفضـون هـذه الحتمية ، ويقرون أن طابع النظام الدولى الذى يتكون من الـدول ، والتـى هـى الوحدات الأساسية له سيبقى ولن يتغير كثيراً . ويرى أنصار الاتجاه الأول أنه ستظهر " مراكز سلطة " بديلة ، وخصوصا فى عالم الشركات ، وعلى الأخص

---

(١) السيد يسين : نحو خريطة معرفية للعولمة (١) ، جريدة الأهرام ، ١٩٩٨/١١/١٩، ص ٣٤.

تلك التى يطلق عليها " دولية النشاط" والتى ستتنافس غالباً بنجاح مع الدول فى تحديد اتجاهات الاقتصاد السياسى الكونى . ويرى أنصار الاتجاه الثانى أن الدول ستظل هى الأطراف الرئيسية الفاعلة فى الأنظمة السياسية والاقتصادية ويعتقدون أن موضوعات الأمن القومى مازالت لها الأهمية العليا . ويطلق على أصحاب الفريق الأول المتعولمون Globalizens وعلى الفريق الثانى الدوليتون (من دولة) Internationalists . وتحتاج ظاهرة العولمة إلى صياغة نموذج متعدد الأبعاد حتى نصل إلى جوهرها الحقيقى . وهذا النموذج من وجهة النظر المعرفية لابد له أن يربط ربطا عضويا وثيقا بين تعريفات العولمة المختلفة والمسلمات التى تقوم عليها و الأطروحات التى تتضمنها ومجالات السياسات التى تصاغ بناء على هذه المسلمات وصور المقاومة لها . وذلك من خلال منظور معرفى متكامل .

ويتكون النموذج المعرفى المقترح من ثلاثة أبعاد . فهو فى بعد أول دراسة دقيقة لتعريفات العولمة التى يشيع استخدامها لدى الباحثين العلميين ولدى الساسة فى نفس الوقت ، وهى تنقسم إلى أربع فئات تتمثل فيما يلى[1] :-

١- العولمة باعتبارها مرحلة تاريخية.

٢- العولمة باعتبارها تجليات لظواهر اقتصادية.

٣- العولمة باعتبارها انتصاراً للقيم الأمريكية.

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤

٤- العولمة باعتبارها ثورة اجتماعية وتكنولوجية.

وينزع التعريف الأول للعولمة باعتبارها حقبة محددة من التاريخ أكثر منها ظاهرة اجتماعية أو إطارا نظرياً . وهى فى نظر البعض تبدأ بشكل عام منذ بداية ما عرف بسياسة الوفاق التى سادت فى الستينات بين القطبين المتصارعين فى النظام الدولى آنذاك إلى أن انتهى الصراع والذى يرمز له انهيار حائط برلين الشهير ونهاية الحرب البادرة . وعلى ذلك فالعولمة فى نظر أصحاب هذا الرأى هى المرحلة التى تعقب الحرب الباردة من الناحية التاريخية . ومصطلح العولمة - مثله فى ذلك مصطلح الحرب الباردة الذى سبقه . يؤدى دوره كحد زمنى لوصف سياق تحدث فيه الأحداث كأن يقال مثلا نحن نعيش فى عصر العولمة لتبرير أو فهم سياسات معينة اقتصادية أو سياسية أو ثقافية[١] .

ويركز التعريف الثانى للعولمة . على العكس من التعريف السابق ، على الدولة وظيفيا باعتبارها سلسلة مترابطة من الظواهر الاقتصادية وتتضمن هذه الظواهر تحرير الأسواق وخصخصة الأصول وانسحاب الدولة من أداء بعض وظائفها وخصوصاً فى مجال الرعاية الاجتماعية ، ونشر التكنولوجيا والتوزيع العابر للقارات للإنتاج المصنع من خلال الاستثمار الأجنبى المباشر والتكامل بين الأسواق الرأسمالية[٢].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤.

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤.

والعولمة فى تعريفها الضيق تشير كظاهرة إلى الانتشار الواسع المدى فى كل أنحاء العالم للمبيعات والإنتاج وعمليات التصنيع ومما يشكل إعادة صياغة للتقسيم الدولى للعمل . وهذا التعريف الذى يمكن أن يطلق عليه تعريف اقتصادى للعولمة ولكن فى الوقت الذى يركز فيه على التمويل والإنتاج والتكنولوجيا والتنظيم والسلطة كعوامل للتغير . فانه يشير فى نفس الوقت إلى أن عددا من هذه الأنشطة ليس جديداً تماماً بالمعنى التاريخى للكلمة[١].

ولعل خير ما يعبر عن التعريف الثالث للعولمة كتاب المفكر الأمريكى اليابانى الأصل فوكوياما " نهاية التاريخ " والذى اعتبر فيه سقوط الاتحاد السوفيتى وانهيار الكتلة الاشتراكية انتصاراً حاسما للرأسمالية على الشيوعية . وهو يرى أن نهاية الحرب الباردة تمثل المحصلة النهائية للمعركة الأيديولوجية التى بدأت بعد الحرب العالمية الثانية بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية . وهى الحقبة التى تم فيها التركيز على سمو القدرات التكنولوجية الأمريكية وعلى تفوق المؤسسات والنظم الأمريكية[٢].

ووفق هذا المنظور ، فالعولمة بالمعنى المعيارى للكلمة ظاهرة جيدة وتمثل تقدماً فى التاريخ ، لأنها ترمز فى الواقع إلى انتصار ظواهر التحديث وسيادة الديموقراطية كنظام سياسى . والمنادون بهذا الرأى يشبهون إلى حد كبير أنصار نظرية التحديث فى الفكر السياسى الأمريكى . والتى وفقا لها فإن التجانس فى القيم ينبغى أن يتم من خلال التمسك بمبادئ الرأسمالية والديموقراطية[٣] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤.

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤.

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٤.

ويعارض التعريف الرابع الذى ينظر للعولمة باعتبارها ثورة تكنولوجية واجتماعية . يعارض بوضوح التعريف الثانى الذى لا يرى فى العولمة سوى مجموعة متشابكة من الأنشطة الاقتصادية . وعلى العكس من ذلك يرى هذا التعريف أن العولمة هى شكل جديد من أشكال النشاط تم فيها الانتقال بشكل حاسم من الرأسمالية الصناعية إلى المفهوم الما بعد الصناعى للعلاقات الصناعية، وهذا التحول تقوده نخبة تكنولوجية صناعية ، تسعى إلى تدعيم السوق الكونية الواحدة بتطبيق سياسات مالية وائتمانية وتكنولوجية واقتصادية شتى . وعلى عكس التعريف الأول الذى يركز على عنصر الزمن وينظر للعولمة باعتبارها حقبة تاريخية . فان هذا التعريف يرى أن الزمن لا معنى له . وأن الفضاء نتيجة للثورة التكنولوجية و الاتصالية قد تم بالفعل ضغطة .مما أدى إلى ظهور الاقتصاد الذى يقوم على تلاحم الشبكات المختلفة[1].

أما البعد الثانى فى النموذج المعرفى المقترح ، فهو يتعلق بالدراسة النقدية للأطروحات الأساسية التى صيغت بناء على التعريفات التى قدمت للعولمة . وبدون تحديد هذه الأطروحات ومناقشتها لا يمكن فهم ميدان البحث البازغ الخاص بدراسات العولمة فى مجال بحوث العلاقات الدولية وتتمثل هذه الأطروحات فيما يلى[2] :-

(١) السيد يسين . نظرة نقدية لتعريفات العولمة (٢) ، جريدة الأهرام، ١١/٢٦/ ١٩٩٨ ص ٣٤.

(٢) السيد يسين . أطروحات العولمة(٣)، جريدة الأهرام، ١٢/٣/١٩٩٨ ص ٣٤.

١- أطروحة إعادة التوزيع :

ويتبناها أنصار الاشتراكية الذين يرون أن التنمية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لا تتجسد فقط بالهياكل والبنى السياسية والاجتماعية . ولكن بالإضافة إلى ذلك هناك دور حاسم للعامل الإنسانى يتمثل فى الفاعلين الذين يقودون أو يقاومون التغيير ، ويمكن القول بأن الاشتراكيين الديمقراطيين والماركسيين مركزون الآن جهودهم على أهمية عدالة التوزيع فى سياق العولمة . والعولمة بالنسبة لهم ليست مجرد مجموعة من الظواهر الاقتصادية . ولكنها أيضاً بل فى المقام الأول ، مجموعة ظواهر لسياسية أيديولوجية تقدم كمبرر لاتجاهات بازغة فى مجال الحكم المعاصر، وإذا كانت العولمة قد ركزت على بعد حرية السوق فيها ، فانه لم يتم تحليلها بالقدر الكافى من زاوية السياق الدولى الذى تعمل فيه ، ولا من ناحية قوى المقاومة سواء داخل البلاد المتقدمة ذاتها أو البلاد النامية .

والنقطة الجوهرية التى يثيرها الاشتراكيون الديمقراطيون هى أن الدولة الرأسمالية فى استجابتها للعولمة ، قد قضت بذلك على الصيغة الهشة للحل الوسط الليبرالى الذى صيغ لتحديد العلاقة بين الدولة والمجتمع والذى سمح للرأسمالية بأن تتوسع داخليا وخارجيا على أساس تفادى الصراع الطبقى بين الرأسماليين والعمال المنتجين بشكل عام من خلال برامج الرعاية الاجتماعية المتعددة . بعبارة أخرى أصبحت ما يمكن أن نطلق عليها رأسمالية الرعاية الاجتماعية ، أو دولة الرفاهية الاجتماعية ضحية العولمة ومن المعروف أن

هناك أزمة شديدة فى مجال تمويل هذه البرامج . وجدلاً سياسيا محتدما حول ضرورة تقليصها . وفى نظر بعض المتطرفين إلغائها نهائياً[1].

٢-أطروحة الرأسمالية المقارنة :-

تقوم هذه الأطروحة على فكرة بسيطة ، وهى أن الرأسمالية ليست واحدة فى كل مكان . وأن الأنظمة الرأسمالية المتعددة ليس من الضرورى أن تقترب من بعضها البعض لدرجة تختلط فيها سماتها ، وإذا كانت الرأسمالية أو الديمقراطية يمكن تعريف كل منها بطريقة مجردة ، إلا أن هذا التجريد لا ينفى الاختلافات الواضحة بين كل نظام رأسمالى وآخر . سواء من الناحية الاقتصادية . أو من الناحية السياسية . ويكفى أن نقارن النظام الرأسمالى الأمريكى بالنظام الرأسمالى اليابانى ليبدو ذلك واضحاً.

وفى ضوء هذه الملاحظة النظرية المنهجية المهمة يمكن الوصول إلى نتيجة غاية فى الأهمية فحواها أنه ، فى التطبيق ستختلف صور الاستجابة للعولمة بحسب النماذج التى قد تكون متباينة للرأسمالية وفى ظل هذا المنظور فان دور الدولة سيظل قائما وسيقوم بالدور الرئيسى فى التفاعل مع الدول الأخرى وفى مواجهة المؤسسات التى تبحث عن الربح . وتلك التى لا تبحث عن الربح مثل الجمعيات الأهلية وذلك داخل كل مجتمع[2].

٣-أطروحة الإقليمية :-

يعتبر مفهوم الإقليمية مفهوما متبايناً . فبعض الباحثين فى العلاقات الدولية يعتبر الإقليمية نشاطاً بين الدول يتدرج من مجرد التنسيق بين

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤.

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤.

السياسات إلى التكامل فى سوق مشتركة مثل حالة الاتحاد الأوروبى . وهو فى نظر البعض الآخر تفاعل بين المحلى والإقليمى فى المجال الاقتصادى والسياسى . وتوجد الآن نظرة شائعة للإقليمية على أنها وسيلة تتبعها نماذج النظم الرأسمالية المختلفة للمناورة مع مشكلات التكامل الكونى الذى تدفع إليه العولمة . ويكشف عن صدق هذه الملاحظة تعدد صور الإقليمية باعتبارها إحدى وسائل الحفاظ على الاختلافات بين النظم . وفى نفس الوقت بحسبانها محاولة للوصول إلى حل وسط مع الاقتصاد الكونى . وهناك رأى آخر يرى أن الإقليمية فى الواقع لا تمثل حلاً وسطاً . بل هى فعل من أفعال المقاومة ضد العولمة . ومن ناحية أخرى يبرز رأى مضاد يذهب إلى أن الإقليمية عمل مكمل لذيوع العولمة ، وكأنها خطوة من خطوات الوصول إلى العولمة الكاملة.

وهناك خلاصة يقدمها البعض تتمثل فى أن العولمة . وإن كانت فى نفس الوقت مجموعة من العمليات و أيديولوجية للإدارة الاقتصادية . فان الإقليمية تعد مظهراً من مظاهر العولمة تتقاطع معها .ولا يمكن فهمها بدون فهم ظاهرة العولمة ، أما المحلية فهى تمثل تياراً مضاداً للعولمة يمكن أن يؤدى إلى فهم مختلف للقضاء السياسى والحدود الإقليمية . فالعولمة تقلل من مكونات المشروع التقليدية وهى الأرض والعمل ورأس المال ، وذلك فى ضوء الصناعات التى تقوم على المعرفة . بحيث أصبحت هى أهم مكون من مكونات المشروع الصناعى المعاصر[1].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤.

٤-أطروحة الثورة الاتصالية ورمزها البارز هو شبكة الإنترنت :

فعادة ما يشار إلى شبكة الإنترنت باعتبارهـا رمـزاً للثـورة التكنولوجيـة والاتصالية . والتى هى الآن من أبـرز علامـات العولمـة الاتصاليـة . ويكفـى أن نشير إلى ما يسمى بالتجارة الإلكترونية

غير أن النظر إلى العولمة باعتبارها ثورة تكنولوجية أساساً قـد يـؤدى إلى إغفال المشكلات التى يلاقيها تيـار الليبراليـة الجديـدة .الآن وخصوصـاً فيمـا يتعلق بموضوع عدالة التوزيع . وهكذا فان هذه الأطروحة قد تعود إلى نـوع مـن أنواع الحتمية التكنولوجية فى عصر سقطت فيه الحتميـة فـى العلـم والطبيعـة والمجتمع.

ويتمثل البعد الثالث للنمـوذج المعرفـى المقـترح فـى مجـالات السياسـة المختلفة . والتى تظهر فيها قوى متصارعة متعـددة يقـوم بعضـها علـى أسـاس الاعـتراض علـى بعـض سياسـات العولمـة ، وفـى بعـض الأحيـان رسـم خطـط لمقاومتها ، ويلمس هذا البعد مباشرة الإشـكالية الكـبرى التـى تواجـه مختلـف الدول فى الوقت الراهن ، ولا فرق فى ذلك بين الدول الغنيـة والـدول الناميـة. ويعنـى بذلـك علـى وجـه التحديـد العلاقـات المتغـيرة بـين الـدول والأسـواق والمجتمع المدنى.

ولا شك أن الدولة القومية صيغة أساسية استقرت منذ عشرات السنين. باعتبارها الوحدة الرئيسية التى تكون النظام الدولى . وهذه الدولة قامت أساسا على تقديس حدودها حتى أن حروباً متعددة قـامت حـين اخـترقت فيـه هـذه

الحدود من قبل دول أخرى، ومن ثم يمكن القول بأن النظام الدولى حكمته طوال القرن العشرين اعتبارات الجغرافيا السياسية.

غير أن المتغيرات العالمية والتى عمقت من آثار العولمة بكل تجلياتها السياسية والاقتصادية والثقافية قد أدت إلى اعتبارات الجغرافيا السياسية لتصعد على أساسها اعتبارات الجغرافيا الاقتصادية بمعنى أن التفاعلات الاقتصادية بين الدول – وبغض النظر عن مشكلة الحدود – أصبحت لها اليد العليا فى رسم السياسات الخارجية لهذه الدول وفى تحديد مصالحها القومية. وفى صياغة برامج الأمن القومى ، ومن هنا شهدنا صعوداً بارزاً للتكتلات الإقليمية مثل " الاتحاد الأوربى " والنافتا" و "والآسيان " قامت أساسا لتحقيق المصالح الاقتصادية للدول المنضمة إليها قبل تحقيق أى أهداف سياسية أو ثقافية .

ومن ناحية أخرى تصاعدت معدلات "العلاقات متعددة الأطراف" التى لا تلقى بالا إلى مسألة الحدود الجغرافية ، وإنما هى تتجاوزها لتركز على مضمون العلاقات غير أنه إلى جانب ذلك لا ننكر أن الدولة القومية نتيجة للإقليمية المتصاعدة ولتأثير موجات العولمة المتدفقة بمشكلة تقلص مجال سيادتها ، مما يخلق فى الواقع توترات شديدة لم تحل حتى الآن[1]

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٤.

ثالثا : النشأة التاريخية للعولمة :-

إذا كان تعريف العولمة صعباً ، فإن تحديد متى برزت العولمة كحقيقة حياتية أكثر صعوبة ، وإن كان هناك إجماع بأن العولمة كمصطلح قد برز خلال التسعينات وأصبح بعد ذلك واسع التداول ، فانه لا يوجد إجماع حول تاريخ ولادة العولمة كواقع اقتصادى ، وربما ثقافى وسياسى معاش وليس من السهل تحديد لحظة ولادة العولمة ، كما أنه ليس من السهل الإجابة على السؤال حول متى برزت العولمة ؟ وربما يعود الغموض حول الإجابة على ذلك إلى تلك المعانى والمضامين المختلفة التى أعطيت لمصطلح العولمة " فإذا كانت العولمة تعنى حركة لدمج العالم ، فحركة دمج العالم قديمة كل القدم ،وإذا كانت العولمة تشير إلى زيادة ربط العالم بروابط اقتصادية وتجارية واستثمارية . فان ربط العالم بروابط اقتصادية بدأ فعليا ، وكما يقول"ايمانويل والرشتاين " مع بروز نمط الإنتاج الرأسمالى كنظام اقتصادى عالمى قبل أكثر من ٣٠٠ سنة ، أما إذا كانت العولمة هى تجسيد لتلك التطورات الحياتية والفكرية والتكنولوجية المتلاحقة ، والتى تؤدى إلى انكماش العالم من حيث الزمان والمكان . وبالتالى زيادة وعى الأفراد بهذا الانكماش ، فان العولمة هى حقيقة حياتية جديدة لم تبرز إلا خلال تسعينات القرن الماضى ، أخيراً ، إذا كانت العولمة تعنى بروز عالم بلا حدود اقتصادية أو ثقافية وسياسية ، وبالتالى بروز نظام اقتصادى عالمى موحد وثقافة عالمية موحدة ومجتمع عالمى واحد ، فان العولمة غير موجودة حتى الآن ، والعالم القائم حاليا هو امتداد للعالم القديم ومازال متمسكا

كل التمسك بالحدود بما فى ذلك الحدود الجغرافية . وحتما الحدود السياسية والتى تتجسد فـى شـكل الـدول التى تحـاول أن تؤكـد أنـها مـازالت الوحـدة الارتكازية فى العالم المعاصر[1].

و إذا حاولنا أن نتتبع النشأة التاريخية للعولمة ، يمكن أن نعتمـد علـى النمـوذج الـذى صاغـه " رولانـد روبرتسـون " فـى دراسـته " تخطيـط الوضـع الكونى: العولمة باعتبارها المفهوم الرئيسى " والذى حاول فيه أن يرصد المراحل المتتابعة لتطور العولمة وامتدادها عبر المكان والزمان . ونقطة البدايـة عنـده هـى ظهور " الدولة القوميـة الموحـدة " علـى أسـاس أن هـذه النشـأة تسـجل نقطـة تاريخية فاصلـة فـى تـاريخ المجتمعـات المعـاصرة . ذلـك أن ظـهور المجتمـع القومى منذ حوالى منتصف القرن الثامن عشر يمثل بنية تاريخيـة فريـدة ، وأن الدولـة القوميـة المتجانسـة والتجـانس الثقـافى والمواطنـين الذيـن يخضعـون لإدارتها. تمثل تشكيلا لنمط محدد من الحياة ، ويمكن القول فـى الحقيقـة أن شيوع المجتمعات القومية فى نهاية القرن العشرين هو فعل من أفعال العولمة . بمعنى أن إذاعـة ونشـر الفكـرة الخاصـة بـالمجتمع القومـى كصـورة مـن صـور الاجتماع المؤسسة ، كان جوهرياً بالنسبة لتعجيل العولمة التى ظهرت منذ قرن من الزمان . وهناك مكونان آخران للعولمة - بالإضافة إلى المجتمعـات القوميـة هما مفاهيم " الأفراد" و "الإنسانية " وبناء على هذه الاعتبارات صاغ روبرتسون نموذجة من خلال تعقب البعد الزمنى التاريخى الذى أوصلنا إلى الوضع الراهن

---

(١) عبد الخالق عبد الله ، مرجع سابق ، ص ص ٥٥ - ٥٦.

والذى يتسم بدرجة عالية من الكثافة الكونية والتعقيد وينقسم النموذج إلى خمس مراحل كما يلى[1] :-

١-المرحلة الجنينية :-

استمرت فى أوروبا منذ بواكير القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر ، وشهدت هذه المرحلة نمو المجتمعات القومية ، واضعافا للقيود التى كانت سائدة فى القرون الوسطى ، كما تعمقت الأفكار الخاصة بالفرد والإنسانية ، وسادت نظرية عن العالم وبدأت الجغرافيا الحديثة.

٢-مرحلة النشوء :

استمرت فى أوروبا أساسا من منتصف القرن الثامن عشر حتى عام ١٨٧٠ وما بعده ، فقد حدث تحول حاد فى فكر الدولة المتجانسة الموحدة ، وأخذت تتبلور المفاهيم الخاصة بالعلاقات الدولية ، وبالأفراد باعتبارهم مواطنين لهم أوضاع مقننة فى الدولة ، ونشأ مفهوم أكثر تحديداً للإنسانية ، وزادت إلى حد كبير الاتفاقات الدولية ، ونشأت المؤسسات المتعلقة الخاصة بتنظيم العلاقات والاتصالات بين الدول ، وبدأت مشكلة قبول المجتمعات غير الأوروبية فى المجتمع الدولى ، وبدأ الاهتمام بموضوع القومية والعالمية.

٣-مرحلة الانطلاق :

واستمرت من عام ١٨٧٠ وما بعده حتى العشرينات من القرن العشرين وظهرت مفاهيم كونية مثل " خط التطور الصحيح " ، والمجتمع القومى

(١) السيد يسين ، فى مفهوم العولمة ، مرجع سابق ، ص ص ٩ – ١١ .

"المقبول" وظهرت مفاهيم تتعلق بالهويات القوميه والفرديه وتم ادمـاج عـدد من المجتمعات غير الأوربيـة فـى "المجتمـع الـدولى" وبـدأت عمليـة الصياغـة الدولية للأفكار الخاصة بالإنسانية ومحاولة تطبيقها ، وحدث تطور هـائل فـى عدد وسرعة الأشكال الكونية للاتصال ، وتمت المنافسات الكونية مثل الألعاب الأولمبية وجوائز نوبل ،ووقعت فى هذه المرحلة الحرب العالمية الأولى . ونشأت عصبة الأمم .

٤-الصراع من أجل الهيمنة :

استمرت هذه المرحلة من العشرينات حتى منتصف الستينات . وبدأت الخلافات والحروب الفكرية حول المصطلحات الناشئة الخاصة بعملية العولـة . والتى بدأت فى مرحلة الانطلاق ونشأت صراعـات كونيـة حـول صـور الحيـاة وأشكالها المختلفة ، وقد تم التركيز على الموضوعات الإنسانية بحكـم حـوادث الهولوكست و إلقاء القنبلة الذرية على اليابان وبروز دور الأمم المتحدة

٥-مرحلة عدم اليقين :-

بدأت منذ الستينات وأدت إلى اتجاهات وأزمات فى التسـعينات وقـد تم إدماج العـالم الثـالث فـى المجتمـع العـالمى، وتصـاعد الوعـى الكونـى فـى الستينات . وحدث هبوط على القمر وتعمقت قيم مـا بعـد الماديـة ، وشـهدت المرحلة نهاية الحرب الباردة ، وشيوع الأسلحة الذرية ، وزادت إلى حد كبـير المؤسسات الكونية والحركات العالميـة . وتواجـه المجتمعـات الإنسـانية اليـوم مشكلة تعدد الثقافـات وتعـدد السـلالات داخـل المجتمـع نفسـه . وأصبحـت

المفاهيم الخاصة بالأفراد أكثر تعقيدا من خلال الاعتبارات الخاصة بالجنس والسلالة، وظهرت الحقوق المدنية . وأصبح النظام الدولى أكثر سيولة ، وانتهى النظام الثنائى القومية . وزاد الاهتمام فى هذه المرحلة بالمجتمع المدنى العالمى . والمواطنة ، وتم تدعيم نظام الإعلام الكونى .

ويرى أحد الباحثين أن ظاهرة العولمة عمرها خمسة قرون على الأقل، وبدايتها ونموها مرتبطان ارتباطا وثيقاً بتقدم تكنولوجية الاتصال والتجارة ، منذ اختراع البوصلة وحتى الأقمار الصناعية ، وأنه من المهم إدراك هذه الحقيقة و التأكيد عليها . ولكن من المهم أيضا الاعتراف بأن أشياء جديدة ومهمة قد طرأت على ظاهرة العولمة فى الثلاثين عاما الأخيرة منها ما يلى[1] :-

١- انهيار أسوار مالية كانت تحتمى بها بعض الأمم والمجتمعات من تيار العولمة . ومن ثم اكتسح تيار العولمة مناطق مهمة من العالم كانت معزولة بدرجة أو أخرى عنها ، وأهم هذه الأمم هى بالطبع أمم أوروبا الشرقية والصين التى انتهت عزلتها الاختيارية أو أجبرت بطريقة أو بأخرى على التخلى عن هذه العزلة[2].

٢- الزيادة الكبيرة فى درجة تنوع السلع والخدمات التى يجرى تبادلها بين الأمم وكذلك تنوع مجالات الاستثمار التى تتجه إليها رؤوس الأموال من بلد إلى آخر ، لم تعد صادرات دولة "اقل نمواً" تنحصر فى مادة أولية

---

(١) جلال أمين . العولمة والدولة .فى العرب والعولمة : بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التى نظمها مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت ، ١٩٩٨ . ص ص ١٥٣.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٤

واحدة ، ولا وارداتها فى عدد محدود من السلع ، كما كان الحال فى ظل الاستعمار التقليدى ،ولا الاستثمار الأجنبى يكاد ينحصر فى إنتاج المادة الأولية وتطوير البنية الأساسية اللازمة لهذا الإنتاج ، بل تعددت هذه الصادرات وتنوعت ، وكذلك الواردات ، كما تعددت وتنوعت المجالات التى ينتقل إليها رأس المال الأجنبى بحثاً عن فرص الربح [1].

٣- ارتفعت نسبة السكان - فى داخل كل مجتمع أو أمة - التى تتفاعل مع العالم الخارجى وتتأثر به فلقد مرت مصر مثلا بفترات خلال القرنين الماضين كانت نسبة التجارة الخارجية إلى دخلها القومى أكبر مما هى عليه الآن، ومعدل تدفق رؤوس الأموال الأجنبية إليها من إجمالى الاستثمار ، أعلى أيضا مما هو عليه الآن ، ومع ذلك كانت نسبة السكان ، المتأثرة بهذه العلاقات الدولية ضئيلة جداً ، حيث ظلت الغالبية العظمى من السكان ، حتى من كان منهم يساهم فى إنتاج السلعة التصديرية الأولى ، وهى القطن ، تكاد تكون منقطعة الصلة عن العالم الخارجى فى نمط حياتها وتفكيرها.

ولم يعد الأمر كذلك على الإطلاق ، فلقد أصبح نحو سدس السكان على الأقل يفيدون مباشرة أو بطريق غير مباشر من السياحة وحدها . ونسبة مماثلة تتلقى تحويلات من أفراد أسرها العاملين خارج مصر ، وأما الواردات فقد دخلت كل بيت ، حتى بيوت أفقر الفلاحين[2].

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٤.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٤.

٤- ظل تبادل السلع ورؤوس الأموال هو العنصر المسيطر على العلاقات بين الدوّل حتى وقت قريب للغاية ، ثم بدأ تبادل المعلومات والأفكار يصبح هو العنصر الغالب على هذه العلاقات ، أو على الأقل هو العنصر الذي ينمو بأكبر سرعة. كانت الثلاثين عاماً الأخيرة هي الحقبة التاريخية التى أصبح فيها استيراد الأفكار والقيم لا تتوقف على حجم التجارة أو حجم تدفق الأشخاص أو رؤوس الأموال . بل أصبح استيرادا مباشرا عن طريق الاتصال بمصدر هذه الأفكار والقيم حتى وهى قابعة فى مكانها[1].

٥- أصبحت الوسيلة الأكثر فعالية فى تحقيق هذا الانتقال للسلع ورأس المال والمعلومات والأفكار ، بل المهيمن على هذا الانتقال ، هى الشركات المتعدية الجنسية ، فلقد ظلت العلاقات بين الدول والأمم لعدة قرون تتم فى الأساس عن طريق شركات قد تسمى بالدولية ، ولكن نشاطها يقتصر على عدد محدود من الدول ، أو حتى على العلاقة بين الدولة الأم والدولة المستعمرة ، ولا تتخذ العالم كله ، كما تتخذه الشركات متعدية الجنسية اليوم مسرحاً لعلمياتها . سواء فيما يتعلق بالحصول على المستخدمات أو توزيع عمليات الإنتاج أو التسويق[2].

٦- طرأ خلال هذه العقود الأخيرة تغير ملحوظ على مركز الدولة من هذا النمو فى العلاقات بين المجتمعات . فلقد اقترنت بداية العولمة منذ خمسة

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ١٥٤ - ١٥٥.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٥.

قرون ببروغ ظاهرة الدولة القومية حيث تطلب التقدم التكنولوجي وزيادة الإنتاجية فى ذلك الوقت بتوسيع نطاق السوق ليشمل الأمة بأسرها. بعد أن كان محدداً بالمقاطعة . فحلت الدولة محل الإقطاعية . كما تطلب التقدم التكنولوجى أيضا وزيادة الإنتاجية تطلبا غزو لأسواق الخارجية . الأمر الذى تطلب بدوره أن يكون للدولة جيش قوى يمكنها من منافسة الدول الأخرى فى الحصول على هذه الأسواق الخارجية الحديثة . أى المستعمرات. وحمايتها . وكان نمو حجم السوق فى مرحلة من المراحل . ضروريا لنشأة الدولة ونمو قوتها ، ولكن النمو فى حجم السوق هو أيضا الذى حتم بدوره فى العقود الأخيرة بداية التضاؤل فى قوة الدولة ، وكما حلت الدولة محل الإقطاعية تدريجيا منذ نحو خمسة قرون . تحل اليوم الشركات متعدية الجنسية تدريجيا محل الدولة، والسبب فى الحالتين واحد هو التقدم التكنولوجى وزيادة الإنتاجية والحاجة إلى أسواق أوسع[1]

(١) المرجع السابق . ص ص ١٥٥ – ١٥٧

رابعا: القديم والحديث فى العولمة: حالة مصر:-

كانت مصر أول دولة عربية تتصل بالحضارة الغربية الحديثة نتيجة للحملة الفرنسية عليها منذ مائتى عام .ولكنها شهدت ، خلال هذين القرنين، تعاقب فترات من الانفتاح النسبى على الغرب وفترات من العزلة النسبية والحماية . وبعد ذلك العمر القصير للحملة الفرنسية ، مرت مصر بفترة استغرقت ما يقرب من نصف قرن من المساهمة النشطة فى التجارة الدولية ، واستعارة وسائل التكنولوجيا الحديثة والمهارات من الخارج ، ولكن فى إطار استراتيجيات التصنيع ذات التوجه الداخلى والتى اعتمدت فى الأساس على المواد الأولية المنتجة محليا ، واعتماداً كليا تقريبا على السوق المحلية ، واعتمادا تاما على المدخرات الوطنية[1].

تلت ذلك فترة استغرقت نحو ستين عاماً (١٨٥٤- ١٩١٤)تدخل فيها العقود الثلاثة الأولى من الاحتلال البريطانى لمصر، فتحت فيها أبواب الاقتصاد والمجتمع على مصاريعها للمؤثرات الخارجية ، فزادت بشدة مساهمة مصر فى التجارة الدولية ، وتدفقت رؤوس الأموال الأجنبية على مصر ، وزاد بسرعة عدد الأجانب المقيمين فيها ، وشهدت الزراعة المصرية تحولاً جذريا بسبب تطبيق أساليب الرى الحديثة ، كما شهدت أنماط الاستهلاك التى ظلت على حالها تقريباً دون تغير يذكر طوال النصف الأول من القرن انقلابا خطيراً فى نصفه الثانى[2]

---

(١) جلال أمين ، العولمة والتنمية العربية من حملة نابليون إلى جولة الأورغواى ١٧٩٨ - ١٩٩٨).
مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٩٩ ، ص

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٩

ثم اضطرت مصر خلال فترة ما بين الحربين (١٩١٤ - ١٩٤٥) كما اضطر كثير من دول العالم الأخرى - إلى تبنى سياسات اقتصادية أكثر توجها إلى الداخل ، ولكن مصر عادت إلى الاندماج فى الاقتصاد العالمى والتفاعل معه خلال العقد التالى لانتهاء الحرب العالمية الثانية ، ثم حدث فى العقدين التاليين (١٩٥٦ -١٩٧٤)أن عادت مصر إلى اتباع سياسة التوجه إلى الداخل، فعلى الرغم من أنها استمرت فى الاعتماد بشدة على التجارة الخارجية (بل وخلال هذين العقدين اعتمدت أيضا بشدة على المعونات الخارجية . وعلى استيراد التكنولوجيا والخبرة الأجنبية ، فان سياسة التصنيع خلال هذين العقدين اعتمدت اعتماداً يكاد يكون تاماً على السوق المحلية . و أبدت أيضا حذرا بالغا من الاستثمارات الأجنبية الخاصة[1].

ثم بدأت مصر من جديد ، ابتداء من منتصف السبعينات ، بمرحلة من الاندماج المتزايد فى الاقتصاد العالمى : مزيداً من تحرير التجارة الخارجية ، وتشجيعاً متزايداً للاستثمارات الأجنبية الخاصة ، وانفتاحاً أكثر فأكثر على التكنولوجيا الحديثة ، بما فى ذلك وسائل نقل المعلومات والأفكار وأنماط الاستهلاك ، فتبنت مصر سياسة الانفتاح الاقتصادى فى عام ١٩٧٤ ، وعلى الرغم من أن التصريحات الرسمية قد تفاوتت ، منذ ذلك الوقت . فى قوة التعبير عن الالتزام بهذه السياسة ، فان الأبواب التى فتحت فى عام ١٩٧٤ لم يجر إغلاقها قط بعد ذلك ، واستمرت مصر تساهم بدرجة متزايدة فى تيار

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٨٩ - ٩٠ .

العولمة[1].

واتسمت هذه الحقبة الأخيرة من حقب انفتاح مصر على الاقتصاد العالمى ، وهذه الحقبة التى اقترنت بشيوع استخدام تعبير العولمة ببعض السمات التى تميزها عن الحقب السابقة لاندماج الاقتصاد المصرى بالعالم الخارجى تتمثل فيما يلى[2]:-

أولا : يلاحظ زيادة درجة التنوع فى السلع والخدمات التى تكون الآن قائمة الصادرات وقائمة الواردات المصرية ، وكذلك تنوع شركاء مصر فى التجارة الخارجية ، إن نسبة التجارة إلى الدخل القومى المصرى هى بلا شك أقل الآن مما كانت فى فترات معينة من القرن الماضى والعقود الأولى من القرن الحالى ، ولكن تجارة مصر الخارجية فى ذلك الوقت بعكسها الآن ، كانت تسيطر عليها سلعة واحدة : هى القطن الخام، وشريك واحد هو بريطانيا .

ثانيا : هناك الآن أيضا تنوع أكبر بكثير فى ميادين جذب الاستثمارات الأجنبية الخاصة ، فمنذ مائة عام ،كانت الاستثمارات الأجنبية الخاصة فى مصر تكاد تقتصر على مشروعات البنية الأساسية الاقتصادية . وكانت القروض الأجنبية لمصر تكاد تقتصر على القروض المقدمة إلى حاكم مصر . أما الآن ، فالاستثمارات الأجنبية الخاصة تمتد لتشمل فروعا متنوعة من الصناعة التحويلية والسياحة والبنوك

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٠.

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٩٠ - ٩٢.

وغيرها من الخدمات ، والقروض الأجنبية تقدم بدرجة متزايدة إلى مشروعات القطاع الخاص أيضا ، بالإضافة إلى القروض المقدمة إلى الدولة ومشروعات القطاع العام .

ثالثا: زادت بشدة نسبة السكان الذين يقومون بنشاط يتصل بشكل أو بآخر بالاقتصاد العالمي ، فعبر فترة طويلة امتدت إلى ما يقرب من قرن ونصف قرن ، منذ الحملة الفرنسية على مصر وحتى منتصف القرن العشرين ، ظلت الغالبية العظمى من الشعب المصرى تكاد لا تستخدم أى سلعة مستوردة من الخارج ، ولا تحقق لنفسها ، في الوقت نفسه ، نفعاً يذكر من تصدير القطن ، فلقد ظل معظم المصريين طوال تلك الفترة يعيشون على حد الكفاف بينما كانت درجة درايتهم بالأفكار وأنماط الحياة الأجنبية منخفضة للغاية ، أما اليوم فإننا نرى بعض السلع المستوردة فى بيوت الغالبية العظمى من المصريين . بما فى ذلك بيوت كثير من أشد العائلات الريفية فقراً.

وعلى الرغم من أن عدد المصريين المشتغلين أو المتصلين على نحو أو آخر بتصدير النفط ، هو عدد صغير للغاية ، فقدر عدد العائلات المصرية التى تحقق نفعا ماديا ، مباشر أو غير مباشر من السياحة ، بنحو مليونى أسرة أى نحو سدس السكان ، كما أن هناك عدداً مماثلا من الأسرة المصرية يحصل على تحويلات من المصريين العاملين بدول النفط العربية ، هذه التحويلات التى تمثل الآن أهم مصدر من مصادر العملة الأجنبية فى مصر .

رابعا : تلعب الآن الشركات والمؤسسات متعددة الجنسية دوراً هاماً فى إدماج مصر بالاقتصاد العالمى . إذ تعمل فى مصر الآن أكثر من ٤٠٠ شركة من الشركات متعددة الجنسية ومع بداية التسارع فى عملية الخصخصة فى مصر ، ينتظر أن تزيد مساهمة هذه الشركات فى الاقتصاد المصرى ، كذلك تلعب المؤسستان الدوليتان العتيدتان ، صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ، دورا مهماً فى التعجيل باندماج الاقتصاد المصرى فى الاقتصاد العالمى . مما لا تجد له مثيلا فى تجارب مصر السابقة فى علاقاتها الاقتصادية الخارجية .

وهذه السمات الأربع التى قد تجعل اندماج الاقتصاد المصرى بالاقتصاد العالمى يبدو وكأنه ظاهرة جديدة تماماً ، مما قد يبرر استخدام هذا اللفظ الجديد " العولمة " ، قد جعلت الآثار المترتبة على هذا الاندماج أبعد مدى وأعمق من أى أثر قد تكون مصر عرفته فى الماضى لاتصالها بالعالم الخارجي ، فتيار العولمة الآن يكاد يلمس كل جانب من جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى مصر [1].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٢

خامسا : العولمة والهوية :

ارتبط سؤال الهوية بعملية العولمة باعتباره القضيــة المحورية . والـذى يعبر التحدى الحضارى الحقيقى الـذى شـهده العـالم العربـى والإسـلامى مـع نهاية الألفية الثانية ، ويكاد يكون سؤال الهوية الهاجس الوحيـد الثـابت فـى أى معالجة لقضية العولمة خاصــة وأن البعـض يـرى العولـة وكأنـها مخطـط أو استراتيجية محددة تم تخطيطها وتنفيذها بوعــى وقصـد بـهدف اجتيـاح بقيـة العالم وتهديد الثقافات المحلية والقومية الأخرى ولقد أدخلـت تطـورات العـالم حقيقة فى تفاعلات ومواجهات لم يعرفـها مـن قبـل بسـبب إسـقاطها المسـتمر لحدود الزمان والمكان ، فهى تـهدد الجغرافيـا ، وحـدود الدولـة السياسـية ، وكل هذه المظاهر كانت تعنى سابقاً السيادة الوطنيـة والأمـن بمعنـاه السياسـى والعسكرى والنفسى . ورغم وهمية الحدود فى كثير من الأحيان إلا أنها تـؤدى وظيفة الإحساس بالذات والتمايز . لذلك أصبحت الشعوب والـدول والثقافـات أكثر حاجة للبحث عن شروط ومواصفات تؤكد اختلافها وتمايزها بقصد تكوين علاقة واضحة بين الأنا والآخر ، وهذا ما يجعل حضور وصعود سـؤال الهويـة عادياً لمواجهة تسارع التحولات التـى يعيشـها العـالم الـذى تحـول بـالفعل إلى قرية كونية صغيرة مع التقارب وتـهاوى الحـدود بسـبب دور التكنولوجيـا فـى الاتصال والمواصلات وحركة العمليات التجارية ، كما تمثلـها الشـركات عـابرة القومية ، وتنقل رؤوس الأموال وهجـرة العمالـة بالإضافـة لتعميـم قيـم ومبـادئ سياسـية وقانونيـة ودسـتورية مثـل الديمقراطيـة وحقـوق الإنسـان . وإنصـــاف

وتمكين المرأة و الأقليات ، ثم انتشار أنماط فى السلوك والمظهر والثقافة عموماً ذات مصادر ومرجعية غربية أو حتى أمريكية ، كل هذا يجعل كثيراً من الشعوب والمجتمعات تبحث عن وسائل لاستيعاب واقع العولمة الحالى دون خسائر أو تنازلات كبيرة ، والمعيار لمعرفة ذلك هو مدى تأثير العولمة على ما يسمى بالهوية أو الثقافة الوطنية[1].

وفى عصر الانهيارات الكبرى ، وفى ظل آليات الهيمنة العالمية تحولت الثقافة الاستهلاكية إحدى مجالات تدويل النظام الرأسمالى ، إلى آلية فاعلة لتشويه البنى التقليدية وتغريب ، الإنسان وعزله عن قضاياه . وإدخال الضعف لديه والتشكيك فى جميع قناعاته الوطنية والقومية والأيديولوجية ، وذلك بهدف إخضاعه نهائيا للقوى والنخب المسيطرة على القرية الكونية واضعاف روح النقد والمقاومة عنده حتى يستسلم نهائيا إلى واقع الإحباط فيقبل بالخضوع لهذه القوى أو التصالح معها ، وهكذا تعد العولمة أحد التحديات التى تقف أما بناء المجتمعات التقليدية لأنها تحطم قدرات الإنسان فيها ، وتجعله إنسانا مستهلكا غير منتج ، ينتظر ما يجود به الغرب ومراكز العالم من سلع جاهزة الصنع ، بل تجعله يتباهى بما لا ينتجه ، ويمكن إيجاز أهم الأهداف التى تسعى إليها الفئات الرأسمالية الموحدة وتأثيراتها على تغيير البنى التقليدية فى المجتمعات المحيطة فى التالى[2]:-

---

(١) حيدر إبراهيم ، العولمة وجدل الهوية الثقافية ، فى: عالم الفكر ، مرجع سابق ، حتى ص ١٠١ - ١٠٢.

(٢) أحمد محمد حجازى ، العولمة وتهميش الثقافة الوطنية : رؤية نقدية من العالم الثالث، عالم الفكر ، مرجع سابق ، ص ١٣٣.

١- التحكم في مسار تطور البنى التقليدية بالقدر الذى يسمح فقط بتصريف منتجات هذه الدول (المركز الرأسمالى المعولمة)، وبالقدر الذى يسهم فى تطوير قوى الإنتاج بالداخل . وقد لعبت آلية تعميم ثقافة الاستهلاك دوراً مؤثراً فى ذلك حيث يمكن رصد مظاهر التطلعات الاستهلاكية لدى الفئات والشرائح المختلفة فى هذه الدول . والعالم العربى خير مثال على ذلك حيث نجد التطلع الشديد للبحث عن الجديد فى الأسواق بغض النظر عن حاجة المجتمع إلى هذا الجديد من السلع . ولم يقتصر الأمر على الفئات العليا فى هذه المجتمعات ، وه ما كان هدفاً فى حد ذاته فى النظام الاستعمارى القديم حيث كانت الاستراتيجية تقوم على خلق شرائح قادرة على الاستهلاك ، ولقد أصبح الاستهلاك – وهذا هو الجديد – معمما على الفئات العمرية والفئوية المختلفة[1].

٢- العمل على تغريب الثقافات الوطنية من خلال آليات أصبحت أكثر قوة مثل وسائل الأعلام والتقنية الحديثة . واحتكارها على مستوى المعرفة وعلى مستوى التشغيل ، وكان لصناعة الثقافة دور مهم فى هذا الإطار . حيث تم توجيه نمط الثقافة فى فترة ما بعد الحداثة ، نحو إعادة إنتاج وتقوية منطق الاستهلاك لدى الشعوب ، ومن يستعرض . مثلا ، الأسواق الخليجية والعربية بوجه عام سوف يشهد بأن التوكيلات التجارية الأجنبية المسيطرة على هذه الأسواق تستأثر بالنصيب الأعظم من جملة

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٥.

العلميات التجارية القائمة[1].

٣- توظيف العلم للاختراق الثقافى والهيمنة على الثقافات التقليدية بهدف طمس هوية الشعوب ، وقد تعددت آليات هذه الهيمنة كما وكيفا بين ثقافة قومية وأخرى . ولا شك أن المتابع للبرامج التى تبثها الإذاعات المختلفة حتى العربية منها ، يلحظ بوضوح إظهار تفوق الحضارة الغربية ، وتغلغل قيم الرأسمالية فى المؤسسات الوطنية ذات الصلة بالثقافة . ومناهج المدارس والجامعات ومراكز البحوث كلها تشير إلى ذلك ، بالإضافة إلى ما تقدمه المؤسسات من منح ومواد إعلامية وبحوث تجرى عن طريق المؤسسات الرأسمالية ، كلها تصب فى إطار ترسيخ تفوق الغربى على ماعداه من الجنسيات الأخرى.

٤- دعم السياسات الاقتصادية والاجتماعية التى تقدمها المؤسسات الدولية (البنك الدولى ، وصندوق النقد الدولى وغيرهما من المؤسسات) للدول الأقل تطوراً طالما أنها تحقق مصالح القوى الرأسمالية الجديدة ، وكم من قرارات محلية تتعكر بسبب توحد مصالح المراكز الرأسمالية والوقوف ضد هذه القرارات لأنها لا تحقق ما تربو إليه من خدمة النظام الرأسمالى المعولمة[2].

٥- نقل الصناعات التقليدية من المركز الرأسمالية إلى بعض الأجزاء الأخرى من العالم ، إما لاستغلال الأيدى العاملة الرخيصة فى الدول المتلقية لهذه الصناعات ، أو تفادى تلوث البيئة فى المراكز ، ومع أن هذه العملية (نقل

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٥.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٦.

الصناعات) تدخل فى عملية تدويل الاقتصاد ، إلا أن أبعادها الثقافية أهم بكثير من أبعادها الاقتصادية ، فهى ترسخ ثقافة " تخليص المجتمعات التقليدية من دائرة التخلف " ، برغم أن الواقع الفعلى يثبت عكس ذلك حيث تعمل الرأسمالية على استخلاص فائض إنتاج الدول المتخلفة ، ويضاف لحساب الفئات الرأسمالية العالمية ، ويحل من أزمة الداخل فى المراكز وليس فى المحيطات[1].

فكما أن العولمة تؤدى إلى تغيير مكونات "سلة السلع" المتاحة للاستهلاك ، فإنها تؤدى أيضا إلى تغيير " أذواق" المستهلكين ولكن الذوق هو أحد المكونات الأساسية لثقافة مجتمع ما ، أو بالأحرى فإننا إذا استخدمنا هذا اللفظ "الذوق " للإشارة إلى المجتمع ككل ، وليس لفرد أو مجموعة من الأفراد ، "فان الذوق " يصبح مجرد اسم آخر لثقافة المجتمع ، ولقد مرت مصر ببعض الحقب التاريخية خلال القرنين الماضيين والتى كانت التجارة الدولية فيها تشكل نسبة أعلى من الناتج الإجمالى مما تشكله اليوم ، ولكن من الصعب أن نشير إلى أى فترة طوال تاريخ مصر الحديث تعرضت فيها الثقافة المحلية لتأثيرات خارجية بنفس الدرجة من القوة التى تعرضت لها خلال العقدين أو العقود الثلاثة الأخيرة ، وتوجد بعض الملاحظات تحظى بقدر كبير من الاتفاق فى هذا الشأن تتمثل فى[2].

أولاً : على الرغم من أن لفظ العولمة لا يحمل أى دلالة على "محتوى" ظاهرة العولمة نفسها ، إذ أنه لا يقول لنا أى شيء عما يجرى عولمتة . فانه

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٦.

(٢) جلال أمين ، العولمة والتنمية العربية ، مرجع سابق ، ص ص ١١٥ – ١١٦.

من الصعب إنكار أن العولمة الثقافية هي في الأساس عولمة لثقافة بعينها، فأذواق الناس في كل مكان تقريبا من الكرة الأرضية تخضع الآن لمؤثرات بعينها ، تعمل على تغيير أذواقهم وقيمهم وأنماط سلوكهم في اتجاه الأذواق والقيم وأنماط السلوك النابعة من "الغرب" ومن ثم فان ظاهرة عولمة الثقافة هي في الأساس عملية " تغريب" وعلى الرغم من أن كثيرا من الناس يميلون إلى الاعتقاد بأن كثيرا من عادات الاستهلاك الغربية (كحيازة جهاز التليفزيون مثلا) تمثل مستوى أعلى أو أرقى في تطور الإنسان ، فان كثيرين غيرهم يفضلون أن يعتبروا أن هذه العادات ليست إلا صورة من العديد من الصور الممكنة للحياة وللاستمتاع بها، مما يصعب اعتباره أعلى أو اكثر انخفاضا من أنماط أخرى من السلوك تنتهجها ثقافات أخرى . أو حتى اعتبارها بالضرورة مصدرا لدرجة أكبر من الاستمتاع بالحياة[1].

ثانيا : على الرغم من أن اتصال ثقافة بأخرى هو ظاهرة قديمة جداً قد ترجع إلى بداية التاريخ الإنساني نفسه ، وعلى الرغم من أن اقتباس وتأثر ثقافة أو حضارة بأخرى كانا دائماً جزءاً من جوهر التقدم الإنساني ، فان اقتران هذا الاقتباس ، أو هذا التأثير بالقهر و الإجبار لابد أن يسبب بالضرورة بعض الانخفاض في مستوى الرفاهية الإنسانية ، فبغض النظر عن القيمة الذاتية " لأي عنصر من عناصر ثقافة أمة ما (إذا

(١) المرجع السابق ، ص ١١٦.

جاز للمرء أن يتكلم عن القيمة الذاتية لأى ثقافة على الإطلاق) فانـه لا شك فى أن ثمة خسارة ما فى مستوى الرفاهية ، فى التخلى عن بعـض مكونات ثقافة الأمة ، و إذا كان هذا التخلى لا يحدث طوعـاً وبصـورة طبيعية وبحرية تامة إلا أن هناك من صور القهر الثقافى التى لا تختلف كثيراً عن صور القهر السياسـى أو الاقتصـادى أو المـادى مـن حيـث مـا تسببه من انخفـاض مسـتوى الرفاهيـة ، حتـى وإن انتـهى هـذا القـهر بالقبول النهائى من جانب الثقافة التى يجرى غزوها للثقافة الغازية[1].

ثالثاً : لابد مـن الإعـتراف بأنـه ليـس كـل مكونـات الثقافـة الوطنيـة جديـراً بالصيانة والبقاء ، وليس كل تخلى عنها غير مرغوب فيه ، فمن المؤكـد أن هناك بعض الجوانب فى ثقافة أى أمـة ، والتـى تدعـم أو تسـتخدم لتبرير استمرار الفقر، أو التـى تعطـل بـدلاً مـن أن تنمـى القـدرة علـى الاستمتاع بالحياة ولكن حتى فى هذه الحالات ، هناك دائما خطر فـى أن يؤدى التهور والتسرع فى محاولة القضاء على هذه الجوانب السـلبية أو استخدام القهر و الإرغام فى القضاء عليها ، إلى نتائج أسوأ مما ينتـج من هذه الجوانب السلبية نفسها ففى محاولة التخلص من هذه الجوانب الضارة أو غير المرغوب فيها من جوانب ثقافـة مجتمـع مـا ، وبخاصـة تلـك الجوانـب الوثيقـة الصلـة علـى نحـو أو آخـر بقيـم وتقـاليد هـذا المجتمع ، يجب أن يكون القائمون بهذه المهمة هم أعضاء هذا المجتمع

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ١١٦– ١١٧.

نفسه ، أى يجب أن يترك لكل مجتمع الحق فى أن يحدد بمطلق الحرية أفضل السبل للتخلص من هذه الجوانب السلبية ، وأن يحدد بنفسه درجة السرعة أو البطء المطلوبة فى الوصول إلى هذا الهدف[1].

رابعاً : على الرغم من أن المجتمع بأسرة تقريباً ، قد يكون معرضا لتأثير الثقافات ، وأنماط الاستهلاك الأجنبية ، فليس لدى كل شرائح المجتمع القدرة أو الرغبة فى الاستجابة لإغرائها ومن الطبيعى أن تلك الشرائح التى لا تتوافر لديها القدرة الشرائية الكافية أو الأكثر تمسكا بالتقاليد ، سوف تشعر بنوع من المرارة إزاء الشرائح الاجتماعية الأخرى الأكثر قدرة ورغبة فى اقتباس أنماط السلوك الغربية ، وقد تبدو هذه الشرائح الأخيرة فى نظر الأولى ، وكأنها قد خانت تقاليد أمتها وتنكرت لها إن مشاعر كهذه تمثل فى حد ذاتها انخفاضا فى مستوى الرفاهية الاجتماعية وقد تكون مصدراً إضافيا لهذا الانخفاض بما يؤدى إليه من إضعاف التضامن الاجتماعى ، وإضعاف الميل إلى التعاون لتحقيق أهداف اجتماعية مشتركة ، مما قد يدفع تلك الشرائح الاجتماعية "المستغربة" إلى الانعزال والابتعاد عن الاندماج فى النشاط الاجتماعى العام ، وقد يهدد الاستقرار الاجتماعى والسياسى[2].

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ١٢٠ –١٢١.

(٢) المرجع السابق ، ص ص ١٢١ – ١٢٢ .

سادسا: التعامل مع العولمة في صورتها الحديثة:

لقد أصبحت العولمة الآن أكثر وضوحا ، فعلى الرغم من كل الأوهام والمبالغات الشائعة والواسعة الانتشار ، فان حقائق العولمة أصبحت واضحة على إثر التحولات والتطورات العلمية والفكرية والحياتية المتدفقة والتى يعيشها العالم حاليا ، وتأتى فى مقدمة هذه الحقائق أن العولمة هى لحظة جديدة برزت خلال عقد التسعينات ، وفى ظل الاتجاه المتزايد نحو انكماش العالم وزيادة وعى الأفراد بهذا الانكماش. ومهما حقيقة العولمة وآثارها الاقتصادية والسياسية ، فان الواضح الوحيد هو أن هذه اللحظة تتضمن الكثير من الفرص والمخاطر فالعولمة ونتيجة لارتباطها بالثروة العلمية والمعلوماتية ستفتح أمام البشرية آفاقا معرفية لا متناهية ، كذلك فانه إذا كانت العولمة تعنى التدفق الحر للسلع والخدمات عبر الاقتصاديات المفتوحة على بعضها البعض ، فان بإمكان كل الدول والمجتمعات الاستفادة من مثل هذا التدفق لزيادة فرص النمو والرفاهية فى كل أرجاء المعمورة كما أن بإمكان كل الثقافات فى العالم أن تستفيد من اقترابها من بعضها البعض ، وأن تسخر التدفق الحر للبيانات والمعلومات والأفكار والمفاهيم لكى تتعرف على اختلافاتها . وتحترم خصوصياتها وتعزز من التنوع الثقافى العالمى ، أما إذا كانت العولمة تعنى بروز نظام عالمى جديد أكثر اهتماما بقضايا البيئية وحقوق الإنسان ويتصدى بشكل جماعى لقضايا الانفجار السكانى ، وتزايد الفقر فى العالم ويجد الحلول للاختلافات الاجتماعية الأخرى ، فان هذا النظام سيكون حتما أكثر استقرارا وأقل توترا من النظام العالمى القديم الذى انتهى بانتهاء صراع الشرق والغرب.

واختفاء التوتر النووى بين الدول العظمى ، فإذا كانت العولمة هى تجسيد لمثل هذه الإيجابية فان هذه هى العولمة ذات الوجه الإنسانى والتى ستجد الترحيب– كل الترحيب – من قبل جميع الدول والمجتمعات [١].

ويبدى البعض الآخر الخوف من العولمة ، حيث أنه فى ظل العولمة وتقلص دور الدولة وانشغال النظام لن تشبع حاجات الأغلبية ، فالحاجة إلى العمل هى حاجة أساسية للجميع لن تتحقق فى ظل العولمة حيث ستنتج البطالة والفقر المتزايد وزيادة حدة الهامشية ، كما تسعى الدول أيضا إلى الاستقلال و الحياة الكريمة ، وفى ظل العولمة لن يتحقق ذلك ، حيث تفقد الأمم شرعيتها [٢].

ومهما كان الموقف من العولمة ، إلا أن هناك حذرا شديداً عند التعامل معها ، ولم تتوقف آثارها عند تكوين مستوى اقتصادى كوكبى ، بل أدى تشكيل هذا النظام بآلياته المستحدثة إلى نتائج أخطرها ثقافية ، حيث غيرت من طابع الشخصية القومية ، ويمكن رصد أهم تجليات لعولمة فى المجالات المختلفة الآتية [٣]:–

١– الانحسار التدريجى لسلطة الدولة ، مما أدى إلى فقدان الدولة فى البلدان الصناعية الكبرى لأدوارها الوظيفية الأساسية ، إلا أن ذلك أثر بشكل أخطر على الدولة الأقل نمواً ، حيث فقدت الدولة مصداقيتها فى النهوض بشعوبها.

---

(١) عبد الخالق الله ، مرجع سابق ، ص ص ٨٧ –٨٩ .

(٢) سمير أمين ، تحديات العولمة ، شئون الوسط ، العدد ٧١ ، إبريل ، ١٩٩٨ ، ص ٥٣.

(٣) أحمد محمد حجازى ، مرجع سابق ، ص ص١٤٠ – ١٤٣.

٢- أصبح تعظيم الفائض الاقتصادى يتم على مستوى العالم ككل ، وليس على دولة بعينها ، وهنا تغيرت موازين القوى على مستوى العالم، بحيث أصبحت الشركات متعدية الجنسية هى القادرة على التحكم عن بعد فى بناء القوى المحلية ووفقا لمصالحها الخاصة من خلال أنشطتها ، وتغلغلها فى أجزاء العالم ككل.

٣- انخراط معظم البلدان الساعية نحو التنمية إلى النظام المعولم المستحدث مع ملاحظة عدم قدرة هذه البلدان على تحقيق طاقة وطنية إنتاجية تمكنها من التعامل مع السوق العالمى من موقع التكافؤ ، أو على الأقل من موقع الذاتية لإعادة الإنتاج.

٤- تداخل متعاظم عبر الحدود القومية لشئون الثقافة السياسية حيث أصبحت العولمة تعبر عن نمط معين من الحياة شاع الاعتقاد بضرورة اتباعه ، بل وتنبيه كفلسفة ونظرة معينة إلى الحياة والكون ومن هذه الفلسفة التخلى عما يسمى بالخصوصية ، فمسألة الخصوصية هذه نادراً ما تثار بسبب طول عهدنا باكتساح هذا النمط لحياتنا . وبسبب هذا الاكتساح وسرعته . وبسبب وجود مصلحة أكيدة لأصحاب الثقافة والمنتجات التى تجرى عولمتها فى عدم افتضاح خصوصياتها . واستخدامها مختلف وسائل القهر المادى والسياسى والسيكولوجى والعقلى لتصدير ما هو خاص على أنه إنسانى وعام.

٥- تنميط متزايد للسلوك البشرى فى اتجاه ثقافة معممة ، أو ما يسمى بثقافة الأمريكية خاصة فى ظل تزايد سرعة النقل والمواصلات واتساع الأسواق ، وإزالة الحواجز وانتقال المعلومات والأفكار .

٦- اندماج الثقافة فى العلمية الاقتصادية - التجارية الجديدة أسوة بغيرها من المنتجات ، إذ تحررت من القيود الجمركية ، وباتت قابلة للتداول على أوسع نطاق فى العالم ، وفى هذا المعنى أصبحت الثقافة سلعة شأنها شأن السلع المادية الأخرى ، دخلت مجال المنافسة غير المتكافئة ، فالدول التى تمتلك تقنية معرفية و اتصالية ثقافية أكبر هى القادرة على التسويق فى السوق العالمى.ولأن عدم التكافؤ بين الدول مسألة واردة ، بل واقع لا مفر منه ،يصبح التبادل الثقافى بين الشعوب ضرب من الخيال .

٧- تكوين صفوات " قوى " عولمة من رجال الأعمال لا تنتمى إلى بلد بعينة تستطيع وفقا لمواقعها على خريطة العالم نقل نشاطها من مكان لآخر تبعا لمقتضيات تعظيم الفائض الاقتصادى الرأسمالى على النطاق الدولى .

٨- عدم مواءمة ما يتم استيراده من النماذج الغربية لطبيعة احتياجات بلدان الجنوب مما يشكل تيارات مناقضة تحاول إحياء السلفية تحت تبرير الخصوصية الثقافية ، ولذلك يقرر البعض بأن الهجوم الكاسح للعولمة سوف يؤدى إلى النكوص نحو التشبث بالثقافة والهوية القومية.

٩- تشكل عولمة الاعلام والاتصال تهديدا للتعددية الثقافية ،وطمسا للهويات الثقافية للشعوب ، وقد ساعد على ذلك حالة الثقافة فى بعض المجتمعات الأقل تطورا ، فالثقافة العربية مثلا تعانى من ازدواجية نتيجة احتكاكها مع الثقافة الغربية بتقنياتها وعلومها وقيمها

الحضارية ، بالإضافة إلى التمايز الواضح بين ثقافة النخب وثقافة الجماهير ، والنتيجة استمرار إعادة متواصلة ومتعاظمة للازدواجية نفسها ، ازدواجية التقليدى والعصرى، ازدواجية الأصالة والمعاصرة فى الثقافة والفكر والسلوك .

١٠- تعاظم الهوس المالى حتى فى البلدان الأقل نمواً حيث انتشار البورصات المالية فى تلك البلدان أسوة بما حدث فى الدول الرأسمالية الكبرى . وبناء عليه تم إعادة هيكلة الاقتصاد فى هذه الدول بما يخدم المؤسسات الكبرى عابرة القوميات .

ومع التسليم بأن تأثيرات العولمة على دول ومجتمعات العالم الثالث متفاوتة ، من حيث طبيعتها ودرجة حدتها ، إلا أن هذا لا يعنى أنه لا توجد إمكانيات أو مجالات وفرص لتقليص مخاطر العولمة على هذه الدول وزيادة الإيجابيات التى يمكن أن تحقق منها . وتجدر الإشارة فى هذا المقام إلى أنه من أخطر المواقف التعامل مع العولمة بمعيار الرفض المطلق أو القبول المطلق ، فالرفض المطلق للعولمة لن يمكن الدول و المجتمعات من تجنب مخاطرها . كما أن القبول المطلق لها لن يمكنها من جنى ثمارها ، ومن هنا تبدو أهمية بلورة الشروط الموضوعية والاستراتيجيات الحركية التى تسمح لدول العالم الثالث بأن تعظم فوائدها من علمية العولمة ، وتحجم ما يمكن أن تتركه عليها من سلبيات ومخاطر ، ومن ثم لابد من التحرك والعمل على ثلاثة مستويات على النحو التالى[1]:-

---

(١) حسنين توفيق إبراهيم ، العولمة : الأبعاد والانعكاسات السياسية : رؤية أولية من منظور علم السياسة ، عالم الفكر ، مرجع سابق ، ص ٢١٦.

١-المستوى الوطنى " الداخلى " : حتمية الإصلاح الإدارى والسياسى والتعليمى :-

إن الأوضاع الداخلية فى العديد من دول العالم الثالث ، ومنها الدول العربية لا تؤهلها للتعامل بفعالية مع متطلبات عصر العولمة وتحدياته ، مما يحتم ضرورة الشروع فى علمية إصلاح داخلى جاد وحقيقى ، ورغم أن عملية الإصلاح يجب أن تكون شاملة ، إلا أنه من المهم التركيز خلال المراحل الأولى على العناصر والمجالات ذات التأثير الأكبر فى دفع عملية التنمية ، و إعداد الدول والمجتمعات للقرن المقبل ، ومنها على سبيل المثال : إصلاح الأجهزة الإدارية والحكومية التى تمثل العصب الأساسى للدولة ، وذلك وفقا لرؤى جديدة تجعل أجهزة الدولة ومؤسساتها أكثر قدرة على التكيف مع المتغيرات الجديدة ، كما إن إصلاح نظم وسياسات التعليم والتدريب والتأهيل يمثل عنصراً جوهرياً فى هذا الإطار باعتباره المدخل الرئيسى لتنمية قدرات البشر وخلق قوة عاملة مدربة ومؤهلة وقادرة على استيعاب التطورات المرتبطة بظاهرة العولمة ، وبالإضافة إلى ما سبق ، فان تطوير سياسات نقل التكنولوجيا وتوطينها والعمل على تنمية قاعدة تكنولوجية محلية يعتبر من المتطلبات الأساسية لتهيئة الدول لعصر العولمة . و إلى جانب الإصلاح الاقتصادى ، فان الإصلاح السياسى يمثل ركيزة أساسية فى أية استراتيجية إصلاح داخلى ، فالإصلاح السياسى القائم على تحقيق تحول ديموقراطى حقيقى بصورة تدريجية وتراكمية وتحقيق العدالة الاجتماعية ومكافحة ظواهر الفساد السياسى و الإدارى ، يعتبر هو المدخل الحقيقى لبناء دولة المؤسسات وتحقيق

سيادة القانون ، وترشيد عملية صنع السياسات والقرارات[1].

٢-المستوى الإقليمى : ضرورة تفعيل هياكل وسياسات التكامل الإقليمى :-

نظراً لعمق التحديات التى تطرحها العولمة على الدول النامية ، و ومحدودية قدراتها على التعامل معها فرادى ، فان تطوير سياسات التكامل الإقليمى بين هذه الدول فى إطار المناطق والنظم الإقليمية التى تشملها ، أصبح ضرورة ، خاصة وان أغلب مناطق العالم الثالث لا تنقصها هياكل التكامل ولا التصورات والأفكار والبرامج ، ولكن الذى ينقصها بالأمس هو إرادة التكامل ، بما تتضمنه من معانى الحرص والعمل المشترك على تذليل المشكلات والعقبات التى تعيق التكامل ، وقد تكون التحديات المشتركة التى تمثلها العولمة لهذه الدول دافعاً لها لاتخاذ خطوات جادة وحقيقية على طريق تفعيل عمليات التكامل الإقليمى فيما بينها[2].

٣-المستوى العالمى : ضرورة العمل على إيجاد نظام عالمى أكثر عدلاً وأكثر ديموقراطية :-

لا تستطيع دول الشمال أن تعزل نفسها عن مشكلات وقضايا دول الجنوب ، وإن استقرار الشمال وأمنه يرتبط فى جانب مهم منه بحالة الاستقرار والتنمية فى الجنوب والشرق ، مما يؤكد ضرورة العمل على إيجاد نظام عالمى أكثر عدلاً ، وأكثر ديموقراطية يكون العالم الثالث طرفاً مشاركاً فيه وليس على هامشه ، ويجرى فى إطاره ترشيد عملية العولمة ، ومساعدة دول

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٧.

العالم الثالث على مواجهة بعض التحديات المزمنة التى تعانى منها ، والتصدى للمشكلات العالمية العابرة للحدود، وهناك العديد من التصورات والأفكار المطروحة بهذا الخصوص ، وقد ورد كثير منها فى التقرير الذى أصدرته " لجنة إدارة شؤون المجتمع العالمى " بعنوان جيران فى عالم واحد"[1].

(١)المرجع السابق ، ص ٢١٧.

خاتمـــة :-

نتيجة لأن التفكير الاجتماعى الصادق يجـب أن يقـوم علـى فـهم واع للخلفيات الفكرية المختلفة ، و إحاطة بالعمليـات الاجتماعيـة والقوانـين التـى تنظمها ، ولأن التفكير الاجتماعى نتاج للواقع ومتابعة لما يجرى فـى المجتمـع من وقائع وأحداث ، فقد تعرضنا لعملية العولمة باعتبارها فكـر اجتمـاعى قديـم وصياغة حديثة ، ولحظة برزت خلال تسعينات القـرن المـاضى . وباعتبارهـا إحدى القضايا التى شغلت كافة الباحثين.

كما أن حقائق العولمة أصبحت واضحة على إثر التحـولات والتطـورات العلمية والفكرية التى يعيشها العالم حاليا، وما أنتجته هذه الظاهرا كان مجالا لدراسات اجتماعية واقتصادية وسياسـية وثقافيـة وإعلاميـة ، كـل فـى مجـال تخصصه ، حيث أفرزت هذه الظاهرة مجموعة من النتـائج مـن أهمـها تضـاءل دور الدولة وانسحابها من العمليات التى كانت تقوم بها مسبقا مفسحة الطريـق أمام القطاع الخاص والمنظمات غير الحكومية للقيام بهذا الدور . وانتقال مركز الثقل الاقتصادى العالمى مـن الوطنـى إلى العـالمى ، ومـن الدولـة إلى الشـركات والمؤسسات والتكتلات الاقتصادية ، وبلوغ البشرية مرحلة الحرية الكاملـة فـى مجال انتقال الأفكار والمعلومات والاتجاهات والقيم ، وأصبح ملايين من البشـر موحدين تليفزيونيا وهاتفيا ومن خلال البريد الإلكترونى وشبكات الإنترنت.

وفى ضوء هذه التأثيرات ، انقسم الباحثون بين مؤيد ومعارض . مؤيـد يرى أن ارتباط العولمة بالثورة العلميـة والمعلوماتيـة سـيفتح أمـام البشـرية آفاقـا

معرفية لا متناهية . وأنه إذا كانت العولمة تعنى التدفق الحر للسلع والخدمات عبر الاقتصاديـات المفتوحـة علـى بعضـها البعـض ، فـان بإمكـان كـل الـدول والمجتمعات الاستفادة من هذا التدفق لزيادة فـرص النمـو والتنميـة فـى كافـة أرجاء العالم ، هذا فضلا عن إمكانية استفادة كافـة الثقافـات فـى العـالم مـن اقترابها من بعضها البعض ، وأنها ستبرز نظاما عالميا أكثر استقرارا وأقل توترا من النظام السابق .

ويـرى المعـارضون أنـها تـؤدى إلى زيـادة حـدة الاسـتقطاب العـالمى الأحـادى، وتنـامى الهـوة بـين دول الشـمال والجنـوب ، وزيـادة حـدة الفقـر والبطالة . وأن الثقافة أصبحت سلعة شـأنها شـأن السـلع العاديـة الأخـرى . ونتيجـة لأن عـدم التكـافؤ أصبـح مسـألة مؤكـدة ، فـان التبـادل الثقـافى بـين الشعوب الذى يروج له أنصار العولمة ، صار مسألة وهمية وضربا من الخيال .

وفى ظل هذه التأثيرات ، فانـه لابـد مـن وجـود اسـتراتيجية متكاملـة للتعامل مع العولمـة حتـى تتمكـن كافـة دول العـالم ، والـدول الناميـة بصـورة خاصة، من تجنب مخاطرها والاستفادة من ثمارها . وعدم التعامل معـها مـن منطق القبول كل القبول ، أو الرفض كل الرفض ، وإنما هناك ضرورة للتعامل معها على ثلاثة مسارات متكاملة ، داخلى وإقليمـى وخـارجى ، مـع ضـرورة الاهتمام بحقوق كافة الطبقات . وبخاصة الطبقـات الفقـيرة التـى مـن الملاحـظ أنها من أكـثر الطبقـات تضـررا منـها ، حيـث تـزداد معـدلات الفقـر، والفقـر المدقع، والبطالة .

مراجـــع مختــــارة

أ- المراجع العربية :

١- أحمد الخشاب ، التفكير الاجتماعى : دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ .

٢- أحمد زايد ، علم الاجتماع ين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٤ .

٣- أحمد محمد حجازى ، العولمة ، وتهميش الثقافة الوطنية : رؤية نقدية من العالم الثالث ، عالم الفكر ، المجلد الثامن والعشرون ، العدد الثانى ، أكتوبر - ديسمبر ، ١٩٩٩ .

٤- السيد يسين ، أطروحات العولمة (٣) ، جريدة الأهرام ، ١٩٩٨/١٢/٣.

٥- ــــــــــــ ، نحو خريطة معرفية للعولمة (١) ، جريدة الأهرام ، ١٩٩٨/١١/١٩ .

٦- ــــــــــــ ، نظرة نقدية لتعريفات العولمة (٢) ، جريدة الأهرام ، ١٩٩٨/١١/٢٦ .

٧- ــــــــــــ ، فى مفهوم العولمة ، المستقبل العربى ، العدد ٢٨٨ ، فبراير ، ١٩٩٨ .

٨- جلال أمين ، العولمة والدولة ، فى : العرب والعولمة ، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التى نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٨ .

٩- ـــــــــــــــ ، العولمة والتنمية العربية : من حملة نابليون إلى جولة الأورغواى (١٧٩٨ - ١٩٩٨) ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٩ .

١٠- حازم الببلاوى ، النظام الاقتصادى الدولى المعاصر من نهاية الحرب العالمية الثانية إلى نهاية الحرب الباردة ، عالم المعرفة ، العدد ٢٥٧ ، مايو ، ٢٠٠٠ .

١١- حسن شحاته سعفان ، أسس علم الاجتماع ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

١٢- حسنين توفيق إبراهيم ، العولمة : الأبعاد والانعكاسات السياسية : رؤية أولية من منظور علم السياسة ، عالم الفكر ، المجلد الثامن والعشرون ، مرجع سابق .

١٣- حيدر إبراهيم ، العولمة وجدل الهوية الثقافية ، عالم الفكر ، المجلد الثامن والعشرون ، مرجع سابق .

١٤- زيدان عبد الباقى ، التفكير الاجتماعى : نشأته وتطوره ، كلية البنات الإسلامية ، جامعة الأزهر ، ط ٢ ، ١٩٧٤ .

١٥- ـــــــــــــــ ، ركائز علم الاجتماع ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

١٦- سمير أمين ، تحديات العولمة ، شئوون الأوسط ، العدد ٧١ ، أبريل، ١٩٩٨ .

١٧- عبد الخالق عبد الله ، العولمة : جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها ، عالم الفكر ، المجلد الثامن والعشرون ، مرجع سابق .

١٨- على عبد الواحد وافى ، علم الاجتماع ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٦٦.

١٩- ـــــــــــــ ، الطوطمية ، دار المعارف للطباعة والنشر ، ١٩٥٩.

٢٠- ـــــــــــــ ، آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى ، عالم الكتب، ١٩٧٣ .

٢١- ـــــــــــــ ، غرائب النظم والتقاليد والعادات ، جـ ١ ، و جـ ٢ ، مكتبة نهضة مصر .

٢٢- غريب سيد أحمد ، تاريخ الفكر الاجتماعى ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ، ١٩٨٦ .

٢٣- ـــــــــــــ وآخرون ، المدخل إلى علم الاجتماع ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٧٥ .

٢٤- قبارى محمد إسماعيل ، علم الاجتماع والفلسفة ، جـ ١ (المنطق) ، الدار القومية للطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ١٩٦٦ .

٢٥- محمد عاطف غيث ، علم الاجتماع ، دار المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٦٠ .

٢٦- ـــــــــــــ ، الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر ، دار الكتب الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٧٢

٢٧- محمد على محمد ، علم الاجتماع والمنهج العلمى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ط ١ ، ١٩٨٠ .

٢٨- مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الأول ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٢٩- نبيل السمالوطى ، البناء النظرى لعلم الاجتماع ، جـ ١ ، دار الكتب الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٧٤ .

٣٠- نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، ترجمة محمود عودة وآخرون ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

٣١- يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

ب – المراجع الأجنبية :

32- Bogardus, E., Sociology, Macmillan Company, New-York, 1954.
33- Etizioni, Amitai, Modern Organizations, prentice- Hall of Endia, private limted, New-Delhi, 1972.
34- Hisbet, R.A., The Sociological Tradition, Heinemanm, London, 1966.
35- Mortonm R., Social Theory and Social Structure, The Free press of Glencoe, 1961.
36- Parsons, T., The Social System, Amorind publications pv.t Ltd, Delhi, 1972.
37- Raymond, Aronm, Main Currents in Sociological Thought, penguin Books, London, 1967.
38- Shachar, Arie, Economic Globalization and Urban, Dynamics I, in: Moulaert, Frank & Scoll, Allan J. ceds.), Cities, Enterprises, and Society on the Eve of 21 Cenctury, pinter, London, 1997.

محتويات الكتاب

الموضـــوع	الصفحـة

الفصل الثالث

الفكر الاجتماعي عند اليونان

الفصل الرابع

الفكر الاجتماعي عند الرومان

الفصل الخامس

الفكر الاجتماعي المسيحي

الموضـــوع	الصفحـة

الفصل التاسع

العولمة فكر اجتماعى قديم وصياغة حديثة